كتاب الأمة
سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر
العدد : ١٤١ المحرم ١٤٣٢ هـ السنة الحادية والثلاثون

موقع المرأة النخبوي في مجتمع الرسالة

د. ليلى رامي

ليلى رامي

* من مواليد: الجزائر.
* تحمل درجة الدكتوراه، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانيّة بالجامعة العالمية الإسلامية (ماليزيا).
* تعمل باحثة اجتماعية عن قضايا المرأة في مدينة أوتاوا بكندا.
* اشتغلت بالتدريس الجامعي في جامعة العلوم الإسلامية بماليزيا.
* شاركت في عدد من المؤتمرات، بأوراق علمية في مجالات مختلفة.
* لها عدد من الكتب والبحوث المنشورة، منها:

- موقع المرأة النخبوي في الإسلام بين النموذج النظري والتجربة الواقعية.
- استدراكات أم المؤمنين عائشة على روايات الصحابة، دراسة منهجية.
- الإسلام لم يكن عائقاً أمام التطور في ماليزيا.

٢١٠,٤
ر ل م
١٨٢٥٨

موقع المرأة النخبوي في مجتمع الرسالة

د. ليلى رامي

الطبعة الأولى

المحرم ١٤٣٢هـ

كانون أول (ديسمبر) ٢٠١٠م – كانون ثاني (يناير) ٢٠١١م

ليلى رامي
موقع المرأة النخبوي في مجتمع الرسالة
الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٠م.
٢٢٤ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١٤١)
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٧٠٩ / ٢٠١٠
الرقم الدولي (ردمك): ٥ - ٤ - ٧٧٨ - ٩٩٩٢١
أ. العنوان ب. السلسلة

حقوق الطبع محفوظة

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بدولـــة قطـــر

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa
البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

ما ينشـــر في هذه الســـلســـلة يعبر عن رأي مؤلفـــيها

يقول تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ٧١)

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

- إعادة تشكيل العقل المسلم في ضوء معرفة الوحي
- إحياء مفهوم فروض الكفاية وأهمية التخصص

ثلث قرن من العطاء..

قطر - الدوحة - ص.ب : ٨٩٣ - هاتف : ٤٤٤٤٧٣٠٠ (٩٧٤+) - فاكس : ٤٤٤٤٧٠٢٢ (٩٧٤+)

www.sheikhali-waqfiah.org.qa E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل المرأة إنساناً كامل الأهلية، ومحلاً لخطاب التكليف، ووجّهها والرجل على سواء إلى أن العمل الصالح هو سبيل الحياة الطيبة والعاقبة الحميدة، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً...﴾ (النحل:٩٧)؛ وجعلها محلاً للولاية والاضطلاع بحمل الرسالة والقيام بحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب الرجل، فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ...﴾ (التوبة:٧١)؛ وسوّى بينها وبين الرجل في الحقوق الإنسانية العامة، فقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ (النساء:٣٢)؛ وأقام التوازن في الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة:٢٢٨)؛ وكرمها بأن جعلها في موقع متقدم للتقدير والبر والاحترام، فكانت أحق الناس بحسن الصحبة في الأسرة والمجتمع؛ وانتشل إنسانيتها من العبث الديني والتفكير الخرافي، الذي جاء ثمرة لصور التدين المغشوش وعلل التدين المتوارثة، وصوّب بالنبوة الخاتمة

الرؤى الدينية السابقة التي شككت في إنسانية المرأة وأهليتها واعتبرتها رمز الشر ومحل الخطيئة وسبب اللعنة والطرد من الجنة، وعُقدت للنظر في تكوينها وطبيعتها المجامع الدينية، وأقيمت المؤتمرات والمقارنات بينها وبين الحيوانات وبينها وبين الشيطان.

أما مدى أهليتها للتكليف واستحقاقها للمساواة في الحقوق مع الرجل فتلك قضية لم تكن مطروحة أصلاً، فهي دون مستوى التكليف(!) فالطروحات كانت غريبة وعجيبة والمقارنات جاءت محزنة والنتائج مفزعة، ولم يكن العرب في جاهليتهم قبل الإسلام بأحسن حالاً كثيراً من جاهليات الأمم الأخرى التي توظف لها قيم الدين، فالمرأة تورث كالمتاع، ويتم وأدها وهي على قيد الحياة، وتستقبل بالوجوه المسودّة الكاظمة.

فجاء الإسلام بمساواتها بالرجل، وفتح المجال أمامها لمسابقته واحتمال التميز عنه، فجعل التفاضل ليس الذكورة أو الأنوثة، ذلك أن هذه أمور قسرية، كما هو معلوم، لا يد للإنسان في إيجادها أو إلغائها، وإنما جعل ميزان التفاضل والكرامة: التقوى والعمل الصالح، وهذا أمر كسبي وفرصة متكافئة بين جميع الخلق، فالله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات:١٣)، و يقول تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ (المائدة:٤٨).

والصلاة والسلام على المثَل الكامل، الذي جعل النساء شقائق الرجال، وجزءاً منهم مكملاً لهم في الخلق والواقع، وكانت سيرته تجسيداً لدور المرأة في الحياة الإسلامية، وبياناً لمكانتها في التشريع الإسلامي كإنسان كامل الأهلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ففي عهد القدوة هاجرت المرأة وبايعت وجاهدت وعلّمت وتعلمت وحفظت القرآن وروت الأحاديث واستدركت على كبار الصحابة، واستُشيرت في أشد الأزمات تعقيداً التي مرت بالمسلمين (صلح الحديبية) وكانت من الركائز البارزة في إبصار المستقبل واستيعاب خطوات الرسالة الأولى في بدء الوحي؛ وتأكيد وجودها وأنها أصل الجنس البشري وخُلقت من نفس الرجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء:١)، وأنها محل سكينة النفس ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ (الروم:٢١)، وهي في الرؤية الإسلامية الضلع، أحد مكونات القفص الصدري الحاني والحامي لقلب الإنسان، محور إيمانه ومصدر حيويته ومحل حياته، فهي مصدر الخير ومحور المشاعر ومخزن العواطف الإنسانية.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الحادي والأربعون بعد المائة: «موقع المرأة النخبوي في مجتمع الرسالة» للدكتورة ليلى رامي، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، في محاولتها الاجتهادية الدائبة للعودة بالأمة إلى قيم

الكتاب والسنة، وتقويم واقع الناس بها، وبيان مواطن الخلل، واستنفار الجهود، وتجميعها وإعادة ترتيبها لتوفير الفاعلية الغائبة، وإحياء مفهوم فروض الكفاية، والتوجه صوب توفير التخصصات العلمية والمعرفية، وزرع الإيمان وترسيخ الاهتمام بجدواها، وإعادة بناء مفهوم أهل الحل والعقد في ضوء ما تتطلب القضايا المطروحة للنظر من التخصصات والخبرات، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:٣٦)، وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤)، وإحياء المنهج السنني في الأنفس والآفاق في الحياة والأحياء، والعمل على إعادة التوازن وضبط النسب، وإزالة الحواجز النفسية من بين العاملين للإسلام، والعودة إلى مفهوم الأخوة الجامعة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠)، والعمل على استرداد الوعي العام وتحقيق المشروعية العليا وأن الإسلام يشكل عقيدة الأمة، كل الأمة، وهويتها وتاريخها الحضاري، وليس هو اختيار جماعة أو طائفة أو حزب أو فئة أو جغرافيا، أو حكر عليها، فهماً وفقهاً وتمثيلاً، والتوسع في دوائر الخير في المجتمع، والتأكيد أن تطبيق تكاليف الشريعة منوط بالاستطاعة، فإذا استفرغ الإنسان وسعه في التطبيق فقد طبق الشريعة ولو لم يستكمل جميع فروعها،شريطة أن يؤمن بها جميعاً ويعمل على استكمالها، وأن فقه الواقع وتقدير مدى الاستطاعته لا يقل فقهاً وأهمية عن فقه النص الشرعي في الكتاب والسنة، بعد أن حفظ الله القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩) وتعهد بحفظ البيان (السنة) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة:١٩)، الأمر الذي يشكل المقدمة

الضرورية لصحة التكليف، فلابد أن تتوجه الجهود -بعد هذا العمل العظيم والكبير من التحقيق والتوثيق لسلامة النص وصحة سنده- إلى فقه إعمال النص في واقع الناس، وتقويم سلوكهم به، واستمداد الرؤية والأحكام الشرعية من نص الشارع، والاهتداء بكيفية تتزيل هذا النص وتجسيده في سيرة الرسول ﷺ والأصحاب الكرام، رضي الله عنهم،لا من مفهوم واجتهادات البشر التي قد يعتريها الكثير من الخلل والخطأ؛ فالنص هو الحاكم على الاجتهاد ومدى صوابيته، وليس الاجتهاد هو الذي يحكم النص، حال واقع الكثير من الفتاوى والفهوم، التي أقامها أصحابها حاكماً على الكتاب والسنة.

ولعل قضية المرأة ودورها في الحياة الإسلامية ووظيفتها في المجتمع ما تزال تعتبر من الإشكاليات الكبيرة المركبة والملفات المفتوحة، التي خضعت ولا تزال إلى كثير من المقاربات والمقارنات والعادات والتقاليد، حيث ما تزال تحكمها في جوانب كثيرة التقاليد تحت شتى المعاذير والذرائع، وتغيب عنها التعاليم والقيم الشرعية، حتى لقد وصل الأمر إلى مرحلة العبث، الذي شوه صورة المرأة المسلمة ومكانتها وطمس ملامحها بين إفراط المتشددين والغالين وبين تفريط ضحايا الغزو الثقافي والاستلاب الحضاري، وغياب العلماء العدول، الذين نيط بهم رد الأمور إلى نصابها وتقويمها بقيم الدين في الكتا ب والسنة، حتى ليمكن القول: إن المرأة بين هؤلاء وأولئك وقعت فريسة للعبث وردود الفعل والتيه والضلال بين التعاليم الإسلامية الرحيمة والتقاليد الاجتماعية الظالمة، بين الشرعي وغير الشرعي؛ ولقد اتخذ الكثيرُ من موضوع المرأة

مادهم الدسمة، لعلها تصبح مطية لارتقائهم أو دليلاً على تحررهم وتقدميتهم، ولو كان ذلك على حساب الشرع والعقل والمجتمع.

وهنا قضية قد يكون من المفيد التوقف عندها والنظر إليها واستقراء تداعياها وآثارها السلبية على المرأة بالدرجة الأولى وعلى المجتمع، حيث تُشكل المرأةُ فيه الرحم الذي تتربى وتنطلق منه وتعود إليه معظم العلاقات الاجتماعية؛ لأن المرأة هي الفاعل الاجتماعي الأهم في غَزْل وتشكيل النسيج الاجتماعي بكل صوره؛ ذلك أن من المسلّم به أن الشريعة بكل تكاليفها والرسالة الإسلامية بكل قيمها وتعاليمها إنما جاءت لإلحاق الرحمة بالعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وتحقيق مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، وأن تكاليف الدين إنما جاءت لإصلاح الدنيا ولتهذيب الإنسان والارتقاء به بما يوافق فطرته التي فُطر عليها ووظيفته الاجتماعية التي أُهِّل لها، لا لتعذيبه والمساهمة في شقوته وعنته، وأن القيم الحاكمة على سلوك الإنسان لا بد أن تكون متأتية من مصدر خارج عنه، إذ لا يمكن أن يُعقل أن تكون ذات الإنسان هي قيمة التقويم ومعياره وهي في ذات الوقت محل التقويم والمعايرة.

فالمصلحة، كل المصلحة، في التزام شرع الله في السلوك، بكل أنواعه؛ وتقويم هذا السلوك وبيان الخلل والخطأ إنما يكون بقيم الدين الواردة في الكتاب والسنة، لا من رؤية البشر ورأيهم، حتى ولو ادعوا أن اجتهادهم إنما ينطلق من قيم الدين. فقيم الدين هي الحاكمة على السلوك والفهم وحجة

عليهما، وليس الفهم والاجتهاد والسلوك هو الحاكم على تعاليم الدين وتكاليف الشرع.

وبالتالي فلا يمكن، عقلاً ولا شرعاً ولا واقعاً، أن نتصور أن التزام شرع الله والانضباط بقيمه يفوت مصلحة، وأن ذلك قد يحصل عند تصور مصلحة موهومة أو فهم قاصر أو فقه كليل ينزّل النصوص على غير محالها وبغير هدى.

وقد تكون قضية المرأة وما مورس ويمارس عليها هو المثال والوسيلة الأوضح لهذه الإصابة الذهنية والشرعية والاجتماعية التي قد يظن أصحابها، من الأخسرين أعمالاً، أنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وقد يكون ذلك حقيقة بسببٍ من انتقال فلسفة التدين التي كانت عند الأمم السابقة عن المرأة وتسرب تلك العلل إلينا، من حيث ندري أو لا ندري؛ تلك الأمم التي قضت ردحاً من الزمن وهي تنظر في إنسانية المرأة -كما أسلفنا- وهل هي أفضل أم الكلب العقور؟ وهل هي أكثر شراً أم الشيطان؟ وأنها رأس الخطيئة، ومحور الفتنة، وسبب شقاء بني آدم وإخراج أبيهم من الجنة، والشقاء الذي لحق الجنس البشري، فهي الخطيئة، وأن غاية التدين الابتعاد عنها والهروب. منها وعدم الزواج بها، والتروع إلى الرهبنة والانقطاع عن الزواج الذي يعتبر غاية التدين!

نقول: إن بعض هذه الظلال القاتمة تسربت إلى بعض العقول والمسالك فكانت سبباً في انتقاص حقها، وحرمانها من إرثها، وتغييب إنسانيتها، وتعنيفها وعدم تعليمها، والتمييز بينها وبين إخوتها من الذكور، وممارسة الوأد

الاجتماعي والنفسي يومياً، فلئن كانت الجاهلية تئدها فور ولادتها، الأمر الذي أوقفه الإسلام، فإن الوأد النفسي والاجتماعي والحقوقي ما يزال مستمراً بشكل أو بآخر، ولعله تسلل أيضاً إلى كثير من بيوت المتدينين ومن يُسمون بأهل الدعوة، حتى الذين يتكلمون عن حقوق المرأة ومكانتها على المنابر فكثير منهم يمارس الوأد في البيوت المقابر، ويقوده الحرص المغشوش على المرأة إلى تعطيل قيم الدين وإيقاف شرع الله بدعوى خوف الفتنة، والتعسف في استخدام بعض القواعد من مثل: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، فيكون الحجر على المرأة ومنعها حقها ومشاركتها وأداء وظيفتها درءاً للمفاسد، فيصبح خروجها من البيت محلاً للفتنة، وتعلمها سبيلاً للفتنة، وذهابها إلى المسجد وسيلة للفتنة، وأخذ وظيفتها في المجتمع والقيام بدورها سبيلاً للفتنة أيضاً، وتعطيل ذمتها المالية ووضعها في خانة السفهاء أيضاً من باب درء المفاسد، وكأن المرأة المسلمة في عهد النبوة وجميع ممارساتها ليس تراثاً لنا ومحل اقتداء، وكأننا بأفعالنا الشائنة هذه أدرى بالعصر وتقلباته وفساده وصلاحه من خالق الزمان والمكان والإنسان، الذي أنزل هذه الرسالة لتكون خاتمة وخالدة إلى يوم الدين، وكأننا أكثر غيرة على المرأة من الذي خلقها!

وليس التشبث بمبدأ «سد ذريعة الفساد» -وتحديد مدى الفساد، الذي يؤدي إلى توقيف أو تعطيل الحكم الشرعي هو اجتهاد، وهذا الاجتهاد إن أصاب فهو حالة خاصة طارئة لظرف خاص لا يلغي أصل التشريع ويتحول إلى مبدأ عام يعطل قيم الشريعة ويوقف تكاليفها- بأقل خطراً وإساءة وسبباً في الجنوح والخروج وتهريب الناس من الدين وتمردهم على قيمه.

ولعل من ملامح خلود الإسلام استمرار تلك المواقف المشوهة والفهوم المعوجة حول المرأة وحقوقها، ووقع شيء منها، بكل ما تحمل من إساءة، حتى في جيل خير الناس فالرسول ﷺ يقول: «**لا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ**» (أخرجه البخاري)، فيظهر من يقول: « والله لنمنعهن»؛ فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رضي الله عنهما، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْهَا**»، قَالَ: فَقَالَ بِلالُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَاللَّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ، قَالَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَقَالَ: أُخْبِرُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَقُولُ: وَاللَّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ»؟! (أخرجه مسلم).

وأما ما يروى عن المرأة التي قامت في المسجد لتقول لسيدنا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، أمير المؤمنين، الفقيه المتميز فلا يزال مستمراً؛ حيث عرض، رضي الله عنه، لمشكلة الغلاء في المهور وحاول مناقشتها ومعالجتها،فقال: «أَلا لا تُغَالُوا صَدُقَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ لَكَانَ أَوْلاكُمْ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ؛ مَا عَلِمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَكَحَ شَيْئًا مِنْ نِسَائِهِ وَلا أَنْكَحَ شَيْئًا مِنْ بَنَاتِهِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً» (أخرجه الترمذي، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ)، فتقوم امرأة في المسجد لتقول له: «أيعطينا الله ويمنعنا عمر»؟؛ والأخطر اليوم أن المنع إنما يتم باسم التدين والغيرة على قيم الدين وسلامة المرأة ومصلحة المجتمع.

وعلى الرغم مما قيل حول ضعف الرواية أو نكارتها، فإن الحال التي عليها المرأة في كثير من مجتمعات المسلمين اليوم يؤكد ويصدق ذلك، حيث تُحرم المرأة مما شرع الله لها.

ولا بد من الاعتراف أننا أُوتينا من قبل المرأة، على الرغم من أحاديثنا الطويلة عن حقوق المرأة وخطبنا العصماء والكتب والمؤلفات الكثيرة التي تأخذ مساحات ليست بالقليلة في المكتبة اليوم عن إنسانية المرأة وسبق الإسلام إلى تقرير حقوقها ومساواتها بالرجل.

وبالإمكان القول: إن معظم الإنتاج الفكري والثقافي والوعظي إنما يتمحور حول الفكر الدفاعي، ويتحرك ضمن خارطة مسبقة يتحكم برسمها خصوم الإسلام، الذي استغرقنا واستنفد جهودنا وطاقاتنا وأوقاتنا، وجاء في معظمه، إن لم نقل جميعه، على حساب بناء المرأة وتربيتها وتنميتها وتدريبها على ممارسة حقوقها والاضطلاع بواجباتها وإبصار استحقاقات وظيفتها في الأسرة والدولة والمجتمع.

وعندما عُدنا لنفتش عن المرأة، التي أرادها الإسلام وشكَّل شخصيتها وحدد وظيفتها وقدم نماذج لمشاركتها في الحياة الإسلامية لم نجدها، وفي كثير من الأحيان قد يقتصر وجودها على الشكل واللباس الذي يرضينا ويزيد أوهامنا أننا ظفرنا بالمرأة المسلمة؛ أما إذا تجاوزنا الشكل إلى المضمون والاهتمامات فقد لا نجد كبير فرق بينها وبين سائر النساء، وكأن الإسلام في قضية المرأة انتهى إلى رسوم وأشكال مستقرة في الذهن، حيث يصعب على مجتمعات التخلف تجاوز الصورة والشكل إلى الحقيقة والعقل!

وعلى أحسن الأحوال فقد يأخذ الحماس بعض النساء إلى الخروج من المترل باسم الدعوة إلى الله، حتى ولو كان ذلك على حساب الزوج وتربية الأولاد، وكأن رعاية البيت والاضطلاع بمسؤولية التربية ليس من سبل الدعوة إلى الله!

لقد قضينا ردحاً من حياتنا نحرِّم تعليم المرأة ونَحْرِمها من المعرفة، ونعتبر أن الجهل أفضل من العلم، وأن العلم والتعلم ذريعة الفساد، متسلحين بمبدأ «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»؛ وطالما أن مكان المرأة في نهاية المطاف البيت المترِل فما حاجتها إلى التعليم والتعلم... هكذا؟! وكأن مهمتها ومعرفة مسؤولياتها والاضطلاع بتربية الأولاد وإعدادهم للمجتمع، الذي سوف يعيشون فيه، لا تحتاج إلى علم ومعرفة وخبرة ودراية! على الأقل بالمجتمع الذي تعد أولادها إليه.

ونقول: حتى ولو لم تكن مهمتها في الأسرة تربوية، وإنما كانت كعامل النظافة وصندوقٍ للتفريخ والإنجاب، فإن ذلك أصبح له علوم وأصول وأنواع من التربية والتدريب واكتساب المهارات.

وقد تكون الإشكالية -كما أسلفنا- أن ذلك إنما يتم تحت شعارات التدين والمحافظة على القيم، ولا ندري أية قيم هذه التي تمنع المرأة من حقوقها وتحرمها من إنسانيتها وتخرجها من الحياة؟!

إن مثل هذه الذهنيات وهذا التدين المغشوش هو الذي دفع بالمرأة للتمرد والخروج وكسر الموازين وحتى الوصول إلى معاداة الدين وأهله، ذلك أن الكثير

من أصحاب التدين المغشوش والعقول المعوجة، مارسوا على المرأة أسوأ أنواع الوأد والقتل الثقافي والسياسي والمعرفي والتربوي والاجتماعي؛ وفي تقديري أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير:٨-٩)، هذا السؤال الكبير: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾؟ هو سؤال خالد مستمر ما استمر البشر على أرض الحياة، وأن المراجعة باستمرار مطلوبة لأفعالنا وعلاقاتنا الاجتماعية، فلولا أن القتل والوأد مستمران بشكل أو بآخر لما كان هناك معنى لخلود النص القرآني.

ويؤسفنا أن نقول، كما أشرنا: إن وضع المرأة في بيوت كثير من المتدينين مؤسف جداً، وإنهم قد يشكلون قدوة للهروب من الدين؛ ولو طلب إلى أحدنا أن يحضر كلمة أو خطبة أو بحثاً في حقوق المرأة ومكانتها في الإسلام لاجتهد وأجهد نفسه بإيراد النصوص من الكتاب والسنة ووقائع السيرة والتاريخ الإسلامي، التي تثير الإعجاب والإكبار، لكن حالنا ينطبق عليها المثل: «اقرأ تفرح، جرب تحزن»، حيث إننا نوبخ أنفسنا بأقوالنا، التي تناقض أفعالنا، والله يقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف:٣)؛ لقد تحولت التقاليد والتوارث الاجتماعي إلى دين، وأصبح التمترس وراءها والدفاع عنها أشد ضراوة من الدفاع عن قيم الدين.

ولعل شعار: «أيعطينا الله ويمنعنا عمر»، ما يزال يحكم حياتنا وعلاقاتنا وتصوراتنا، وإذا اضطررنا فما أسهل تأويل النصوص، وإذا عجزنا عن التأويل فمبدأ «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، ذلك المبدأ الذي توسعنا به

حتى أحللناه محل قيم الدين وشرع الله، فباسم سد ذريعة الفساد، وعدم الأهلية، والخوف على الشريعة أغلقنا أيضاً باب الاجتهاد، وبذلك حكمنا بإلغاء العقل ومحاصرة التفكير وإيقاف امتداد الحياة الإسلامية وامتلاك القدرة على توليد الأحكام، وفسحنا المجال للآخر للامتداد في فراغنا.

فباسم حماية المرأة وسد ذريعة الفساد حبسناها في البيت؛ والحبس في البيوت إنما هو عقوبة اقتراف جريمة الزنا، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾ (النساء:١٥)، وحرمناها من كل آفاق الحياة.

وباسم حماية الشرف والغيرة حرمنا المرأة من بيوت الله وتلقي العلم ومعرفة الأحكام؛ وكثيراً ما فهمنا بعض الأحكام الشرعية كما نريد لا كما بينتها السنة، فمثلاً الرسول ﷺ يقول: «**لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأَةٍ إلا مَعَ ذي مَحْرَمٍ** » (أخرجه البخاري)، حرّمنا الاجتماع والخلوة حتى عند وجود محرم كما عند عدم وجوده.

وهكذا دارت علينا الدوائر، واحتلت تصورنا نماذج من التدين المغشوش، ونحن نتوهم أننا نلتزم قيم ديننا؛ ودولاب التخلف والتردي مستمر، وكأن قيم الدين تصبح هي سبب تخلفنا! وأنه لا بد من الانسلاخ عنها لتحقيق التقدم.

وقد لا نجافي الحقيقة والواقع كثيراً إذا قلنا: إننا نحن السبب في إبعاد الناس عن قيم الدين وتشكيل الصورة المشوهة عن تعاليمه، سواء في ذلك الرجل والمرأة معاً، وإن كانت مرآة المرأة أشد حساسية وأكثر التقاطاً.

والناظر والمتأمل بمجمل حالنا اليوم لا يكاد يصدق أننا من إنتاج تلك القيم وأحفاد ذلك الجيل وأبناء وبنات تلك الحضارة، التي حررت الإنسان واستعادت إنسانية المرأة وسوّتها بالرجل وجعلتها محلاً للخطاب والتكليف والمسؤولية والموالاة، مع الرجل، وقيادة المجتمع وتنقيته من الإصابات، يقول تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، ويقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، تلك القيم الحضارية التي جعلت المرأة مصدر النسل والبيت وأصل الإنسانية، كما جعلتها الشق الآخر أو الثاني المكمل للرجل، فالنساء شقائق الرجال.

نعود إلى القول: إن التدين المغشوش والفهوم المعوجة والتقاليد البيئية والاجتماعية هي التي شوهت، ليس صورة المرأة وشخصيتها ومكانتها فحسب وإنما صورة الرجل وشخصيته ورؤيته، ولا أدل على ذلك من الحال التي وصل إليها الرجل في نظرته إلى المرأة، التي انتهت إليها في مجتمعات المسلمين، حيث ما يزال الوأد الثقافي والسياسي والتربوي والتعليمي مستمراً، والتوارث الاجتماعي يسلم هذه الصورة المشوهة من جيل إلى جيل، فنضل الطريق ونحن نظن أننا نحسن صنعاً؛ ونخشى أن نقول: من الأخسرين أعمالاً.

لقد غيَّب التدين المغشوش والورع الكاذب صورة وشخصية المرأة المسلمة في عصر النبوة، فترة القدوة والمقاربة والتمثل والنمذجة، وعلى أحسن الأحوال انتهى إلى الهروب من هذه النماذج تحت شعار: «إنه عهد النبوة وجيل الصحابة، فأين نحن منهم»؟ وكأن القيم الإسلامية نزلت إليهم دون سواهم! وقد نكون نحن الأحوج إلى هذه القيم وتمثلها والاقتداء بها منهم، إذا كان مجتمعهم من الأخيار والأتقياء الأنقياء.

أين المرأة المسلمة اليوم من شخصية أم المؤمنين السيدة خديجة، رضي الله عنها، في نظرتها الثاقبة، وفهمها السديد، واستيعابها لخطوات النبوة الأولى، ورؤيتها لصورة المستقبل، ومبادرتها لاستيعاب الحدث الجلل «بدء الوحي»، وإبصار المقدمات، وتقدير النتائج والعواقب، حتى لنكاد نقول: لقد كانت وعاء النبوة؛ استطاعت تثبيت خطواتها الأولى؛ وكانت محل الرأي والتدبير والتقدير وحسن التعاطي مع الخصائص والصفات الطيبة، التي يتحلى بها الرسول ﷺ واعتبارها بشارة خير وإمارة صدق ومصدر أمن وسكينة نفس.

أين المرأة المسلمة اليوم من شخصية السيدة الفاضلة أم سلمة، رضي الله عنها، التي كانت برأيها السديد النضيج سبباً في إنقاذ جيل الصحابة، خير الناس ومحل الاتباع، من الهلكة في صلح الحديبية، وكانت محل شورى النبوة المؤيدة بالوحي، المسددة به؟!

لقد سمى الله صلح الحديبية بالفتح المبين، وكانت السيدة الفاضلة أم سلمة، رضي الله عنها، بحسب الأسباب والمسببات، هي الشخصية التي

استوعبت الموقف، وتميزت عن جميع الصحابة في إيجاد المخرج واقتراح سبيل الخروج من المأزق.

أين المرأة المسلمة اليوم من مقاربة شخصية السيدة عائشة، رضي الله عنها، بكل ما كان من علمها وفقهها وحضورها الاجتماعي والسياسي والعلمي، حيث استدركت الكثير من الأحاديث النبوية والقضايا الفقهية على كبار الصحابة، رضي الله عنهم، ومؤلف «الإفادة بما استدركته السيدة عائشة على الصحابة»، الذي حققه سعيد الأفغاني يدلل على مكانتها العلمية، ودقة فهمها، وحدة ذكائها، وعظيم عطائها، وحضورها المتميز.

أين المرأة المسلمة اليوم وأين نحن من شخصية السيدة أم هانئ، رضي الله عنها، وموقع المرأة الاجتماعي وفعلها السياسي، حيث كان بيتها ملاذاً آمناً لكل مستجير وملتجأ يوم فتح مكة؟!

أين نحن من قولة الرسول ﷺ، الخالدة: «**قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ**» (أخرجه البخاري)، فبيت أم هانئ أصبح ملاذاً آمناً في مستوى الحرم، كحال المسجد الحرام، الذي يأمن كل من دخله؟!

أين موقع المرأة ودورها ومترلتها من هذه النخب والنماذج والأمثلة ومواقع الاقتداء؟!

وكم سنشعر بفجوة التخلف وعظيم الارتكاس والحال التي انتهت إليها المرأة المسلمة اليوم إذا علمنا أن الإسلام حرر المرأة واعترف بأهليتها وإنسانيتها قبل أربعة عشر قرناً.

فإذا وضعنا ذلك ضمن سياقه التاريخي، وأن هذه النماذج تشكلت في فترة الاقتداء وجيل خير الناس، حيث العالم يغرق في الجاهلية واستمرار الطروحات البائسة حول مكانة المرأة وطرح الأسئلة العجيبة الغريبة عن طبيعتها -كما أسلفنا- هل هي إنسان؟ هل هي أكثر كيداً أم الشيطان؟ هل هي أفضل أم الكلب العقور؟!... أدركنا كيف حرر الإسلام المرأة، وكيف تحاول الحضارة الحديثة اليوم باسم الحرية والخيار الشخصي والخصوصية الفردية العودة بها إلى انتهاك آدميتها وتعرية جسدها وتقديمها كسلعة ترويج تجارية على منصات العرض والتسوق والأزياء، واختزال عمرها في عشر سنوات أو أكثر قليلاً، وهي سنوات الشباب، واستغلال جسدها ومن ثم تُلقى كسَقْط المتاع تمضغ جراحها وتجتر أحزانها، أو تنتهي إلى المصحات والمؤسسات الاجتماعية إن ساعدها الحظ على العثور عليها.

لقد هدمت الحضارة الحديثة، حضارة اللذة والمنفعة وإشاعة مجتمع الإباحية الجنسية، مؤسسة الزواج وقوضت أركان الأسرة، فارتفعت نسب الطلاق حتى في عالم المسلمين، الذي ما يزال يعيش على بقايا قيم الدين، ولم تستطع الأسرة المعاصرة الصمود والامتداد، حيث تتوازى وتتقارب اليوم حالات الطلاق مع عقود الزواج؛ والأمر الأخطر أن الحضارة المعاصرة تحاول إيجاد البدائل والإغراء بها، من السماح بإقامة العلاقات الجنسية خارج نطاق الأسرة والدعوة للقبول بها وتقنين الشذوذ الجنسي وزواج المثليين والمثليات، والاعتراف به وبقانونيته وحمايته، وأصبح التحرر يعني التحلل من كل قيمة وفضيلة وخلق، وأصبحت درجة حضارة المجتمع تقاس بمدى التعري والخروج

على القيم والمبادئ الخُلقية، فإذا لم تتعر المرأة وتتحول إلى سلعة مطلوبة وتوافق على أن تعرض جسدها على منصات عروض الأزياء فالمجتمع في حالة تخلف وظلامية وتشدد وتزمت!

وأعتقد أن ذلك هو رد الفعل الذي يكاد يكون طبيعياً لحرمان المرأة من إنسانيتها وحقوقها وسلب كرامتها باسم الحفاظ عليها، وإيهامها أن الذي يُمارس عليها هو دين الله المُنزل وليس التقاليد الجاهلية، الأمر الذي دفعها للتمرد والخروج ومعاداة كل دين وفضيلة.

والكتاب الذي نقدمه يكتسب أهمية خاصة بعد هذه الفوضى والانحراف في العلاقات الاجتماعية وبعد هذا الغياب الرعيب للمرأة المسلمة عن الحضور المؤثر والمثير للاقتداء في الحياة الإسلامية والإنسانية وما باتت تعانيه من الانكسار النفسي واستشعار البخس والنقص والتبعية وغياب الشخصية الاستقلالية، التي رسمها الإسلام للمرأة، والدور المتميز لأدائها وفعلها في مجتمع المسلمين.

ولا شك أننا بذلنا جهوداً كبيرة في الدفاع عن المرأة وبيان منزلتها وحقوقها في الإسلام، ورابطنا على حدودنا الحضارية التاريخية في مواجهة المد الطاغي من (الآخر)، لكن هذا الفكر الدفاعي على أهميته استغرق كل طاقاتنا، التي لم تترك لنا مجالاً أن نلتفت إلى أهمية بناء شخصية المرأة التي ندافع عنها وتشكيلها حسب صبغة الله التي فطر الناس عليها، ونقدمها كأنموذج للمرأة في الإسلام، فعدنا فلم نجد المرأة التي دافعنا عنها؛ لقد سُلبنا أبناءنا وبناتنا ونحن ما نزال مستمرين بقرع طبول الحرب الجوفاء على الحدود!

ولعلنا نقول هنا: إن سوء تقديرنا وسوء تعاملنا وتعظيم أوهامنا وعدم إعطاء المرأة ما أعطاها الله كانت السبب وراء الواقع البئيس وهروبها من صور التدين المغشوش والالتحاق بـ(الآخر)؛ ولعل من أهم المخاطر حرمان المرأة من العلم والتعليم والحضور الاجتماعي وممارسة الحقوق التي شرعها الله، باسم درء الفتنة وسد الذريعة، الأمر الذي جعل الأخريات يخرجن للتعليم والتعلم والعمل وبناء المهارات.

وعندما فكرنا بالمرأة ودورها وأهمية إعادة بناء شخصيتها وعدنا إلى الحياة العملية شعرنا بحجم الهزيمة وأن المرأة في مجتمعاتنا أصبحت مسبوقة، وأن نماذج الاقتداء في المجتمع والحياة هن ممن خرجن على صور التدين ودخلن في معظم المجالات.

لذلك يبقى المطلوب حقيقة، حيث لم يفت الأوان بعد، التفكير الجدي بإعطاء المرأة ما أعطاها الله، بعيداً عن التقاليد الجاهلية والقَبَلية والاجتماعية، وتقديم نماذج للاقتداء من تاريخنا الحضاري، والعودة إلى تعاليم الدين وقيمه بعيداً عن فهوم واجتهادات التخلف والتراجع الحضاري، حتى نكون في مستوى إسلامنا، الأمر الذي سوف يحقق لنا أن نكون في مستوى عصرنا، فإذا لم نحقق شهادة النبوة علينا، وفي جملتها إعطاء المرأة ما أعطاها الله ورسوله، فسوف نبقى عاجزين عن تحقيق الشهادة على الناس وقيادتهم إلى الخير، مهما ارتفعت شعاراتنا وعلت أصواتنا وازداد ضجيجنا وسمكت

حناجرنا، يقول تعالى: ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ (الحج:٧٨).

ونعاود التأكد أن المرأة في ديننا تعلمت وعلّمت، وجاهدت، وهاجرت، وبايعت، وناصرت، وأمرت بالمعروف، واستدركت على الرجال، وبلغ بها الإسلام شأواً عظيماً لم تبلغ ذلك المرأة في أي حضارة أخرى، وما عرض له الكتاب في تقديم نماذج عن دور المرأة النخبوي خير شاهد ودليل، فهل ما تزال تحكمنا عقلية: «أيعطينا الله ويمنعنا الناس» فنقدم الاجتهاد وفهم الشارح المتخلف على نص الشارع وتطبيقه في فترة النبوة؟!.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه نستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئآت أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدى الأمانة وبلغ الرسالة وكشف الغمة وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وبعد،

فلقد خلّف الرسول ﷺ لنا مجتمعاً نموذجياً، تولى بنفسه مهمة السهر على تنظيمه وتسييره وفق الشريعة، التي ارتضاها الله عز وجل شرعةً ومنهاجاً للمسلمين. ولم يكن الرسول ﷺ يتولى هذه المهمة بوحي خياله أو ذكائه، وإنما كان بتوجيه من الله عز وجل عن طريق الوحي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم:٣-٤). ولقد أجمع علماء الأمة، قديماً وحديثاً، على أن القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع. وإذا سلمنا بذلك فليس من المنطقي أو المعقول أن نأخذ هذا التشريع منفصلاً عن التنظيم الذي على أساسه بني أو أقيم ذلك التشريع، وعلى رأس هذا التنظيم البنية التركيبية للمجتمع.

فلقد احتوى هذا المجتمع على فئات نخبوية، أنكر الرسول ﷺ بعضها وبارك غيرها وشجعها. فنخبة السحرة مثلاً عرفت عبر التاريخ كيف كانت تصنع القرارات، جنباً إلى جنب مع الفئة الحاكمة، فأمر الرسول ﷺ بأن يضع نهاية لهذه الفئة وأثر موقعها السلبي في المجتمع، هذه الفئة التي اتخذت من الكذب والشياطين مصدراً لتشريعاتها. لذلك كانت عقوبة الساحر عقوبة قاسية وهي قطع الرأس.

وبارك الرسول ﷺ النخبة التي اتخذت القرآن والسنة، والعقل، الذي يحافظ عليهما، مصدراً لتشريعاتها.

وتُعَدُّ النخبةُ المثقفةُ العقلَ المفكرَ والباحث عن حلول للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، التي يعاني منها أي مجتمع كان، وعليه كوّن النبي ﷺ صفوة من الصحابة في بداية طريقه الدعوي، قبل أن يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مكة، واستمر في ذلك حتى بعد تأسيسه للدولة الإسلامية. وبقيت تلك النخبة تسير مع النبي ﷺ تتعلم منه وتتأسى بأفعاله. وكان ضمن تلك النخبة نخبة نسوية، على رأسهن السيدة عائشة، رضي الله عنها، تجلت أدوارهن خاصة بعد وفاة النبي ﷺ.

ونظراً لأهمية هذا الموقع في سير حركة التغيير الاجتماعي نحاول من خلال هذا الكتاب التأصيل لموقع المرأة النخبوي في الإسلام، من خلال النماذج النظرية التي خلّفها المجتمع النبوي. وللقيام بهذا العمل تناولت بداية مفهوم النخبة، وأهمية هذه الوظيفة التكليفية والتشريفية في المجتمع. ثم تعرضت إلى بيان موقع المرأة النخبوي في التجربة الإسلامية من خلال الشخصيات التي كانت سبباً في نزول بعض الآيات في القرآن الكريم، ثم عرض موقع نماذج من الصحابيات في الوسط النخبوي من خلال السنة الشريفة، مع التركيز على أم المؤمنين عائشة، المرأة النخبوية النموذجية، وذكر الظروف التي أحاطت بهن لأداء أدوارهن في المجتمع، وكيف استطعن أن يخلّفن إسهاماتٍ بارزة في المجتمع بقيت آثارها إلى يومنا هذا على رغم التزامهن بوظائفهن الطبيعية.

المبحث الأول

مفهوم النخبة وفق المنظورين الإسلامي والغربي

المطلب الأول: مفهوم النخبة حسب التصور الإسلامي:

- المعنى اللغوي لمصطلح النخبة:[1]

ملخص ما جاء في (لسان العرب) أن كلمتي (النخبة) و(الصفوة) تأتيان مترادفتان في موضع، فكلتاهما تحمل معنى خيار الشيء. وتحملان محمل الاختيار والنقاء الذي هو نقيض الكدر. وتختلف كلمة النخبة عن كلمة الصفوة في أن مصطلح النخبة ينفرد بمعنى النـزع، الجبن وضعف القلب، أو المهزول، ومعنى المباضعة والعضة، وعليه فهو يجمع بين معنيين متضادين. أما مصطلح الصفوة فينفرد بمعنى أخلصته، صدق، والصديق. وتأتي بمعنى غزيرة كثيرة. ورأينا أنها ترد أيضاً بمعنى العفوة أو العفاوة. وأخيراً بمعنى الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها. ومنه فإن مصطلح الصفوة يحمل المعنى الإيجابي فقط. وللإشارة فإن مصطلح الصفوة يشترك مع مصطلح طبقة في التوزيع والتصنيف.

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري (٧١١هـ)، لسان العرب، ط١ (بيروت: دار صادر، د. ت) ١/٧٥١-٧٥٣، وانظر جزء ١٤/٤٦٢-٤٦٣.

مصطلح النخبة عند المفسرين:

يبدو من خلال كتب التفسير أن مصطلح النخبة استخدم كمصطلح بلفظ الصفوة، ويرجع السبب، حسب اعتقادنا، لعدم وروده في القرآن الكريم. واستخدم لفظ النخبة ككلمة فلم يخرج عن معنى عضة النملة، كما جاء في تفسير البيضاوي، وتفسير أبي السعود في السياق الآتي «يحتمل ما تجاوز الشوكة في الألم كالخرور، وما زاد عليها في القلة كنخبة النملة»(١).

وجاء بمعنى زبدة تَعَبِهِ في كتاب «دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية»، لكن لم يأت في سياق التفسير نفسه إنما ورد أثناء الحديث عن كتاب أبي المعالي، وجاء كالآتي «واعتبر ذلك بأن كتاب أبي المعالي الذي هو نخبة عمره نهاية المطلب في دراية المذهب»(٢).

وعند استخدام المفسرين لمصطلح النخبة بلفظ الصفوة، جاءت معاني لفظ «الصفوة» بوصفها مصطلحاً قرآنياً لتؤكد «نظرية الصفوة» بدلالاتها وأبعادها الإسلامية، حيث يقرر القرآن أن القلة من الناس تتمتع بقدر عال من الفهم والتفكر والتذكر، الذي يؤهلها لمعرفة حقائق وأسرار الحياة والأحياء

---

(١) انظر: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد (ت٧٩١هـ)، تفسير البيضاوي، المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة (بيروت: دار الفكر، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ٢٥٩/١. وانظر أيضاً: أبو السعود، محمد ابن محمد العمادي (ت٩٥١)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت) ٧٣/١.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ)، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق محمد السيد الجليند، ط٢ (دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٤هـ) ١٦٩/٢.

والأشياء[١]. فلقد استعملها المفسرون[٢] على حسب السياق القرآني الذي يدخل ضمن معاني الاصطفاء والانتقاء والاختيار، وهذا في أكثر من موضع. فمثلاً أثناء الحديث عن الأنبياء باعتبارهم صفوة الخلق كما أورد ذلك القرطبي في تفسيره: «...وأنبياء فهم صفوة الخلق...»، «..هذا ولي الله، هذا صفوة الله..». وأورد ذلك ابن كثير في تفسيره أيضاً وهو يتحدث عن موسى: «..وموسى صفوة الله..» اختارهم الله عز وجل عن باقي مخلوقاته لتولي مسؤولية التبليغ والتغيير. ولم يكن تفضيلهم من أجل التفضيل إنما كان ذلك الاصطفاء على قدر قيمة التكليف. فنجد المولى عز وجل يصف بأعظم وصف المعاناة التي عاناها الأنبياء من أجل تغيير الفساد ونشر الخير الذي كلفهم به الله عز وجل. وارتقى محمد ﷺ إلى مستوى أعلى من الاصطفاء ليكون حبيب الله، نتيجة صبره وتحمله أذى قومه ولما أنجزه من تغيير، غير معتمد على كثرة المعجزات. هذا عن الأنبياء، وفي مواضع أخرى استخدم المفسرون مصطلح الصفوة ضمن معاني الأفضل، وخلاصة الشيء أو زبدته»[٣].

---

(١) انظر: محمود محمد، الناكوع، أزمة النخبة في الوطن العربي، ص١٣.

(٢) انظر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله (٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط٢ (القاهرة: دار الشعب، ١٣٧٢هـ) ١/٣٣١؛ ٢/١٣٢؛ ٤/٦٣؛ ١٢/١٠٩؛ ١٥/٣٦٠؛ ١٩/٢٦٤. وانظر أيضاً: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل آي القرآن، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ) ١٨/٤٧؛ ٢٤/١١٨. وانظر أيضاً: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي، ابن كثير (ت٧٧٤هـ)، ١٤٠١هـ، تفسير القرآن العظيم (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ) ٣/٣٨٥،٢٤١،١٧١،١٥٤؛ ٤/١٠٢ و١٢٨.

(٣) عبد الرحمن بن علي بن محمد، ابن الجوزي (ت٥٩٧)، زاد المسير، ط٣ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ) ١/٣٧٤، ٣٩٤؛ ٣/٢٥٨؛ ٧/١٤٧.

مصطلح النخبة عند الفقهاء:

لم يخرج الفقهاء عن سنة المفسرين، إذ يبدو أيضاً من خلال كتب الفقه، أن الفقهاء استخدموا لفظ النخبة ككلمة وليس كمصطلح. ويمكن أن يرجع السبب أيضاً إلى شهرة مصطلح الصفوة بسبب ورود مشتقاته في القرآن الكريم بمعناه الإيجابي. وجدت أن كلمة النخبة قد استخدمت في المبسوط[1] كاسم: «المسيب بن نخبة»، واستخدمت بمعنى خيار أي صفوة في سياق الكلام الآتي: «ونصلي ونسلم على نهاية خلاصة الأصفياء وذخيرة نخبة العظماء من الأنبياء سيدنا محمد الصادق الأمين»[2]. واستخدمت أيضاً بمعنى خيار، وصفوة، ومتميزين في كتاب المحلى[3] في سياق «نخبة أبطال أمجاد مسلمين».

ولقد شهد مصطلح النخبة بلفظ الصفوة استخداماً واسعاً عند الفقهاء. فجاء بمعانٍ مختلفة، بمعنى خيار وأفضل، كما جاء عند العقبلي مثلاً في قوله: «فهم صفوة الله من عباده»[4]؛ وابن تيمية أيضاً في قوله «..الذين هم من صفوة الأمة علماً..»[5]؛ والدسوقي في قوله: «..حسن فهو من صفوة الله من

---

(١) محمد بن أبي سهل، أبو بكر السرخسي، المبسوط للسرخسي (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ) ٥٢٦/٣.

(٢) السرخسي، المبسوط للسرخسي، ٢١٢/٤.

(٣) علي بن أحمد بن سعيد أبو محمد، ابن حزم الظاهري، المحلى، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي (بيروت: دار الأفاق الجديدة) ٢٩٣/٧.

(٤) أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، العقبلي (ت ٣٨٧هـ)، إبطال الحيل، تحقيق: زهير الشاويش، ط٢ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ) ص٩.

(٥) أحمد عبد الحليم الحراني أبو العباس، ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي (مكتبة ابن تيمية، د.ت) ٢٦٣/٢٠.

خلقه..»[1]؛ كما وردت عند الشاطبي في قوله: «وهم باتفاق أهل السنة صفوة الله من الخليقة»، وفي موضع آخر «..فعلوا ذلك وهم صفوة الله..»[2]؛ وفي حديثه عن الصحابة ذكر ابن القيم ما يلي: «..وهم صفوة الإسلام المستقلون بأعباء الشريعة»[3]؛ وفي سياق كلام للأسيوطي وصف رسول الله ﷺ بأنه صفوة الصفوة، وفي موضع آخر يمدح فيه ويثني على أحد العلماء بقوله: «من العلماء العاملين صفوة الملوك»[4].

واستخدمها الفقهاء أيضاً بمعانٍ أخرى أثناء تناول قضايا فقهية، مثلما ورد في مغني المحتاج: «لكل شيء صفوة، وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى» وهذا لإبراز أهمية التكبيرة الأولى في الصلاة[5]. ووردت بمعنى خلاصة الشيء كما جاء في البرهان في أصول الفقه: «وبعد فإن صفوة الفرق مأخوذة من متلقي..»[6] ووردت في مواضع كثيرة بمعنى فترة النقاء الأولى للإسلام وسماها بعض العلماء بفترة النورانية مثلما وردت في كتاب إعانة الطالبين: «ماكانوا عليه في صفوة الإسلام»[7]، أي بداية الإسلام.

---

(١) محمد بن أحمد بن عرفه الدسوقي، حاشية الدسوقي، تحقيق: محمد عليش (بيروت: دار الفكر، د.ت) ٣٤٣/١.

(٢) إبراهيم بن موسى الغرناطي المالكي، الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، الموافقات، تحقيق عبد الله دراز (بيروت: دار المعرفة) ٢٣٩/٤ و٢٧٩.

(٣) محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي أبو عبد الله، ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق عبد الرؤوف سعد (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٣م) ٢٤٦/٤.

(٤) محمد بن أحمد الأسيوطي، المنهاجي، جواهر العقود، تحقيق مسعد عبد الحميد محمد أسعد، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ٤٣/٢، ٤٧٥.

(٥) محمد الخطيب الشربيني، مغني المحتاج (بيروت: دار الفكر، د. ت) ٢٣١/١.

(٦) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف أبو المعالي، الجويني (ت٤٧٨هـ)، البرهان في أصول الفقه، تحقيق الدكتور عبد العظيم محمود الديب، ط٤ (مصر: مطبعة الوفاء، ١٤١٨هـ) ٦٩٥/٢.

(٧) السيد البكري بن سيد الدمياطي أبو بكر، محمد شطا، إعانة الطالبين (بيروت: دار الفكر) ١٨١/٤.

غير أن ابن الجوزي[1] في كتابه «صفة الصفوة» وضع تعريفاً خاصاً للصفوة في مقدمة كتابه مبرراً أسباب كتابته لهذا الكتاب. فالصفوة هم «العاملون بالعلم، الزاهدون في الدنيا، الراغبون في الآخرة، المستعدون للنقلة بتحقيق اليقظة والتزود الصالح، ذكرت مَنْ هذه حاله دون من اشتهر بمجرد العلم، و لم يشتهر بالزهد والتعبد، ولما سميت كتابي هذا صفة الصفوة رأيت أن أفتتحه بذكر نبينا محمد ﷺ فإنه صفوة الخلق وقدوة العالم».

فعند ابن الجوزي أن من ينتمي إلى الصفوة لا يكفي بأن يشتهر بالعلم. بل يجب أن يشتهر بالزهد والتعبد. ولقد شمل كتابه النموذج التاريخي الذي لا مثيل له في تاريخ البشرية، ابتدأه بخير خلق الله وتلاه بالصفوة التي تربت على يديه. وكانت نعم الصفوة، السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية، حسب متطلبات ذلك العصر. فلقد صنعوا تاريخهم، عرفوا أن انتماءهم للصفوة لا يعني تشريفاً بقدر ما هو تكليف.

هذا، يبدو حسب ما رأينا أن الفقهاء استخدموا مصطلح النخبة الذي ورد بلفظ الصفوة بمعانيه المختلفة، و لم يتناولوه كموضوع قابل للدراسة، و لم يضعوا له تعريفاً خاصاً به باستثناء ابن الجوزي، الذي لم يقصد وضع تعريف للصفوة نفسها إنما التعريف بكتابه «صفة الصفوة». غير أنه يمكننا أن نخلص إلى أنهم لم يخرجوا عن التعريف الذي استخلصناه من كلام ابن الجوزي عند شرحه للصفوة التي يقصدها في عنوان كتابه. غير أن المحدثين تناولوا هذا المصطلح من زوايا أخرى.

---

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٣٢/١.

مصطلح النخبة عند المحدثين:

لم يرد مصطلح النخبة بهذا اللفظ كمصطلح، بل ورد ككلمة استخدمت بشكل أكثر عند المحدثين مقارنة بالمفسرين والفقهاء، ويرجع السبب -حسب رأيي- إلى ورود هذه الكلمة في المرويات التي سنتعرض لها بعد قليل. لقد ألّف ابن حجر العسقلاني كتاباً في مصطلح الحديث مستخدماً هذا المصطلح بدون أدنى حرج تحت عنوان نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر وهو ملخص لأهم القضايا المتعلقة بمصطلح أهل الحديث(1).

ووردت كلمة نخبة في الفائق للزمخشري بمعنى الصفوة في كلمة: الشُّرْطة، وهي تعني نُخبَة الجيش التي تشهد الواقعة أوّلاً(2).

ووردت في غريب الحديث لابن الأثير(3) بأكثر من معنى، في شرحه لمعنى شُرَط السلطان، يقول: هم نُخْبة أصحابه الذين يُقدِّمهم على غَيرهم من جُنْده. وفي موضع آخر يذكر: نخبت النملة تنهب إذا عضت. وأورد حديثاً لسيدنا علي -وقيل: لسيدنا عمر، رضي الله عنهما- في قوله: «خرَجنا في النُّخبة» يعني، كما شرح الكاتب: المُنتَخَبون من الناس المُنتَقَوْن، والانتِخاب الاختيار والانتِقاء. وأورد ابن الأثير حديث ابن الأكوع، جاء فيه: انتَخب من القوم

---

(1) الإمام الحافظ أحمد بن علي العسقلاني، ابن حجر (٧٧٣-٨٥٢هـ)، نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

(2) محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨)، الفائق في غريب الحديث، ط٢ (لبنان: دار المعرفة، د.ت) ٢/٢٣٨.

(3) مجد الدين المبارك بن محمد، ابن الأثير (٥٤٤- ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م) ٢/٤٦٠.

مائةَ رجلٍ. وفي مواضع أخرى تأتي بمعان مختلفة كما أوردها الكاتب. والنَّخِيبُ كما شرح ابن أثير، الجَبانُ الذي لا فُؤادَ له، وقيل الفاسد الفعل.

ويبدو أن مصطلح النخبة كمصطلح ورد بلفظ الصفوة عند المحدثين ولم يرد بلفظ نخبة، وهذا راجع -حسب ما يبدو- إلى ورود المصطلح في الأحاديث النبوية الشريفة. لقد تناولت كتب الحديث هذا المصطلح كمصطلح وككلمة بالشرح تارة وبالتحليل تارة أخرى(1). فلقد وردت في كتب شرح غريب الحديث بمعانٍ مختلفة. ففي كتاب (الفائق) مثلاً جاء مايلي: اصطفاه بمعنى اقْتَفاه: اختاره. وهو القِفْوة نحو الصَّفْوَة من اصطفى. العَفْوَة وهي الصَّفْوَة

(1) انظر: سليمان بن أشعث سجستاني، أبو داود، عون المعبود بشرح سنن أبي داود (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ٦٦/٥، ٢٧٨/٧، ٢٢٨/١٢؛ النووي، أبو زكريا يحي بن شرف بن مري (ت٦٧٦هـ)، ١٣٩٢هـ، شرح النووي على صحيح مسلم، ط٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ٢١٦/١٢؛ الهيثمي، علي بن أبي بكر (ت٨٠٧)، مجمع الزوائد (القاهرة وبيروت: دار الريان للتراث، ودار الكتاب العربي، د. ت) ١٠٣/٢، ٢١٨/٨، ١٩٤، ٢٥/١٠؛ أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الطحاوي (ت ٣٢١هـ)، شرح معاني الآثار، تحقيق: محمد زهري النجار، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٩هـ) ٢٣١/٣؛ أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ٤٠٨/٢، ٣١٠/٦، ١٧٩/٩؛ الشوكاني، محمد ابن علي بن محمد (ت ١٢٥٥)، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٣م) ٢٢١/١، ١٨٧؛ ابن حبان، الإمام الحافظ أبي حاتم محمد ابن أحمد التميمي البستي (٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ١٧٦/١١؛ أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (دار الفكر، د.ت) ٧١/٣؛ الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري (ت٤٠٥)؛ المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ٥٥٥/٤.

والعفاوة، والعافي: صَفْوَة المرقة ووجدنا مكاناً عَفْواً، أي سهلاً، والمراد ذو الصَّفْوة والسهولة من العيش، يعني أنه أَلِفَ التنعيم فيعمل فيه الجُوع ويُضْجره.

أما في كتاب النهاية في غريب الحديث:[1] الصَّفيُّ، ما كان يأخُذه رئيسُ الجيش ويختاره لنَفْسه من الغَنيمة قبل القِسْمة. وفي حديث عوف بن مالك **«تسْبيحةٌ في طلب حاجةٍ خيرٌ من لَقُوحٍ صَفيٍّ في عامٍ لَزْبَة»**، الصَّفِيُّ: الناقةُ الغزيرةُ اللَّبن. وفي حديث علي والعباس «أنَّهما دخلا على عُمر، رضي الله عنه، وهما يَختَصِمان في الصَّوافي التي أَفاءَ الله على رسوله ﷺ من أمْوالِ بني النَّضير»، الصَّوافي: الأملاكُ والأراضي التي جَلا عنها أهْلُها أو ماتوا ولا وارث لها، واحدُها صافِيةٌ. قال الأزهري: يقال للضِّياع التي يَسْتخلِصُها السلطانُ لخاصَّته : الصَّوافي. وبه أخذ من قرأ قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ (الحج:٣٦)، صَوافِيَ أي خالِصَة لله تعالى.

ويقرر الحديث الشريف للنبي ﷺ مسألة مهمة في فكرة الصفوة، تفيد أن لكل شيء صفوة. فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لكل شيء صفوة وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى**»[2]. إن هذا التقرير يتجاوز مفهوم التعدد والتنوع في الصفوة المحصور في الإنسان، فهو يعتبرها من بين السنن الكونية، فهي موجودة في كل شيء.

---

(١) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/٤٠.

(٢) انظر: أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي (ت ٣٠٧هـ)، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، ط١ (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، أخرجه في مسند أبي هريرة، ١١/٣، ح٦١٤٣، وضعفه أحمد، وذكره ابن حبان في الثقات. كذا في مجمع الزوائد للهيثمي، ٢/١٠٣.

وأعطى الحكيم الترمذي لمصطلح الصفوة بعداً آخر. فأثناء مقارنته بين الأمة الإسلامية وباقي الأمم الأخرى، يشير إلى أن هذه الأمة هي خير الأمم بمعنى الأفضل، كما سميت في التوراة بصفوة الرحمن، يقول: «فهذه أمة مختصة بالوسائل من بين الأمم، محبوة بالكرامات، مقربة بالهدايات، محظوظة من الولايات، تولى الله هدايتهم وتأديبهم وتقريبهم، مسمون في التوراة صفوة الرحمن، وفي الإنجيل حكماء علماء أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء، وفي القرآن أمة وسطاً أي عدلاً، وشهداء الله في الموقف للأنبياء، عليهم السلام، على الأمم، وخير أمة أخرجت للناس»[1].

تميز الحكيم الترمذي في طرحه هذا عن غيره في خروجه بالصفوة من دائرة الأفراد والمجتمع الواحد، منتقلاً إلى الحديث عن الصفوة بين مختلف المجتمعات. وفي موضع آخر أشار إلى الفرق بين صفوة الأنبياء باعتبارهم معصومين وذريتهم، وإن كانوا من الصفوة فهم غير معصومين. وفي كلامه عن مبدأ التنوع بين الأفراد يقول: «إنه (أي الله عز وجل) أعلم بما يراد لهم، فإنما خلقهم من وجه الأرض تربتها مختلفة، وأن القلوب أوعية في أرضه، يضع فيها ما أحب، وأن العقول مقسومة بين العبيد، وأن الأخلاق لهم من الخزائن ممنوحة، وأن الأنوار على ما اختصه برحمته من بينهم ممنونة، وأن له من خلقه صفوة، وربك يخلق ما يشاء، ويختار ما كان لهم الخيرة». فهو يقرُ من خلال كلامه هذا بمبدأ: «كل ميسر لما خلق له».

---

(١) محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله، الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م) ١/٢٥٩،١٤٢؛ ٢/١٧٠.

المطلب الثاني: مفهوم النخبة حسب التصور الغربي:

- المعنى اللغوي للنخبة:

لقد وضعت مجموعة تعاريف حول مصطلح النخبة أبرزهـــا مـــا جـــاء في القواميس الإنجليزية، حيث تُعرف بأنها «أقوى مجموعة من الناس في المجتمـــع، التي لها مكانتها المتميزة وذات اعتبار». ويضيف قاموس أوكسفورد أنها «فئة اجتماعيـــة تعتبر الأفضل من غيرها بسبب القوة أو الفن أو الثروة التي تملكها»[1].

مفهوم النخبة عند علماء الاجتماع الغربيين:

يرى رايت ميلز (C. Wright Mills) أن سلطة (أو قـــوة) النخبـــة في عالم اليوم، تكمن في النظام السياسي، ومفتاح تلك القوة يتركـــز في مجموعـــة القرارات السياسية[2]. والقوة السياسية تختلف نوعيتها من نظام سياسي لآخر. ففي النظم الديمقراطية العريقة المستقرة تتمثـــل في الأحـــزاب الـــسياسية، وفي قيادات تلك الأحزاب، وكذلك في القوى الاقتصادية على اختلاف ميادينـــها، وفي القوى الإدارية والفنية والاستشارية، أي كل القوى التي تؤثر في القرارات المهمة. أما في النظم العسكرية، أو النظم الاستبدادية الأخرى فإن قوة القـــرار السياسي تنحصر في شخص واحد، أو في عدد قليل من الأشـــخاص، أو قـــد تكون قوة القرار السياسي في يد عائلة واحدة تتوارثها عبر أجيالها.

---

(١) انظر:
Homby, A. S., Oxford Advanced Learner's Dictionary of Current English, (Oxford: Oxford University Press, 4th ed., 1989).
ونفس المعنى يذهب إليه القاموس الفرنسي Petit Larousse illustre (paris: larousse, 1991
(٢) انظر:
C. Wright Mills. The Power Elite. Oxford University Press. London. Oxford – New York. 1956. pp. 44.

لم يقف علماء الاجتماع في دراستهم للنخبة عند فئة معينة من النخبـــة، بـــل صنفوا النخبة إلى أنواع مختلفة كما هو وارد بالتفصيل في كتاب الصفوة والمجتمع[1]. ويتفقون على أن الانتماء للنخبة المثقفة هو تكليف قبل أن يكـــون تـــشريفاً، وأن مصلحة العامة مقدمة على المصلحة الشخصية. وللأسف اعترض كاتـــب مـــسلم معاصر على هذه المسألة واعتبرها نسبية لا تصدق على كل المثقفين[2].

التعريف الاصطلاحي الراجح للنخبة من المنظورين:

رأينا أن مصطلح النخبة استخدم عند المسلمين بلفظ الصفوة بدل مرادفه لفظ النخبة، نظراً لتحمله المعنيين، الإيجابي والسلبي. وعليه عنـــدما نـــستخدم مصطلح النخبة بلفظ النخبة فإننا نقصد المفهوم الذي يحمله مصطلح نخبة بلفظ

---

(١) بوتومور، الصفوة والمجتمع، دراسة في علم الاجتماع السياسي، ترجمة د. محمد الجـــوهري وغيره، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨م). ويُعد الكتاب من بين الدراسات الأساسية في موضوع النخبة، وقد تناول فيه الكاتب مفهوم ودور النخبة وعلاقتها بالمركب الطبقي سواء في الدول الصناعية المتقدمة أو النامية. لقد قام بوتومور في كتابه بدراسة مقارنة بين نظريات النخبة، وحاول فيها تلخيص أهم الأفكار المتعلقة بتلك النظريات.

(٢) يرى مانهايم في تحليله دور المثقف، في كتابه المنشور عام ١٩٣٦م أن على هذا الأخير أن يتعالى عن القوى السياسية المتصارعة وعن المصالح المتضاربة، وأن يضع نفسه في موقع محايد غير منتمٍ، بحفاظه على نـــزاهته العلمية التي يستعملها في تحليل الظـــواهر الاجتماعية وانتقادها دون تحيز لهذه القوة أو تلك. ويرى غرامشي، في كتابه المنشور عام ١٩٥٧م أن على المثقف أن يضع نفسه ومعرفته رهن الصالح العام، بحيث تعبأ كل قدراته الفكرية وإبداعه ومهاراته من أجل توعية الجماهير، وبذلك ينحاز انحيازاً عـــضوياً إلـــى هؤلاء كطبقة. وحسب تعليق الدكتور صبور بأن منظوريهما متأصلان معاً في سياق وزمن معين، كان فيهما التصور الكوني للمثقف مايزال مهيمناً بقوة. وعن تعريف المثقف العربي اليوم يرى أننا إذا نظرنا إلى الواقع الوجودي اليوم لهذا المثقف فإنه يحق لنا أن نقول: إن أي تصور يحتم على المثقف أن يكون «غيرياً»، وينفي عنه المصلحة الشخصية من أجل مصلحة المجتمع، لا يمكنه أن يصدق على جميع المثقفين في كل الأحوال. انظر: امحمد صبور، المعرفة والسلطة في المجتمع، ص٦٣.

الصفوة. والتعريف الاصطلاحي الراجح عن النخبة من خلال ما سبق والذي تطمئن إليه النفس هو أن النخبة هي: تلك الفئة من الناس المكلفة بتحمل مسؤولية التغيير والتسيير وقيادة المجتمع. وعناصرها هم (كما ذكر ابن القيم) العاملون بالعلم، الزاهدون في الدنيا، الراغبون في الآخرة، المستعدون للنقلة بتحقيق اليقظة والتزود الصالح، ولا يندرج معهم من اشتهر بمجرد العلم، ولم يشتهر بالزهد والتعبد. وعلى رأسهم الأنبياء الذين ما نالوا ذلك الشرف العظيم إلا بما تحملوا من صعاب وتحدي أسوأ الظروف لتحقيق التغيير المنشود.

وأخلص إلى القول: إن النخبة في نظري هي تلك الطليعة من الناس التي تعتبر أن الانتماء إلى النخبة تكليف قبل أن يكون تشريفاً والتي تعيش شعوراً وإلحاحاً داخلياً يمدها بطاقة التحمّل لمواجهة الواقع السيئ في المجتمع، وتكابد من أجل تغييره نحو الأحسن. ولا يشترط بالضرورة أن تكون العناصر التي تنتمي إلى تلك النخبة من العناصر المثقفة ومتولدة من نخبة المثقفين ثقافة أكاديمية فقط. فكل التخصصات المعاصرة لها نخبة متميزة ومبدعة سواء أكانت تعتمد على العقل أو قوة الساعد. عناصر هذه النخب يجمعها همٌّ واحدٌ، وهو التغيير لتحقيق حياة أفضل لمجتمعاتها.

خلف لنا المصطفى ﷺ نخبة نموذجية تولى تصحيح دورها في المجتمع وتثبيت موقع المرأة فيها، سواء من خلال القرآن الكريم أو عن طريق النماذج النسائية التي اعتنى بتوجيههن. فأشرف على تربية هذه النخبة وإعدادها لتتحمل وتواجه كل ما استجد في الدولة الإسلامية من قضايا، فمثلت هذه النخبة دورها أحسن تمثيل على مستوى كل الأصعدة، فتولى رجالها الأكفاء القيادة السياسية معتمدين على النخبة التي هيأها لهم المصطفى، عليه أفضل الصلاة والتسليم، من الرجال والنساء.

المبحث الثاني
نماذج من العناصر النخبوية النسوية في القرآن

- تمهيد:

إن المجتمع البشري الذي يتكون من الرجل والمرأة، ينقسم طبقاً للوصف القرآني إلى فئات شتى لها أدوار ووظائف ضرورية لسير المجتمع بشكل طبيعي. وإذا اختلت هذه الأدوار والوظائف تعرض المجتمع إلى اضطرابات متنوعة. وتُعدّ النخبة من بين هذه الفئات، فهي تمثل العقل المدبر للمجتمع، وتتولى السهر على راحته. وقد شاع بين الناس أن فئة النخبة تنحصر فقط في صنف الرجال دون النساء، وذلك بسبب ما ألحق بعموم النساء من صفات النقص، كالضعف وكفران العشير والنسيان والعجلة وغير ذلك من الصفات التي تجعلهن بعيدات عن الوسط النخبوي.

ومما لا شك فيه أن الرجال أنفسهم يتفاوتون في الصفات الخلقية، كما تتفاوت النساء أيضاً في تلك الصفات. وقد حسم القرآن الكريم هذا الأمر، كما سيتضح معنا لاحقاً عند عرضنا للصفات التي فطر الله عليها الإنسان بشقيه، الذكر والأنثى، وعند عرضنا كذلك للنماذج النسائية التي ذكرت بأسمائهن في القرآن الكريم والنماذج التي كانت سبباً في نزول بعض الآيات القرآنية.

المطلب الأول: البدهيات القرآنية في التركيبة النخبوية:

ما من سؤال يخطر ببال فرد منّا إلا ويجد له مخرجاً في كتاب الله عز وجل، من ذلك التركيبة الاجتماعية التي فطر الله عز وجل عليها المجتمع البشري. ويتركب المجتمع الإنساني حسب الخطاب القرآني من الإنسان بشقيه، الذكر والأنثى، إذ عندما تستخدم هذه الكلمة فلا يقصد بها طرف واحد. وتوظيف القرآن لكلمات أخرى تميِّز الذكر عن الأنثى خير دليل على ذلك، فلقد تكررت كلمة «إنسان» في القرآن الكريم (٥٨) مرة معرّفة بألف ولام، ومرة واحدة نكرة؛ ووردت كلمة «ذكر» (٥) مرات، وكلمة «أنثى» (١٨) مرة، وكلمة «رجل» (١٣) مرة؛ وكلمة «امرأة» (٩) مرات؛ وكلمة «الرجال» ذكرت (٧) مرات؛ واستخدمت كلمة «النساء» (٢٤) مرة.

وإذا أردنا تصنيف عدد الاستعمال وفق العد التنازلي نلحظ ما يأتي: أن الله عز وجل قد استخدم كلمة «الإنسان» الذي يتضّمن الجنسين الذكر والأنثى معاً عند خطاب القرآن الكريم للبشر استخداماً أكثر من استخدامه للكلمات الأخرى مثلما رأينا، فلقد استخدمه (٥٨) مرة؛ ثم يأتي بعده في الترتيب كلمة «النساء» (٢٤) مرة؛ ثم كلمة «أنثى» (١٨) مرة؛ ثم كلمة «رجل» و«امرأة» (١٣) مرة؛ ثم كلمة «الرجال» (٧) مرات؛ وأخيراً كلمة «ذكر» (٥) مرات.

الصفات التي فُطر عليها الإنسان:

وإذا عدنا إلى الآيات التي ورَدَ فيها ذكر كلمة «الإنسان» وجدنا أن هناك صفات فُطر عليها الإنسان، أي مشتركة بين الذكر والأنثى. فلقد أخبرنا الله عز وجل بأنه خلق الإنسان من سلالة من طين، وبالتحديد من صلصال من حمإٍ مسنون: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ (الرحمن:٣)، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤)، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ (الرحمن:١٤)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون:١٢)، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة:٧)، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق:٥-٦)، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق:٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر:٢٦)، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (الإنسان:٢).

الإنسان سريع النسيان، بما فيه الذكر والأنثى، ينسى أنه مخلوق لا يملك نفسه، ورغم أنه خلق من نطفة لا ترى بالعين المجردة إلا أنه خصيم مبين أي شديد الخصومة والإنكار لما أخبره به ربه[1]. وإنه في أصله جاهلٌ علّمه الله ما لم يعلم: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:٥)، ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ (مريم:٦٧)، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ

---

(١) عبد الجليل عيسى، المصحف الميسر (القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص٣٤٥.

﴿ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ (الإنسان:١)، أي هل أتى على كل إنسان حين كان فيه معدوماً[1]؛ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ (النحل:٤)، وتعريف الإنسان هنا للعهد الذهني، وهو تعريف الجنس، أي خلق الجنس المعلوم الذي تدعونه بالإنسان[2]؛ ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ (يس:٧٧)، جاء في تفسير هذه الآية أنها نزلت في أُبيّ بن خلف -والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب-، وقوله ﴿أَوَلَمۡ﴾ أعم من قوله (أو لم يروا) يعني كل إنسان قد يغفل عن الأنعام وخلقها عند غيبتها ولكن لا يغفل وهو مع نفسه متى مايكون وأينما يكون. فما بال الإنسان أو لم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة، فإذا هو (خصيم) أي ناطق، وذكره الخصيم بدل الناطق لأنه أعلى أحوال الناطق، فإن الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصماً لا يبين ولا يجتهد مثلما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه. وقوله ﴿مُّبِينٞ﴾ إشارة إلى قوة عقله، وقوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه. وقوله: ﴿خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ إشارة إلى أعلى ماحصل عليه[3].

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ط١ (بيروت: مؤسسة التاريخ.. ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) ٢٩/٣٤٦-٣٤٧.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ١٣/٨١.

(٣) الإمام فخر الدين محمد، الرازي (ت ٦٠٤هـ)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ٢٧/٩٤-٩٥.

- العَجَلة: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾:

ولقد ابتلى الله عز وجل الإنسان بصفات خلقية، سواء الذكر أو الأنثى، ليرى مامدى انقياده لأوامر الله عز وجل: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الأنبياء:٣٧)، ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ (الإسراء:١١). «العجل»: السرعة. وخلق الإنسان منه استعارة لتمكن هذا الوصف من جبلة الإنسانية؛ وإن ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبة والكراهية[1]. فالإنسان خلق من عَجَل أي يطلب الشيء قبل أوانه[2]. والقول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ (الإسراء:١١)، يدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر، فيقول: اللهم أهلكه والعنه عند ضجره وغضبه، كدعائه بالخير يقول كدعائه ربه بأن يهب له العافية، ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده، يقول: فلو استجيب له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشر كما يستجاب له في الخير هلك، ولكن الله بفضله لا يستجيب له في ذلك[3].

وأخرج الطبري رواية جاء فيها: «قال فلما نفخ الله فيه من روحه أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧/٥٠.

(٢) عبد الجليل عيسى، المصحف الميسر، ص٤٢٤.

(٣) محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، الطبري (٢٢٤هـ/٢١٠)، جامع البيان في تأويل آي القرآن (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ) ١٥/٤٧.

فلما انتهت النفخة إلى سرته، نظر إلى جسده، فأعجبه ما رأى من حسنه، فذهب لينهض فلم يقدر. فهو قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ (الإسراء:١١)، قال ضجراً، لا صبر له على سراء، ولا ضراء»؛ وفي موضع آخر: «فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء:٣٧). لذلك أمر الله عز وجل في مقابل ذلك الابتلاء أن يتحلى بالصبر»، ولذلك أيضاً فإن الصبر يتفاوت بين الناس سواء بين الذكر والأنثى أو بين أفراد الجنس الواحد.

- **الضعف** ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾:

ولقد خلق الله عز وجل الإنسان ضعيفاً كما جاء في محكم تنزيله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٢٨)، والضعف هنا المقصود به الميل الفطري للرغبات الشهوانية. ابتلى الله عز وجل الذكر والأنثى بحب الشهوات، وأمرهم بالاعتدال في طلبها عن طريق الزواج، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٢٨).

- **الهلع** ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾:

ويندرج تحت صفة الضعف صفات أخرى مثل الهلع، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ (المعارج:١٩-٢٣)،

يرى ابن عاشور أن المقصود بالإنسان: جنس الإنسان، لا فرد معين ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (المعارج:١٩)، والهلع شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر وقلة الصبر. وفي رواية: خلق هلوعاً قال: شحيحاً جزوعاً... وعن عكرمة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، قال: ضجوراً. وعن قتادة في قوله: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ، قال: جزوعاً. وقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾، يقول: إذا قل ماله وناله الفقر والعدم فهو جزوع من ذلك، لا صبر له عليه، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج:٢١)، يقول: وإذا كثر ماله ونال الغنى فهو منوع لما في يده، بخيل به لا ينفقه في طاعة الله، ولا يؤدي حق الله منه، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، يقول: إلا الذين يطيعون الله بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون، لا يضيعون منها شيئاً، فإن أولئك غير داخلين في عداد من خلق هلوعاً، ... وقيل: عني بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، المؤمنون الذين كانوا مع رسول الله ﷺ. وقيل: عني به كل من صلى الخمس[1].

أما ابن عاشور فلقد أورد تفسيراً متميزاً لهذه الآية[2]، حيث رجع بنا إلى الهدف السامي الذي خلق لأجله الإنسان، أن يكون خليفة الله في الأرض، وهذا القصد الإلهي شمل الجنسين الذكر والأنثى.

(١) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٧٨/٢٩، وانظر أيضاً: الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١١٣/٣٠-١١٤.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٥٦/٢٩-١٥٧.

- **الطغيان ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾:**

وصفة الطغيان ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ (العلق:٦)، حيث يتجاوز الإنسان حدود الله بسبب كثرة معاصيه. يقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة:١٥): «الطغيان الفعلان، من قولك طغى فلان يطغى طغياناً إذا تجاوز في الأمر حده فبغى، ومنه قول الله تعالى:﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق:٦-٧)، أي يتجاوز حده، ومنه قول أمية بن أبي الصلت: (ودعا الله دعوة لات هنا بعد طغيانه فظل مشيراً)، وإنما عنى الله جل ثناؤه بقوله: ويمدهم في طغيانهم أنه يملي لهم ويذرهم يبغون في ضلالهم وكفرهم»[1].

- **الجحود والنسيان وسرعة كفران النعمة:**

صفة الجحود والنسيان وسرعة كفران النعمة، فالذكر والأنثى كلاهما مبتلى بهذه الصفة، والتي غالباً ما تُتهم بها المرأة أكثر، وأمر بالعمل على استحضار شكر الله عز وجل في السراء والضراء، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ (الزمر:٨)، وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٤٩). وقال الله

(١) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ١٣٥/١.

تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٢)، وقال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ (فصلت:٤٩)، في حال الإقبال ومجيئ المرادات لا ينتهي قط إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها، وفي حال الإدبار والحرمان يصير آيساً قانطاً، فالانتقال من ذلك الرجاء الذي لا آخر له إلى هذا اليأس الكلي يدل على كونه متبدل الصفة متغير الحال؛ وفي قوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ (فصلت:٤٩)، صيغة مبالغة أي شديد اليأس من رحمة ربه، واليأس من صفة القلب. والقنوط أن يظهر آثار اليأس في الوجه والأحوال الظاهرة[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت:٥١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات:٦)، لكنود أي لكثير جحود النعمة، لكفور لنعم ربه والأرض الكنود التي لا تنبت شيئا[2]. وقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٤)،

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١١٨/٢٧؛ وانظر أيضاً: عبد الجليل عيسى، المصحف الميسر، ص٦٣٧.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٢٧٧/٣٠؛ عبد الجليل عيسى، المصحف الميسر، ص٨١٨.

«القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، يقول تعالى ذكره: وإن تعدوا أيها الناس نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تطيقوا إحصاء عددها والقيام بشكرها إلا بعون الله لكم عليها. إن الإنسان لظلوم كفار يقول: إن الإنسان الذي بدل نعمة الله كفراً لظلوم يقول لشاكر غير من أنعم عليه، فهو بذلك من فعله واضع الشكر في غير وضعه وذلك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم، واستحق عليه إخلاص العبادة له»[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢)، جاء في تفسير هذه الآية أوجه كثيرة كما ورد في التفسير الكبير، والذي يهمنا هو «المراد الإنسان يظلم بالعصيان، ويجهل ما عليه من العقاب، أو أن الإنسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الأمانة بقي بعضهم على ما كان عليه، وبعضهم ترك الظلم وترك الجهل»[2].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (الزخرف:١٥)، وقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ (عبس:١٧)، وفي تفسير هذه الآية جاء في الطبري «قتل الإنسان ما أكفره تعجباً من كفره بالذي خلقه وسوى خلقه»[3].

---

(١) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٢٢٧/١٣.
(٢) الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٢٠٣/٢٥.
(٣) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٩٢/٢.

ولقد فطر الله عز وجل الإنسان على الكد والمشقة، فمن حاول الهروب من مواجهة المشقات من ذكر أو أنثى يعني هذا محاولة الخروج عن الفطرة الصحيحة؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (البلد:٤)، جاء في تفسيرها: «معناه لقد خلقنا ابن آدم في شدة وعناء ونصب، في كبد حين خلق في مشقة، لا يلقى ابن آدم إلا مكابد أمر الدنيا والآخرة... وفي رواية: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم. وفي رواية أخرى: لقد خلقنا الإنسان في كبد أي يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وفي أخرى: في كبد أي في شدة، وعن ابن عباس قال: في شدة معيشته وحمله وحياته ونبات أسنانه. وجاء في تفسيرها أيضاً: معنى ذلك أنه خُلق منتصباً معتدل القامة. وجاء أيضاً: بل معنى ذلك أنه خلق في السماء. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك أنه خلق يكابد الأمور ويعالجها، فقوله في كبد معناه: في شدة، وهذا هو الصواب لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب من معاني الكبد»[1].

- **حبّ المال.. والبخل**: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾:

ولقد جبل الإنسان على حب المال وصفة البخل، وابتلي بالاعتدال في النفقة، فلا يقبض كل القبض، ولا يبسط كل البسط. وابتلي بالصدقة والزكاة وإكرام الضيف وأعمال أخرى تمس أمواله. يمتحن فيها مدى صدقه مع الله عز وجل، وإيمانه بالقضاء والقدر خيره وشره، وتوحيد صفاته، فهو الرزاق بيده

---

(١) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٣٠/١٩٨،١٩٧،١٩٦.

ملكوت السموات والأرض. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ قتوراً أي شديد التقتير، والبخل[1].

- كثرة الجدل:

والإنسان كما خلقه الله عز وجل كثير الجدل ابتلاه بحسن استخدامه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:٥٤). وجاء في تفسيرها: «يقول عز ذكره: ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، ووعظناهم فيه من كل عظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة، ليتذكروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:٥٤)، يقول: وكان الإنسان أكثر شيء مراءً وخصومة لا ينيب لحق، ولا ينزجر لموعظة»[2].

حسب ما سبق، فإن الإنسان بشقيه الذكر والأنثى خلق من تراب. وفطره الله عز وجل على صفات ابتلاه بها. فأمره بضبطها فهو سريع النسيان ينسى أنه مخلوق لا يملك نفسه، وأنه في أصله جاهل علمه الله ما لم يعلم، ظلوماً معرض لظلم غيره. هذا الإنسان مفطور على العجلة والضعف، وباتصافه بصفتي الهلع والطغيان يتجاوز حدود الله بسبب كثرة معاصيه. وفيه صفة

---

(١) عبد الجليل عيسى، المصحف الميسر، ص٣٧٨.
(٢) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٢٦٦/١٥.

الجحود والنسيان وسرعة كفران النعمة؛ ولقد فطر الله عز وجل الإنسان على الكد والمشقة. ولقد خلق الله جل وعلى في الإنسان صفة البخل. وكل فرد مسؤول عن نفسه، وسيحاسب في الآخرة منفرداً فرْداً وحيداً.

ونخلص من هذه الأوصاف إلى أنه لا الذكر يتصف بالكمال ولا الأنثى تتصف بالكمال، وإن الذين بلغوا الكمال الإنساني المطلق هم الأنبياء فقط. فكلا الجنسين معرض للوقوع في الخطأ.

أما عن صفة العجلة فقد رأينا أن الإنسان بشقيه الذكر والأنثى معرض للوقوع في الخطأ بسبب تسرعه في اتخاذ القرارات أو غير ذلك. ويبقى التفاوت وارداً بين الناس في قدرتهم على التحكم في هدوئهم وصبرهم، فمن النساء من تتقن التريث في اتخاذ القرارات، وخير دليل قرآني ماجاء عن ملكة سبأ، كما سيتضح في المطلب الثاني، عندما وصلتها رسالة رسول سيدنا سليمان، عليه السلام، لم تأخذها العجلة في تقديم الرد قبل استشارة رجالها، وحتى بعد استشارتهم لم تتسرع في اتخاذ قرار الحرب الذي عرضوه عليها. وكم من حاكم استبد بالأمور، واستعجل في اتخاذ القرارات. وعليه فإن الصنفين موجودان في عالمي الرجال والنساء، أي المعتدل والمفرط في كيفية التعامل مع صفة العجلة. والأمر نفسه ينطبق على صفة الهلع، التي أورد فيها ابن عاشور تحليلاً متميزاً، كما سبق ذكره.

إن هذه الصفات إذاً كامنة في الإنسان بنوعيه الذكر والأنثى، بمعدلات مختلفة ومتفاوتة. فلا يمكن الجزم بأن الرجالَ كلّهم مطبوعون بصفات ثابتة

تضمهم في صنف واحد، وأن النساء كلهن صنف واحد، مطبوعات أيضاً بصفات ثابتة. تتفاوت حدة هذه الصفات بين الناس، بين الرجل والمرأة من جهة، وبين الرجل والرجل الآخر، وبين المرأة والمرأة الأخرى. وهذا الرأي يؤيده قديماً أفلاطون، وهو من فلاسفة قبل الميلاد، والذي تساءل ما إذا كان من الممكن إسناد بعض الوظائف إلى النساء في المدينة الفاضلة، ويقصد الوظائف التي يتولاها الرجال عادة دون النساء. ويجيب: «هناك نساء موهوبات في الطب، وغيرهن لم يوهبن منه شيئاً... ونساء محبات للحكمة وغيرهن يبغضنها، ونساء يتصفن بالشجاعة، وأخريات بالجبن... فهناك إذاً نساء جديرات بحراسة الدولة، وأخريات غير جديرات بذلك..»(١).

وفي شرح وتعليق ابن رشد على تلك الفكرة يقول: «إن النساء، بقدر ما هن من نوع واحد كالرجال من حيث القصد الأول من وجود الإنسان، فهن بالضرورة يشاركنهم فيه، بدرجة أقل أو أكثر. ذلك أنه إذا كان الرجل أكثر قدرة من المرأة في كثير من الأعمال البشرية، فليس من الممتنع أن يكون النساء في بعض الأعمال أكثر قدرة منه... ولما كانت طبيعة النساء والرجال من نوع واحد، وكانت الطبيعة التي من النوع الواحد تتحول في المدينة إلى نشاط من نوع واحد، فمن البديهي أن النساء يمكن لهن أن يتولين في هذه المدينة (الفاضلة) الأعمال نفسها التي يتولاها الرجال، ما عدا تلك التي لا يقدرن عليها. فمن الواجب إذاً أن تسند إليهن أكثر أنواع الأشغال سهولة.

---

(١) محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ط١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥م) ص١٤٢-١٤٣.

وهذا يتبين بوضوح بعد الفحص عنه، فنحن نشاهد النساء يشاركن الرجال في الصناعات ما عدا ما يضعفن عنه. ونجد النساء أقدر من الرجال في بعض الصناعات كما هو الحال في صناعة الحياكة والخياطة وما أشبه ذلك. أما عن مشاركتهن في فنون الحرب وما شابهها، فإن هذا واضح في سكان الصحاري والثغور... ويواصل ابن رشد قوله: وبالمثل، فبما أن بعض النساء ينشأن وهن على درجة من التفوق والفطنة، فليس يمتنع أن يكون من بينهن الفلاسفة والحكام»[1].

مادامت الصفات التي ذكرها القرآن الكريم موجودة في الجنسين فلا يوجد مانع يقف حاجزاً أمام حضور المرأة في الموقع النخبوي، الذي يمنح المرأة صوتاً في دائرة صنع القرارات السياسية والفكرية، التي تترتب عنها مصالح تمس الجنسين، أو صوتاً لاستدراك ماتراه أصلح للمرأة أو صوتاً لرد الظلم عن المرأة.

هذا عن الإنسان بنوعيه، ذكراً أو أنثى، والذي يكوّن المجتمع الإنساني الذي يخاطبه القرآن الكريم. ويتشكل هذا المجتمع حسب الوصف القرآني من فئآت لابد منها لتكوين المجتمع بشكل طبيعي وسيره واستمراره، وإذا اختلت أدوارها ووظائفها تعرض هذا المجتمع إلى اضطرابات داخلية بأشكال متنوعة. وتتجلى هذه الفئآت، عندما يوجه الله عز وجل خطابه للإنسان نفسه، أو عندما يتحدث عن الأمم التي خلت من قبل، أي قصص

---

(١) محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، المرجع السابق نفسه.

الأنبياء بشكل عام. فنلاحظ أنه يتحدث عن الطبقة الحاكمة وعلاقتها بالطبقات الأخرى، والتي كانت تتمثل في الأنبياء والرسل، والذين يسعون إلى توجيه العامة توجيهاً صحيحاً، أو أهل الكتاب، أي علماء الدين، أو السحرة الذين أضلوا العامة بضلالتهم. ويوجه خطابه للعامة عندما يستخدم كلمة الناس، أو الرجال، أو النساء.

والسؤال المطروح هنا حسب الخطاب القرآني: هل تشمل النخبة المسؤولة عن التغيير والإصلاح في المجتمع الإنساني الرجال والنساء؟ أم أن الأصل في النخبة أنها تتشكل من الرجال فقط؟ هناك من يتصور أنها تتشكل من الرجال فقط بدليل عدم وجود نبية مذكورة في القرآن، وأنه ذكر من الرسل والأنبياء الكثير. لكن هذا التفكير يحتاج إلى إعادة نظر.

مما لاشك فيه أن المرأة لا تملك المؤهلات الفطرية التي خلقها الله في الرجل لتكون نبية. هذا ما تأباه الفطرة ويرفضه العقل السليم، والجدال حول هذه المسلمة ضرب من الجنون واصطدام مع الفطرة، فالله عز وجل خلق في الرجل صفات خلقية مهيأة ليتولى السهر على راحة وحماية الأنثى، فهل ذكر في التاريخ جيوش كانت أغلبها نساء؟

والأنبياء، عليهم السلام، اصطفاهم الله عز وجل عن باقي مخلوقاته لصفاتهم البشرية النوعية والمتميزة، كلفوا بإعداد النخبة التي تتولى قيادة المجتمع على المستويات كلها، السياسية، والفكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، مثلما فعل النبي محمد ﷺ. يمكن القول: إنهم بلغوا درجة الكمال التي تحدث عنها الرسول ﷺ،

فعَنْ أَبِي مُوسَى، رَضِي اللَّه عَنْه، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاء إلا آسيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»(١).

ولقد ورد ذكر اسم كل من مريم وآسيا في القرآن الكريم بشكل مباشر، مثلما ورد ذكر أسماء الأنبياء بشكل واضح. ويدل هذا على أن بعض النساء، بلغن درجةً من الصلاح والتقوى ومستوىً يرقى بهن إلى مصاف النساء النخبويات، وهذا شرف عظيم لجنس النساء على الرغم من أنهن لسن بنبيات مرسلات، فهن في مصاف العناصر النخبوية واللاتي بلغن من الكمال مقاماً. وهو الكمال الذي عادة ما يكرم به الأنبياء.

وعليه، فعدم وجود نبية مذكورة في القرآن لا يحصر النخبة في الرجال فقط؛ لأن الأنبياء هم الذين يتولون إعداد النخبة التي تتولى قيادة المجتمع، كما سبق أن ذكرنا. وهذا ما يدفعنا إلى دراسة موقع النساء اللاتي ورد ذكرهن في القرآن، سواء بشكل مباشر، أي مريم ابنة عمران، وآسيا زوجة فرعون، أو غير مباشر بدون ذكر اسمها وهي ملكة سبأ. ونساء نزل فيهن القرآن في عهد النبي محمد ﷺ. وهذه العناصر تُعدُ نماذج نخبوية تاريخية قيمة، كان لهن أثر واضح في زمانهن، مما جعل القرآن يخلد أسماء بعضهن ويجعلهن مثلاً يقتدى به.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: «وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون -إلى قوله- وكانت من القانتين» ١٢٥٢/٣، حديث ٣٢٣٠.

المطلب الثاني: نماذج نسائية نخبوية في القرآن الكريم:

- مريم ابنة عمران [1]:

لقد كان لبيت المقدس قداسته؛ إذ تمنت امرأة عمران أن يهبها الله غلاماً تسخره لعبادته ولخدمة هذا البيت. لذلك نذرت ما في بطنها لله عز وجل، ظناً منها أن الجنين ذكر (آل عمران:٣٥-٣٦)، وأن يكون محرراً أي خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران:٣٦)، أي في القوة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى، وأخبرنا الله عز وجل أنه تقبلها بقبول حسن (آل عمران:٣٧-٣٨)، على الرغم من أنها ليست ذكراً.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)، إن أكرم الناس، سواء كان ذكراً أم أنثى، عند الله عز وجل

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢٦٧/١١-٢٨٠؛ وانظر أيضاً: السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ١٨٥/٢؛ ٤٩٨/٥؛ وانظر أيضاً: المعلمي، يحي عبد الله، المرأة في القرآن الكريم، قصة مريم؛ وانظر أيضاً: أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ١٠٧/١؛ وانظر: جابر الشال، قصص النساء في القرآن الكريم، ص٥٦،٦٥؛ وانظر أيضاً: عبد المنعم الهاشمي، قصص النساء في القرآن، ص٩؛ وانظر أيضاً: أحمد جمال عبد العال، نساء خالدات في القرآن الكريم، ص٢٥؛ وانظر: محمود شلبي، حياة مريم، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

هو أتقاهم. هذا هو الميزان الذي اختاره الله عز وجـــل لعباده لتمييز الأفـــضل من الناس. ولقد اصطفى الله عز وجل مريم على نساء العالمين بـــسبب درجـــة التقوى التي بلغتها. فلقد بلغت مستوى من التقوى لم يصله سوى الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ (آل عمران:٤٢-٤٣)، وجعلها مثلاً يقتدى به، قال تعـــالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم:١١-١٢). فقوله تعـــالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (التحـــريم:١٢)، أي حفظتـــه وصـــانته، والإحـــصان هـــو العفـــاف والحريـــة ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (التحريم:١٢)، أي بوساطة المَلَك وهو جبريل، عليـــه الـــسلام. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي بقـــــدره وشـــــرعه ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (التحريـــم:١٢)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَـــطَّ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ فِـــي الأَرْضِ أَرْبَعَـــةَ خُطُوطٍ، قَالَ: «تَدْرُونَ مَا هَـــذَا؟» فَقَـــالُوا: اللَّهُ وَرَسُـــولُهُ أَعْلَـــمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِـــدٍ وَفَاطِمَـــةُ**

بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ»[1]. وفي رواية أخرى: «**لَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ**»[2].

ولقد ابتلى الله عز وجل مريم بامتحان، لا تقدّر مدى شدته وصعوبته إلا الصالحات من المؤمنات. ولقد ابتلى عائشة، رضي الله عنها، بما هو أخف منه حيث رموها بالزنا. لقد حملت مريم نبي الله عيسى من غير زوج ليكون آية للناس (مريم:١٦-٣٠). لقد كان ابتلاءً عظيماً لها حتى تمنت الموت فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ (مريم:٢٣). وضعها الله في موقف لا يمكن أن تتخلص منه لوحدها، رغم شهادة الناس لها بالعدالة التي لا تقاس بغيرها. موقف، أمرها الله عز وجل فيه بعدم الكلام؛ لأن مثل هذا الموقف لن يدع لها مجالاً للدفاع عن نفسها، على الرغم من شهادة كل الناس لها بالصلاح، إذ ماكان أبوها امرأ سوءٍ وما كانت أمها بغياً كما صرحوا لها، فموقف مثل هذا لم يضعوا له تأويلاً غير الزنا[3].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٩٥/٤. والحديث أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩٣/١، رقم ٢٦٦٨. وابن حبان في صحيحه، ٤٧٠/١٥، رقم٧٠١٠. وانظر: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم (٤٠٥هـ) المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ٥٣٩/٢، رقم ٢٨٣٦، و٢٠٥/٣، وصححه في الموضعين ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿**إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه**﴾ ٢٨٣/٧. مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، رضي الله عنها، ١٣٣/٧.

(٣) ولقد أشار الله عز وجل إلى افتراء اليهود على مريم العذراء بقوله: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا، وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا**﴾ (النساء:١٥٥-١٥٦).

لقد أيدها الله بمعجزة حتى تشهد ببراءتها مما يتصورون، فنطق المسيح عيسى ابنها وهو في المهد ليكون آية للناس. إن قصة السيدة مريم، عليها السلام، والسيدة عائشة، رضي الله عنها، كما سنرى، لأفضل دليل على أن المرأة مهما بلغت درجة الصلاح، فهي معرضة لأذى الناس. وعليه فلا تتخذ حجة حصانة المرأة من أذى الناس ذريعة لإبعادها عن موقعها النخبوي الذي يحتاج إليه المجتمع قبل أن يكون حقاً لها[1].

هذا، ويعد أنموذج السيدة مريم أنموذجاً أخلاقياً عالياً بسببه استحقت شرف الاصطفاء ومضرب المثل لمجتمعها والمجتمعات التي أتت بعدها.

- إمرأة فرعون مضرب المثل في الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التحريم:١١). ونصل إلى أنموذج آخر من النساء، أنموذج امرأة لها القدرة على تحمل أشد أنواع التعذيب في سبيل إرضاء الله عز وجل. فهي أنموذج إيماني، وأنموذج في التجرد. سبق وأن أوردنا الرواية التي أدرجت آسية امرأة فرعون ضمن النساء اللاتي بلغن درجة الكمال.

إن الاصطفاء أو الانتماء إلى النخبة ضريبته ليست سهلة، فالحصول على درجة الكمال يكون على قدر الامتحان. وها هي آسية بنت مزاحم، رضي الله عنها، تكون عبرة للعالم النخبوي، ورداً على من يريد الانتماء إلى النخبة لتحقيق مصالحه الشخصية، ويرفض أن يكون كبش فداء. إن ثباتها هذا أمام فرعون

---

(١) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٤/٤٧٦-٤٨٨.

وملئه يزيد المؤمنين ثباتاً على الحق، فلو استسلمت لفرعون بسبب تعذيبه لها لزرعت في المؤمنين الخوف وروح الاستسلام. إنها تعرف جيداً موقعها في المجتمع، فهي زوجة فرعون. وثباتها أمام ذلك التعذيب بعد أن تعودت على حياة البذخ، يشد من عزم أتباع سيدنا موسى، عليه السلام، على الطريق ويثبتهم.

ويرى ابن عاشور أن امرأة فرعون المذكورة في الآية (١١) من سورة التحريم هي امرأة فرعون الذي أرسل إليه موسى، وهو «منفطح الثالث»، وليست امرأة فرعون التي تبنت موسى حين التقطته من اليم؛ لأن ذلك وقع في زمن فرعون رمسيس الثاني، وكان بين الزمنين ثمانون سنة. ولم يكن عندهم علم بدين قبل أن يرسل إليهم موسى. ولعل امرأة فرعون هذه كانت من بنات إسرائيل تزوجها فرعون، فكانت مؤمنة برسالة موسى عليه السلام. وقد حكى بعض المفسرين أنها عمة موسى، أو تكون هداها الله إلى الإيمان كما هدى الرجل المؤمن من آل فرعون الذي جاء ذكره في سورة غافر، وسماها النبي ﷺ آسية كما ورد في حديث أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا آسيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»**[1].

وأرادت بعمل فرعون ظلمه، أي نجّني من تبعة أعماله، فيكون معنى ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ (التحريم:١١) أي من صحبته، طلبت لنفسها فرجاً. ومعنى ﴿قَالَتْ﴾ أنها أعلنت به، فقد روي أن فرعون اطلّع عليها، وأعلن ذلك لقومه، وأمر بتعذيبها فماتت في تعذيبه ولم تحس ألماً. والقوم الظالمون: هم

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إلى قوله وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، حديث ٣٢٣٠، ٣/١٢٥٢.

قوم فرعون. وظلمهم: إشراكهم بالله. والظاهر أن قولها في قوله: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ (التحريم:١١) مؤذن بأن فرعون وقومه صدّوها عن الإيمان به وزيّنوا لها أنها آمنت بموسى تضيع ملكاً عظيماً وقصراً فخيماً، أو أن فرعون وعظها بأنها إن أصرت على ذلك تقتل، فلا يكون مدفنها الهرم الذي بناه فرعون لنفسه لدفنه في بادئ الملوك. ويؤيد هذا ما رواه المفسرون أن بيتها في الجنة من درّة واحدة، فتكون مشابهة الهرم الذي كان معدّاً لحفظ جثتها بعد موتها وزوجها[1]. ويظهر بوضوح أثر موقع كل من مريم وآسيا في الوسط النخبوي في قول ابن عاشور: إنها كانت مثلاً لمتانة المؤمنين، ومريم مثلاً للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرأوا من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر بمكة[2].

- ملكة سبأ:

لقد ورد ذكر قصة ملكة سبأ في القرآن الكريم، وفيها ما يدل على أنها كانت ملكة على مملكة عظيمة[3]. وتكاد تتفق الكتب التي تناولت قصة ملكة سبأ في المحتوى، حيث تذكر لنا الروايات أن ملكة سبأ بنتُ شراحيل ابن مالك بن ريان، والتي تحدثت عن أم ملكة سبأ أنها كانت جنية مؤخر إحدى قدميها مثل حافر الدابة -ولا نعرف ما مدى صحة هذا الكلام- واسمها فارغة أو بلتعة أو بلقته أو بلقمة بنت شيصان. وقيل: بنت فاقوذ، وزوجها عمران بن ماثان. وقيل: كانت ملكة سبأ اسمها ليلى، وسبأ مدينة باليمن، وفي روايات أنها اسم رجل، وملكة سبأ حميرية. وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي

(١) ابن عاشور، تفسير التنوير والتحرير، انظر: ج٨، تفسير الآية ١١ من سورة التحريم.
(٢) ابن عاشور، المرجع السابق نفسه.
(٣) انظر: سورة النمل(٢٠-٢٦).

وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ (النمل:٢٣)، كانت من بيت مملكة، وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء. ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (النمل:٢٣)، أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ (النمل:٢٣)، يعني سرير تجلس عليه عظيم[1].

وورد في القرآن الكريم ما يدل على اعتمادها على مبدأ الشورى في اتخاذ القرارات المصيرية المتعلقة بالحرب والسلم[2]. إن اتخاذ مثل هذه القرارات، المتعلقة بالعلاقات الخارجية، لا يعتبر أمراً هيناً، بل هو على رأس القضايا الحساسة المتعلقة بمسائل الحكم وما يجري حوله. إن حاكماً يتمتع بكل هذه القوة من عدة وعتاد وعرش عظيم، لا يتردد في إعلان الحرب على من يرسل خطاباً مثل الذي أرسله سليمان، عليه السلام. ولقد رأينا في سيرة

---

(١) للمزيد حول قصة ملكة سبأ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١١/٢٦٧-٢٨٠؛ وانظر أيضاً: الصابوني، محمد علي (٧٧٤هـ)، مختصر تفسير ابن كثير، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٠م) ٢/٦٨٦-٦٩٣؛ وانظر أيضاً: السيوطي، الإمام عبد الرحمن جلال الدّين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ٦/٣٤٩-٣٦٨؛ وانظر أيضاً: المعلمي، يحي عبد الله، المرأة في القرآن الكريم (الرياض: دار المعلمي للنشر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ١٤٦-١٤٨؛ وانظر أيضاً: عبد الحليم محمد أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ط٤ (الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص١٠٤-١٠٦؛ وانظر: جابر الشال، قصص النساء في القرآن الكريم (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي) ص٥٦-٦٥، ٦٦؛ وانظر أيضاً: عبد المنعم الهاشمي، قصص النساء في القرآن، ط١ (دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص١٢٩؛ وانظر أيضاً: أحمد جمال عبد العال، نساء خالدات في القرآن الكريم (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص٢٥.

(٢) انظر: سورة النمل (٢٧-٣٣).

المصطفى ﷺ، كيف كانت ردود أفعال الملوك الذين أرسل إليهم، يدعوهم إلى الإسلام ليس إلا، فاستنكر ملك الفرس استنكاراً شديداً، وأساء الأدب مع رسولَ رسولِ الله ﷺ حيث حرق أمامه الخطاب[1].

وها هي ملكة سبأ بحكمتها التي وهبها الله عز وجل على الرغم مما كانت تملكه من عرش وقوة، استقبلت كتاب سليمان، عليه السلام، استقبالاً حسناً، فأثنت عليه ثناء حسناً على الرغم مما جاء فيه من الأمر بالاستسلام كما جاء في التفسير: «قال قتادة، يقول: لا تجبروا علي ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣١)، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي وأتوني مسلمين. وقال ابن عباس: موحدين. وقال غيره: مخلصين. وقال سفيان بن عيينة: طائعين». وجاء أيضاً «فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٢٩)، تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر ذهب به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك»[2]. لكن هذا التأويل لا يستند إلى دليل، لذلك يبقى مجال فهم هذه الآية مفتوحاً.

ولم تكن الملكة مستبدة، بل اعتادت على مبدأ الشورى في صنع قراراتها كما قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ (النمل: ٣٢)، أي حتى تحضرون وتشيرون.

---

(١) انظر: البخاري، صحيح البخاري، ٣/١٠٧٤.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/٣٩٨.

خبرة ملكة سبأ في أمور الحكم:

وعلى الرغم من القوة التي كانت تتمتع بها، وترك وزرائها لهـا الـرأي الأخير كما ورد في القـرآن الكـريم[1]: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل:٣٣)، أي نحن ليس لنا طاقة ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه فما لنا طاقة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا رأيـك نمتثلـه ونطيعـه. واتخذت موقفاً حكيماً عندما اتخذت قرارها المصيري. لقد كانت ملكة سـبأ تملك خبرة بالتاريخ البشري ومعرفة بصفات الملوك، فكانت تعلم أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلـة: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ (النمل:٣٣)، وأقر الله عز وجـل لها بهذا الرأي. فهي كانت تحذر من مغبة انقلاب النظام بسبب الغزو الخارجي، فالحاكم الفطن يحتاج للشورى في إصدار قراراته، ويحتاج كذلك لمعرفة عميقة بالتاريخ والسير وعواقب الأمور، وكانت تعلم قوة سليمان، عليـه الـسلام، فتنبأت بالعواقب التي يمكن أن تترتب على مواجهة مثل تلك القوة، التي كـان وراءها حشد من الجن والإنس والطير مسخر لسليمان، عليه الـسلام، وهـذا ماجعلها تركن إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة مع إرسال الهدية.

غير أن سيدنا سليمان، عليه الـسلام، رد عليها هديتهـا، وأعلمهم بأنه لا يقبل منهم إلا الإسلام، وأمر الجن بإحضار عرشها، ، وعندما رأته ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ (النمل:٤٢)، أي عرض عليها عرشها وقد أدخلت عليه تغـييرات،

---

(١) (النمل:٣٤-٤٠).

قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ (النمل:٤٢)، فقالت ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (النمل:٤٤)، فأسلمت وحسن إسلامها[١].

وخلاصة القول: إن أنموذج ملكة سبأ هو أنموذج سياسي أنثوي، وردت قصتها في سياق قصة سيدنا سليمان، عليه السلام، وقد وصفها القرآن بجملة من الأوصاف، مثل الشورى والدراية، وهي صفات الملوك، وخبرتها بأمور الحرب والسلم، ثم بقدرتها الفائقة على المناورة واستجلاء الحقائق، وعدم التسرع في الحكم على الأشياء. ونجحت في إدارة الصراع السياسي والعقائدي مع أقوى ملوك زمانه، الذي دعا الله عز وجل أن يعطيه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، هذا الملك الذي كان مؤيداً بالوحي وبقوى غير مرئية كثيرة، هذا من جهة.

ومن ناحية أخرى فلو كان هذا المنصب الذي تولته هذه المرأة محظوراً لعقب عليه الله عز وجل ولو بإشارة خفيفة مثلما وصف فرعون بالطغيان. وتوجد مواضع كثيرة تسمح بمثل هذا التعقيب. فعند قول الهدهد مثلاً: وجدت امرأة تملكهم (تحكمهم)، أولاً: لم يستخدم كلمة (أنثى)، واستخدم كلمة (امرأة)، وهذا جاء في السياق نفسه استخدام الله عز وجل لكلمة (رجل) الذي قصد منه في أغلب الآيات الرسول أو النبي. ويبدو أن هذه أفضل فرصة لإبراز حرمة تولي المرأة الحكم. وقد أورد الله عز وجل آيات صريحة تحريمية حول كل مسألة يترتب عنها مفاسد مضرة بالمجتمع. وبدل أن نجد هذا، رأينا كيف أن الله عز وجل عقب على رأيها بالصواب.

---

(١) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ١٩/١٦٨.

ولأهمية الموضوع ذكر هذا الصراع بالذات بدل صراع آخر، فلا يعقل أن يكون هذا هو الصراع الوحيد الذي واجهه سيدنا سليمان، عليه السلام، في عصره، وهو يملك ذلك الملك العريض من الإنس والجن والطير. وتولي مثل هذه المناصب يعد تشريفاً بقدر ما هو تكليف، فمنصب الحكم في ذاته ابتلاء عظيم لعظم مسؤوليته. ولو قدّر الناس خطورة هذا الابتلاء في الآخرة لما تنافسوا من أجل الحصول عليه، بل على العكس لأخذ كل واحد يطمع في أن يتولاه غيره، ولا يفقه هذا الكلام إلا المتقون، كما فقه ذلك الخلفاء الراشدون.

أرى أن مثل هذه المواقع التي تصنع فيها القرارات على مستوى أعلى مرتبط بتقلبات الزمان، وبنوعية الكفاءات المتوفرة في ذلك العصر. وهذا لا يعني أنني أدع إلى تولي المرأة منصب الرئاسة، بل أقول: لو كانت هذه المسألة محظورة لكان رب العباد ذكرها ضمن الثوابت التي لا جدال حولها، لكن تركت ضمن المتغيرات حسب تقلبات الزمان، ونحمد الله أنه إلى الآن لا يزال لدينا رجال أكفاء لم يخل الزمان منهم. وقول المصطفى ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[1] صائب جداً؛ لأن قوماً غاب فيهم رجل كفؤ يتولى أمرهم قوم لا خير فيهم، فكيف يفلحون؟

قد يتهمنا قارئ بالرجعية بسبب هذا الموقف، أقول: إن كان عدم تولية المرأة الإمامة العظمى أو الرئاسة دليل على التخلف أو الرجعية إذن الدول

---

(١) أخرجه البخاري.

الغربية التي يطلق عليها بالدول المتقدمة أو المتحضرة متخلفة. وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، التي لم تعرف تولي امرأة الحكم في تاريخها. بل إن أول امرأة تولت الحكم في عصرنا، كما أعلم، هي «إيزابيل بيرون» بالأرجنتين في عام ١٩٧٤م، وتعرضت لانقلاب عسكري بعد سنتين من حكمها (١٩٧٦م). وعينت «إديت كريسون» رئيسة للوزراء لأول مرة في تاريخ فرنسا وقضت أقل من عام، وهي أقصر مدة شغلت هذا المنصب مقارنة بغيرها حيث فقدت شعبيتها بسرعة نتيجة مظاهرات احتجاجية، و لم تعين غيرها إلى الآن. و«كيم كامبل» بكندا عينت أيضاً كرئيسة وزراء وهي المرأة الوحيدة التي شغلت هذا المنصب ومكثت مدة أقل (١٣٢) يوم فقط (يونيو ١٩٩٣م إلى نوفمبر ١٩٩٣م) و لم تجلس على كرسي الحكم. والوحيدة التي عمرت (١١) سنة (١٩٥٩م إلى ١٩٦٩م) هي «مارغريت تاتشر» في بريطانيا والملقبة بالمرأة الحديدية وهي حالة شاذة والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه.

أما باقي الدول المتقدمة سواء في أوروبا أو غيرها فيكاد الأمر ينعدم، ففي سويسرا عينت «روت درايفوس» كأول رئيسة عام ١٩٩٩م، وصلاحيات الرئيس في هذا البلد مختلفة عما في غيره، فهي محدودة، ويعين لمدة سنة فقط. وعينت حديثاً «أنجيلا ماركل» بألمانيا (٢٠٠٥م).

والشاهد في هذا السرد أن قيام الحضارة في الغرب لم يقم بسبب تولي المرأة الحكم، بدليل أن أمريكا إلى يومنا هذا لم تحكمها امرأة، ورأينا باقي الدول مثل فرنسا التي تعتبر على رأس الفكر التنويري لم تحكمها امرأة، وحتى رئاسة الوزارة فشلت فيها. وأغلب الدول المتقدمة لم تولي المرأة الحكم باستثناء

بعضها، وكما يبدو تولت بعضهن الحكم أو رئاسة الوزاراة في وقت متـــأخر. والطريف أنني وجدت أن أغلب الدول التي تقلدت فيها المرأة الحكم أو رئاسة الوزراء هي دول من العالم الثالث، أقدمهن سري لانكـــا (١٩٦٩م) حيـــث تـــولت «سيري مافو باندارانيك» رئاسة الوزارة[١]. ورغم ذلك لا تزال هذه الدول ضمن الدول النامية لم يغير من وضعها تعين النساء على سدة الحكم.

لم يكن تولية النســـاء الحكم في الغـــرب سبباً في قيام تلك الحـــضارة، كما أسلفنا، بل بدأت النساء تتعين في الفترة الحديثة.

وحتى نوقف هذا الجدال العقيم لمن يتهمنا بالرجعية فلنعط العالم الإسلامي فرصـــة يقوم ويخرج من التخـــلف لنناقش تعين المرأة على سدة الحكم، هـــذا إذا فرضنا جدلاً الاقتداء بالغرب لمن يعتبرهم مرجعاً يقتدى به، بل وياليتنـــا في هذا نقتدي بهم، فلقد تولى الحكم خلال فترة نهضتهم رجال أكفاء.

لا أعتقد أن مشكلتنا تكمن في تولية المرأة الحكم بقدر ماهي في إشراكها في صنع مختلف القرارات التي تسيِّر المجتمع، فلقد نبذ المصطفى ﷺ تولي المـــرأة الحكم لكن لم يلغ صوتها في تشكيل القرارات السياسية والفكرية والتـــشريعية، بل على العكس تماماً خلف وراءه نخبة من النساء حملنا علمه جنباً إلى جنب مع إخوانهن الرجال، وكان لهن الأثر الواضح في صناعة فكر المجتمع الرسالي خاصة بعد وفاة النبي ﷺ.

---

(١) http://www.squidoo.com/women-presidents-women-prime-ministers
http://en.wikipedia.org

المبحث الثالث

نماذج من العناصر النخبوية النسوية في السنة

- تمهيد:

إن قضية الاحتجاج بالسنّة النبوية قضية محسومة لا تحتاج إلى الحجة والبرهان للدلالة على ضرورتها، فالله تعالى وعد بحفظ هذا الذكر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وحفظ الدين مرتبط بحفظ سنّة النبي، عليه الصلاة والسلام، باعتبار السنّة شارحة لعام النص القرآني، سواء بالتفصيل أو التخصيص، أما ابتداؤها بالتشريع فمختلف حوله، والامتثال لأوامر ونواهي رسول الله ﷺ هو التأسي بعينه لتحقيق معنى العبودية لله تعالى.

التأسي لغة: من تأسى (تأسىّ، يتأسىّ، تأسيًا) تأسى به اتبع فعله واقتدى به ويقال: أسوت فلاناً إذا جعلته أسوته[1]. والتأسي بالرسول ﷺ هو الاقتداء

---

(١) لسان العرب، ١٤/٣٥؛ الكرمي، حسن سعيد، الهادي إلى لغة العرب، ١/٦٦.

بمنهجه في الحياة في مجالاتها كلها، فكل ما لم ينه عنه فهو إقرار منه بإباحته. فكيف بما ساهم في إعداده، فذاك أولى بالحرص على الأخذ به.

بعد أن طهر النبي ﷺ المجتمع من النخب الفاسدة التي استعبدت العامة من الناس وسلبتهم كل حقوقهم، تلك النخب التي استغلت عبادة الأصنام لاستعباد العباد، قام بإعداد نخبة من الصحابة والصحابيات لتولي مهمة تسيير حركة التغيير في المجتمع في أثناء وجوده وبعد مماته؛ نخبة علمها أن الانتماء إلى النخبة هو تشريف على قدر التكليف.

وفي إطار إعداد هذه النخبة تولى العناية بالتأسيس لموقع المرأة في الوسط النخبوي، فقام بتربية وتوجيه نخبة من النساء اللواتي حملن مع إخوانهن مسؤولية تسيير المجتمع وتقرير مصيره في المجالات كلها. لكن ضمن ظروف وضوابط تحفظ للمرأة كرامتها وتحميها من الاختلاط غير المشروع. وقبل الحديث عنهن يجدر بنا الوقوف عند دراسة المجتمع النبوي نفسه لنكتشف الموقع الذي احتلته هذه العناصر النسوية النخبوية في الوسط النخبوي لهذا المجتمع.

المطلب الأول: موقع راويات الحديث في مجتمع الصحابة:

إن أعلى نسبة عثرت عليها في المصادر والمراجع لعدد سكان المجتمع النبوي هي كما قال أبو زرعة الرازي: «توفي رسول الله ﷺ وقد رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف إنسان»[1]، هذا باستثناء من لم يره. وسنركز في هذا الكتاب على النخبة، التي باركها وشكلها الرسول ﷺ والتي شملت الجنسين، الرجل والمرأة، حتى تكون خير خلف لموقع الرسول ﷺ. وسيتبين لنا أنه لم يخلّف رجالاً فقط لتولي مسؤولية ذلك الموقع. وبعبارات أوضح فلقد كلّف الله عز وجل رسوله بتبليغ رسالته، فكان القرآن ينزل بالتدريج حسب الظروف والوقائع. بعض الظروف ثابتة تتكرر عبر الزمن، وبعضها متغير. وما لم ينزل فيه قرآن كان للرسول ﷺ فيه قول أو فعل، أو تقرير.

وبعد وفاة الرسول ﷺ حمل علمه نخبة من الصحابة والصحابيات تربوا في مدرسته حتى يتولوا عملية الاجتهاد لفهم الواقع وإدراجه تحت النصوص، أي النظر في الأمور المستجدة في عصرهم بناء على ماورثوه منه من علم.

غير أن النخبة في المجتمع النبوي تحتوي على فئات مختلفة. فنجد النخبة العامة ويندرج ضمنها كل حملة آثار النبي ﷺ، يعني من روى عن رسول الله ﷺ ليس أكثر، ومن ضمن الفئة نفسها من كان يشتهر بصناعة مثل أم المؤمنين زينب، رضي الله عنها، كانت تروي عن رسول الله واشتهرت أنها كانت امرأة صناع. وهناك النخبة الخاصة وهي الفئة التي تروي عن الرسول ﷺ وتجتهد في مستجدات الأمور، وهذا ما سيتبين بوضوح كما سيأتي.

---

(١) الذهبي، الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣هـ-٧٤٨هـ)، تجريد أسماء الصحابة (بيروت: دار المعرفة) ١/١.

نسبة سكان المجتمع النبوي:[1]

قام الذهبي[2] في كتابه «تجريد أسماء الصحابة» بتجريد كل أسماء الصحابة والصحابيات مستفيداً من مصنف ابن الأثير، الذي استقصى مادته من الكتب الأربعة المصنفة في معرفة الصحابة. وزاد عليها الذهبي من مصادر أخرى كثيرة. عن عدد الصحابة بالتحديد ذكر الأعداد المتباينة التي جاءت في أقوال العديد من العلماء حسب ماورد في مقدمته: قال الشافعي: توفي النبي ﷺ والمسلمون ستون ألفاً. ثلاثون ألفاً بالمدينة وثلاثون ألفاً بغيرها. وقال أبو زرعة الرازي[3] توفي رسول الله ﷺ وقد رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف إنسان[4]. قال الحاكم روى عن النبي ﷺ أربعة آلاف نفس. وقال الذهبي بل لعل الرواية عنه نحو ألف وخمسمائة نفس لا يبلغون ألفين أبداً... وأظن أن المذكورين في كتابي هذا (يقصد من روى عنه ومن لم يرو) يبلغون ثمانية ألف نفس وأكثرهم لا يعرفون»[5]. وحسب الترقيم الذي أدخل على كتابه فإن عدد أسماء الصحابة الذين ذكرهم هم ٨٨٦٦ اسماً؛ ٧٦٠١ صحابياً و١٢٦٥ صحابيةً. يعني هذا

---

(١) انظر: تجريد أسماء الصحابة؛ العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد علي (٧٧٣-٨٥٦هـ)، كتاب الإصابة في تمييز الصحابة (دار الفكر، د. ط) ج١، خطبة الكتاب؛ القرطبي، بقيّ بن مخلد (٢٧٦)، ومقدمة مسنده (عدد ما لكل واحد من الصحابة من الحديث) تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، ط١ (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص١٧-١٦٨؛ سير أعلام النبلاء.

(٢) تجريد أسماء الصحابة، ١/١.

(٣) توفي (٢٦٤) انظر: السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ)، طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، ط٢ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص٢٥٠.

(٤) انظر: الإصابة، ٣/١. يزيد ابن حجر بقوله: إن الرازي قال: كلهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية.

(٥) المرجع السابق، ١/١.

قريب من تسعة آلاف. ولقد أشار في كلامه إلى أنه لم يكن متأكداً بل بناه على الظن. كما أشار إلى أن أكثرهم لا يُعرفون، يعني فيهم من لم تثبت صحبته.

أما عدد الصحابة المذكورين في الإصابة للحافظ ابن حجر فقد بلغ ١٢٣٠٤ نفساً، بما فيهم عدد ١١٤٢٢ صحابياً ممن لم تثبت صحبتهم، و١٥٥٢ صحابية[١]. وقد اعترف ابن حجر بعد أن ذكر من سبقه في التأليف في هذا البحث أنه لم يحصل له الوقوف على العشر من أسامي الصحابة بالنسبة إلى ما جاء عن أبي زرعة. وأشار ابن حجر أيضاً إلى أنه قرأ للذهبي بأن جملة من في أسد الغابة (لابن الأثير) سبعة آلاف وخمسمائة وأربعة وخمسون نفساً (٧٥٥٤) وفيهم من لم تثبت صحتهم[٢]. غير أن الطبعة التي صححها الشيخ أحمد الرفاعي[٣] وأدخل على أسماء الصحابة الترقيم بلغ العدد (٧٧٠٤) يعني (٦٦٨١ صحابياً، و١٠٢٣ صحابية). ولقد صح عن الثوري (ت١٦١هـ)[٤]، كما أورد ابن حجر أيضاً أنه قدر عدد الصحابة حين وفاة عمر، رضي الله عنه، باثني عشر ألفاً (١٢٠٠٠) من الصحابة[٥].

وحسب تقرير الدكتور أكرم[٦] فإن العدد الذي ذكره الشافعي يتنافى مع قول أبي زرعة السابق وقوله: «شهد حجة الوداع أربعون ألفاً، وكان معه

---

(١) القرطبي، بقي بن مخلد، ص ١٧؛ الإصابة (القاهرة: دار نهضة مصر) ٤٧١/٧؛ ٣٢٥/٨.
(٢) الإصابة، ٣/١.
(٣) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمّد الجزريّ (٦٣٠هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
(٤) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص٨٨.
(٥) المرجع السابق، ٤/١.
(٦) بقي بن مخلد القرطبي، ص١٨.

بتبوك سبعون ألفاً». وخلص في النهاية إلى أن أقصى تقدير لعدد الصحابة يتجاوز المائة ألف وهو تقدير أبي زرعة، ثم أشار إلى أن القصد من قول أبي زرعة «رآه وسمع منه» أي أن هذا العدد يمثل من لهم سماع ومن لهم رؤية وليس لهم سماع. فلا يمثل هذا العدد حصراً للصحابة الرواة. هذا الكلام يصح على الرواية التي أوردها الذهبي، لكن إذا رجعنا إلى الرواية التي ذكرها ابن حجر (كلهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية) تدل على أن هذا العدد يشمل الصحابة الرواة وليس جملة الصحابة كما ذكر ابن فتحون[1].

وأشار الدكتور أكرم أيضاً إلى أن تعليق الذهبي على الحاكم عن عدد الرواة والذي مفاده ١٥٠٠ ولا يصل ٢٠٠٠ أبداً، هو أقرب للصحة. بدليل قائمة الرواة التي نظمها ابن الجوزي والتي بلغت ١٨٥٨ (١٦٤٢ صحابياً و٢١٦ صحابيةً) وفيهم من لا تصح روايته. وبناءً على الإحصائيات التي قام بها الدكتور حيث قد جمع بين عدد الصحابة الذين خرّج لهم الإمام أحمد في مسنده وعددهم (٩٠٤) وعدد الصحابة الذين أضافهم بقيّ بن مخلد في مسنده ممن لم يخرج لهم الإمام أحمد وعددهم (٨٧) ثم الذين أضافهم الإمام ابن القيم من مختلف المصادر وعددهم ٦، فإن عدد الصحابة الرواة يبلغ ١٥٦٥ صحابياً- وفيهم عدد ممن اختلف في صحبتهم[2].

ومنه نخلص إلى القول: إن نسبة سكان المجتمع النبوي فيها تباين واضح، فيصعب حسم الأمر بتحديد العدد بشكل قطعي؛ لأنه كما يبدو من سياق

---

(١) ابن حجر، ٣/١-٤. وهذا نص قوله «أجاب أبو زرعة بهذا، من سأله عن الرواة خاصة فكيف بغيرهم».

(٢) بقي بن مخلد القرطبي، ص ١٩.

الحديث، فإن تحديد عدد الصحابة والصحابيات ارتبط خصوصاً بعدد الـرواة، فأعلى نسبة وردت هي لأبي زرعة والتي تتجاوز مائـة ألـف (١٠٠,٠٠٠)، وكلهم كما قال قد روى عنه سماعاً أو رؤية. ولا ندري إلى أي مدى تكـون صحة هذه النسبة، على الرغم من أن أبا زرعة يعد من الحفاظ(١)؛ وتُعَدُّ هـذه النسبة هي الأقدم من الناحية الزمنية؛ وأقل نسبة وردت هي (١٥٦٥) بناء على الروايات التي خرج لها الأئمة. وهذه النسبة هي أحدث إحصائية من الناحيـة الزمنية أيضاً. فيمكن أن نخلص إلى أن نسبة عدد الرواة شهد تراجعاً تـدريجياً، وأن العلماء المشتغلين بالأمر كان كلٌ منهم يتولى تنقيح أعمال مـن سـبقه، لنصل إلى آخر عدد وهو ١٥٦٥ راوياً.

وأعلى نسبة وردت عن نسبة عدد الصحابة عامة، أي بما فيها الرواة وغيرهم، هي ٦٠,٠٠٠ صحابياً، وأقل نسبة هي ٧٧٠٤ صحابياً، كما جـاء في «أُسـد الغابة»، لكن هذه المرة نلاحظ أن أقدم إحصائية وصلتنا تاريخياً هـي (١٢٠٠٠) للثوري، ثم ترتفع فجأة إلى (٦٠٠٠٠) عند الـشافعي، ثم تنـزل إلى (٧٧٠٤) لابن الأثير (٦٣٠هـ)، ثم ترتفع للمرة الثانية مع الذهبي (٧٤٨هـ) إلى (٨٨٦٦) ثم ترجع إلى ما يقارب الإحصائية الأولى لتصل إلى (١٢٣٠٤) لابن حجر، وهـي أحدث إحصائية عن عامة الصحابة، أي بمافيهم الرواة وغيرهم.

ويرجع سبب هذا التغير في الأرقام إلى حرص العلماء على الاستفادة مـن بعضهم بعضاً، كما رأينا مع الذهبي الذي رجع إلى «أُسد الغابة»، وذكر بـأن

---

(١) قال عنه أحمد: «ماجاوز الجسر أفقه من إسحاق بن راهويه، ولا أحفظ من أبي زرعة»؛ انظر: السيوطي، طبقات الحفاظ، ص٢٥٠.

ابن الأثير رجع إلى كتب معرفة الصحابة. ولقد أشار إلى الزيادات التي أوردها في كتابه وخاصة في النساء. وجاء بعده ابن حجر ليكتب بدل تجريد أسماء الصحابة -الذي يشمل الأسماء عامة بدون تمييز- كتابه الذي أطلق عليه اسم «الإصابة في تمييز الصحابة»، قصد منه تمييز الصحابة عن غيرهم، بعد أن ذكر وعلق على من سبقه في هذا التأليف. فعندما ذكر كتاب «الاستيعاب» لصاحبه عمر بن عبد البر علق عليه بأن هذا الكاتب ظن أنه استوعب ما في كتب من قبله غير أنه فاته الكثير بدليل أن الكثير من العلماء ذيلوا عليه في تصانيف مختلفة. وعندما وصل إلى ابن الأثير في كتابه «أُسد الغابة» أثنى عليه ثم انتقده في كونه تبع من قبله فخلط من ليس صحابياً و لم يشر إلى الأوهام التي وردت في كتبهم. وأخيراً لما وصل إلى كتاب الذهبي(١) أشار إلى الفرق بينه وبين عمله، فذكر أنه استطاع بالتتبع أن يذكر كثيراً من الأسماء التي ليست في كتابه. فجمع هو، أي ابن حجر، كتاباً كبيراً ميز فيه الصحابة من غيرهم، أي من لم تثبت صحبته ومن ذكر في الكتب على سبيل الغلط والوهم(٢).

ويبقى موضوع إحصائية نسبة عدد السكان بشكل نهائي شبه مستحيل، نتيجة التباين الواضح الذي رأيناه. فلا يمكن إثبات العدد الذي ذكره أبو زرعة؛ أو الشافعي؛ أو غيره إلا بقائمة الأسماء. فهذه دعوة تحتاج إلى إثبات. وهذا

---

(١) هذا هو الترتيب السليم لمن نقل عن الآخر، وليس كما جاء في كتاب دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى، فالكاتبة ذكرت كتاب الذهبي بعد الإصابة والأصل الصحيح هو العكس كما رأينا في خطبة كتاب الإصابة وحتى من خلال تاريخ الوفاة. فالذهبي توفي سنة ٧٤٨هـ، وابن حجر ولد سنة ٧٧٣هـ.

(٢) الإصابة، ص٣-٤.

ماحاول أن يقوم به باقي العلماء فحاولوا القيام بتجريد قائمة أسماء كل الصحابة. كما فعل ابن الأثير والذهبي وابن حجر، ويبدو أن ابن حجر، استطاع أن يستقصي أكثر مما وصل إليه الذهبي.

وعليه، يمكن اعتبار (١٢٣٠٤) هو أقصى عدد وصلت قائمته إلينا وفيهم من لم تثبت صحبته، وفيهم من ذُكر غلطاً أو وهماً. يعني أن عدد الرجال بلغ (١١٤٢٢)، وعدد النساء بلغ (١٥٥٢).

من جهة لا نستغرب كثيراً إذا لاحظنا أن أقصى تقدير لعدد النساء هو ١٥٥٢، إذا ما قارناه بعدد الرجال الذين أوردهم ابن حجر وهو ١١٤٢٢، والذي لا يمثل عشر ما ذكره أبو زرعة الذي قدر عدد الرواة بـ(١٠٠,٠٠٠) كما اعترف ابن حجر بذلك. ويبدو أن السبب الرئيس لهذا هو ارتباط تجريد أسماء الصحابة والصحابيات برواية الحديث.

فكل من كانت له علاقة مباشرة أو غير مباشرة، من قريب أو بعيد، برواية السنة بأقسامها الثلاثة، كان له حظ في القائمة التي جردت. مثال على ذلك أمهات المؤمنين وغيرهن، ويندرج ضمن هذه القائمة أن من كانت له أو لها علاقة قرابة أو غير ذلك بالرواة كان له أو لها حظ في ذلك أيضاً. مثلاً درة بنت أبي لهب هي ابنة عم رسول الله ﷺ لها في المسند من رواية زوجها عنها؛ الربداء بنت عمرو بن عمارة البلوية، لها ذكر في مستدرك الغساني؛ أو من ارتبط اسمه بواقعة معينة، مثلاً عند إقامة الحدود، أو في عقد البيعة، مثل رغيبة بنت سهل بن ثعلبة من المبايعات؛ آسية بنت الفرج الجرهمية اعترفت بالزنا، أو من لهم صلة قرابة أو عمل بالنبي ﷺ، مثل رزينة خادمة رسول الله ﷺ روت عنها ابنتها آمة الله.

وحتى أسماء من ذكرت في قائمة المجهولات ارتبطت بالرواية، مثلاً امرأة من بني أسد؛ أوردها الذهبي؛ لأن لها حديثاً في الوحدان لابن أبي عاصم، وامرأة بايعت رسول الله ﷺ لها حديث في كتاب ابن أبي عاصم.

وإذا رجعنا إلى ترتيب الذهبي لأسماء الصحابيات نجده قد صنفهم كما يلي: في الأول جرد لمن عرف اسمها وفق الترتيب الألفبائي؛ ثم ذكر من عرفت بأخت فلان مثلاً أخت الحارث بن سراقة بكت على أخيها يوم بدر؛ وأخت عبد الله بن رواحة لها حديث. ثم ذكر من عرفت ببنت فلان، مثلاً بنتا أوس بن ثابت لهما ذكر في سبب نزول آية الميراث. ثم باب جدة فلان، مثلاً جدة حشرج بن زياد الأشجعي، لها حديث في مسند أحمد. ثم ذكر من عرفت بخالة فلان، مثلاً خالة زينب بنت نعيط. ثم أورد من عرفت زوجة فلان، ثم عمة فلان، ثم ذكر أخيراً قائمة المجهولات مثل امرأة من بني أسد، لها حديث في الوحدان لابن أبي عاصم[1].

- حملة علم النبي من الصحابيات:

سبق أن رأينا أن أقصى تقدير لعدد الصحابة الرواة بما فيهم الرجال والنساء هو (١٠٠,٠٠٠) كما ذكر أبو زرعة. وباعتباره من الحفاظ العدول الثقاة لا يمكن تكذيبه. كما لا يمكن الاعتماد على مجرد نقله؛ لأن قائمة أسماء هؤلاء الصحابة غير متوفرة. وهذا مايجعلنا نعتمد القائمة التي جردت فيها أسماء الصحابة الرواة. والتي تتفق مع تقدير الذهبي الذي أشار إلى أن عدد

---

(١) تجريد أسماء الصحابة، ص٢٦٦-٢٦٧، ٢٤٢، ٢٦٨، ٣٤٣.

الرواة لا يمكن أن يتجاوز ٢٠٠٠، ويبدو أن القائمة التي تتـوفر فيهـا هـذه الشروط هي القائمة التي توصل إليها الدكتور أكرم، كما رأينا سابقاً، حيـث قدر أن عدد الصحابة الرواة بلغ (١٥٦٥) صحابياً. غير أنه لم يـذكر عـدد الصحابيات في هذه القائمة، الأمر الذي جعلني أرجع إلى مقارنة القوائم الآتية لأصل إلى أن عدد الراويات بلغ ٢٩٢ راويةً.

ولقد وجدتُ في مسند الإمام أحمد[1] ذِكر (١٢١) صحابية، (١٠٠) منـهن عُرفت أسماؤهن، و (٢١) منهن روي عنهن ولم تُعرف أسماؤهن. وركزت علـى من عرفت أسمـاؤهن. ومن (١٠٠) صحابية تفرد بـ (٢٠) اسماً لصحابية لم يرد لا في قائمة بقي بن مخلد ولا في قائمة ابن حزم[2] ولا في قائمة ابن القيم.

وفي قائمة بقي بن مخلد (١٢٤) صحابية. وفي قائمة ابـن حـزم (١٢٠) صحابية. والمجموع الصافي بينهما هو (١٢٧) صحابية. يعني (٥) صـحابيات موجودات عند ابن حزم ولم يذكرهن بقـي بـن مخلـد. و(٦) صـحابيات موجودات عند بقي ولم يذكرهن ابن حزم، وبذلك فإن القائمتين متقاربتـان جـداً. وفي قائمـة ابن القيم (١١٩) (٨ منهن لم تذكر في بـاقي القـوائم) فضلاً عما تفرد به بدون ذكر عدد الراويات (١٢٨) ليكـون المجمـوع هـو (٢٤٧) صحابية.

---

(١) ابن حنبل، الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ)، ط١ (بيـروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م) الفهارس العامة، ٥٠/٥-٣٩.

(٢) أبو محمد علي بن أحمد بن عبد الله بن سعيد الظاهري الأندلسي، ابن حزم (٤٥٦هـ)، أسماء الصحابة وما لكل واحد منهم من العدد، تحقيق مسعد عبد الحميد السعدني (الرياض: مكتبة القرآن، ١٩٩١م) ص٣٢- ٩٥.

وإذا جمعنا بين هذه القوائم الأربع لوجدنا أن عدد الصحابيات اللاتي روين عن النبي، عليه الصلاة والسلام، وهو العدد الصافي بدون تكرار الاسم (٢٩٢) صحابية. هذا بدون أن ندرج (٢١) صحابية اللاتي ذكرهن الإمام أحمد واللاتي روى عنهن و لم تعرف أسماؤهن. ويمكن ترتيب عدد مرويات كل صحابية كالآتي:

- روى عن النبي ﷺ من أصحاب الألوف راوية واحدة وهي أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها.

- روى عن النبي ﷺ من أصحاب المئين، أم المؤمنين أم سلمة، هند بنت أبي أمية المخزومية، رضي الله عنها.

- روى عن النبي ﷺ من أصحاب العشرات: أسماء بنت يزيد ابن السكن؛ أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث؛ أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان الأموية؛ أسماء بنت عميس؛ أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب؛ أسماء بنت أبي بكر الصديق؛ وأم هانئ أخت علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم؛ وأم عطية الأنصارية نسيبة بنت الحارث؛ فاطمة بنت قيس القرشية الفهرية؛ وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية امرأة العباس؛ وأم قيس بنت محصن أخت عكاشة بن محصن.

- ومن أصحاب ثمانية عشر: فاطمة بنت رسول الله ﷺ الهاشمية.

- ومن أصحاب خمسة عشر: خولة بنت حكيم.

- ومن أصحاب أربعة عشر: أم سليم الرميصاء بنت ملحان الأنصارية؛ الكعبية.

- ومن أصحاب اثنا عشر: الشفاء بنت عبد الله العدوية؛ سبيعة بنت الحارث الأسلمية وأم الحصين الأحمسية.

- ومن أصحاب أحد عشر: أم المؤمنين زينب بنت جحش الأسدية؛ ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب؛ بسرة بنت صفوان.

- ومن أصحاب العشرة: صفية بنت حيي أم المؤمنين؛ أم هشام بنت حارثة الأنصارية؛ أم مبشر الأنصارية امرأة زيد بن حارثة؛ أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط الأموية؛ أم معقل الأسدية؛ وأم المؤمنين جويرية بنت الحارث المصطلقية.

- ومن أصحاب الثمانية: خولة بنت قيس بن فهد امرأة حمزة ابن عبد المطلب؛ زينب بنت أبي معاوية الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود؛ الفريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري؛ خنساء بنت خدام؛ أميمة بنت رقيقة ابن الحارث؛ وأم رميثة.

- ومن أصحاب السبعة: أم خالد وهي بنت خالد بن سعيد بن العاص؛ سلمى مولاة رسول الله ﷺ؛ وأم حرام الرميصاء بنت ملحان الأنصارية؛ وزينب بنت أبي سلمة المخزومية؛ أمة بنت خالد؛ أم بجيد (حواء).

- ومن أصحاب الستة: أم جندب وهي والدة سليمان بن عمرو؛ أم العلاء الأنصارية؛ وأم الدرداء.

- ومن أصحاب الخمسة: سودة بنت زمعة أم المؤمنين؛ صفية بنت شيبة؛ أم أيمن بركة بنت ثعلبة مولاة النبي ﷺ وحاضنته؛ فاطمة بنت اليمان أخت حذيفة؛ خويلة بنت ثعلبة؛ جدامة بنت وهب.

- ومن أصحاب الأربعة: أم ليلى بنت رواحة الأنصارية؛ أم المنذر؛ بنت كردم؛ روينة؛ حبيبة بنت سهل الأنصارية؛ أم سليمان بن عمرو بن الأحوص؛ أم كردم؛ أم أيوب؛ أم فروة؛ ميمونة بنت سعد؛ أم صبية الجهنية؛ أم شريك العامرية؛ أم عثمان بنت سفيان.

- ومن أصحاب الثلاثة: الصماء بنت بسر؛ فاطمة بنت أبي حبيش؛ أم سعد؛ سلامة؛ أنيسة بنت خبيب بن يساف؛ درة بنت أبي لهب؛ أم حكيم بنت الزبير بن عبد المطلب؛ حمنة بنت جحش؛ أم عمارة الأنصارية؛ أم المنذر بنت قيس الأنصارية؛ ميمونة بنت كردم؛ أم جميل فاطمة بنت المحلل.

- ومن أصحاب الاثنين: ميمونة مولاة النبي ﷺ؛ ميمونة بنت سعد خادمة النبي ﷺ؛ أم عبد الله بنت أوس؛ أم الحكم بنت الزبير بن عبد المطلب؛ أم بشر بنت البراء بن معرور؛ السوداء؛ أم معبد؛ مارية مولاة النبي؛ أميمة؛ أم ورقة هي بنت عبد الله بن الحارث؛ أم زياد الأشجعية؛ سهلة بنت سهيل العامرية؛ أم طارق مولاة سعد بن عبادة؛ أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية؛ أم عبد الرحمن بن طارق؛ أم بلال بنت هلال؛ رائطة امرأة عبد الله بن مسعود؛ رائطة بنت سفيان؛ رميثة بنت عمرو القرشية؛ أم زياد الأشجعية؛ سلامة بنت الحر الفزارية؛ سلمى بنت قيس الأنصارية؛ أم سلمى؛ عائشة بنت قدامة؛ خولة بنت ثامر؛ حبيبة بنت أبي تجراة؛ أم هلال بنت هلال الأسلمية؛ أم رومان زوجة أبي بكر؛ أم الطفيل امرأة أبي بن كعب.

- ومن أصحاب الواحد: سلمى بنت حمزة بن عبد المطلب؛ الثقفية؛ الصميتة؛ أم الصهباء؛ أم سعد؛ أم إسحاق الغنوية؛ سائبة مولاة رسول الله ﷺ؛

كلثوم؛ كبشة؛ خــولة بنت الصــامت؛ أم نصر المحاربية؛ ندبة؛ حبيبة بنــت أبي سفيان؛ عزة بنت خابل؛ طعمة بنت جزء؛ قيلة أخرى؛ أم عامر؛ رفيقــة؛ بنت حمزة بن أبي طالب أخرى؛ خالدة بنت أنس؛ بقيرة امرأة القعقاع؛ جمــرة بنت عبد الله اليربوعية؛ جميلة بنت أبي بن سلول؛ خديجة أم المؤمنين؛ أم كبشة القضاعية؛ الشموس بنت النعمان وهي أم ورقة الأنصارية؛ سراء بنت نبــهان؛ بروع بنت واشق؛ أم سنبلة؛ بريرة مولاة عائشة أم المؤمنين؛ خيرة امرأة كعب بن مالك؛ أم جميلة؛ أم سليمان بنت حكيم؛ أم مالك؛ أم أنس؛ حمنــة بنــت جحش؛ أم هانئ الأنصارية؛ أم الحجاج سرية أسامة؛ أم خالد بنت الأســود؛ سلمى أم رافع مولاة رسول الله ﷺ؛ أم مالك البهزية؛ سلامة بنت معقل؛ ليلى بنت قانف الثقفية؛ أم حميد الأنصارية امرأة أبي حميد الساعدي؛ قتيلــة بنــت صيفي الجعفية؛ أم حبيبة بنت جحش؛ حبيبة بنت شريق؛ خولة بنــت ثعلبــة؛ سعدى بنت عوف؛ أم عامر بنت يزيد بن سكن؛ كبيشة بنت ثابت؛ أم كلثوم بنت أبي سلمة؛ أم مسلم الأشجعية؛ يسيرة أم ياسر؛ أم أيمن حاضنة النبي ﷺ؛ حبة بنت خالد؛ حواء؛ خولى؛ أم منيب؛ أم نضر، رضي الله عنهن جميعاً.

- عدد الصحابيات الراويات وحجم رواياتهن في الكتب الستة:[1]

لقد بلغ إجمالي الصحابيات الراويات في الكتب الستة جميعها سواء مــن روين عن النبي ﷺ مباشرة أو من روين عن أحد من الصحابة ١١٥ صــحابية

---

(١) دور المرأة في خدمة الحديث، بتصرف من ص ١٤٢-١٤٨. اعتمدت الباحثة في بيــان أعداد الراويات على «تحفة الأشراف» للمزي، و«تقريب التهذيب» لابن حجر مع «تهذيب الكمال» للمزي.

ثابتة الصحبة. وهناك من ذكر ١١٢ مسنداً لهن. ولقد جاءت هذه الروايات متفرقة كما يلي:

- روى البخاري عن ٣١ صحابية في جامعه الصحيح.
- روى مسلم عن ٣٦ صحابية في جامعه الصحيح.
- روى أبو داوود عن ٧٥ صحابية في سننه.
- روى الترمذي عن ٤٦ صحابية في سننه (الجامع).
- روى النسائي عن ٦٥ صحابية في سننه (المجتبى).
- روى ابن ماجه عن ٦٠ صحابية في سننه.

أما حجم رواية النساء في الكتب الستة فهو ٢٧٦٤ رواية. وحجم روايات الصحابيات في الكتب الستة هو ٢٥٣٩ حديثاً. ويبدو أن معظم الروايات عند الصحابيات هي لأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، حيث تروي في مجموع الكتب الستة فقط ٢٠٨١ حديثاً. ويبلغ عدد روايات أم المؤمنين عائشة كلها بلغ ٢٤٠٥ حديثاً. وتشير الباحثة آمال قرداش[1] أننا إذا حذفنا روايات عائشة من الكتب الستة فيبقى عدد ٤٥٨ حديثاً ترويه بقية الصحابيات، وذلك يظهر لنا اختلالاً في توازن حجم الرواية حيث تتكاثف في

---

(١) آمال قرداش، دور المرأة في خدمة الحديث، ص ١٤٦. اعتمدت الباحثة في إحصاء الأحاديث على كتاب تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للمزي، ورجعت إلى كتاب تهذيب الكمال في معرفة الرجال للمزي، والتقريب لابن حجر. وقد أشارت الكاتبة أنها لا تدعي أن هذا هو الحصر الكافي لعدد الاستيعاب الكامل في هذا الإحصاء لوجود أخطاء كثيرة في النسخ التي توفرت لديها.

مدة قصيرة والمتمثلة في عصر الصحابة لتضمحل في القرون اللاحقة. وقد لاحظت أن الـ ٢٠٨١ حديثاً التي روتها عائشة، رضي الله عنها، لم ترو منها تلميذات عائشة الأربع والثلاثون سوى ١٤٦ حديثاً تقريباً، وهذا قدر ضئيل جداً فسرته الباحثة كما يلي:

أ- أن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، كانت فريدة عصرها، بل كل العصور. ولعل من المستبعد أن توجد من تضاهيها في علمها وحفظها.

ب- أن أصحاب الحديث ممن صنّفوا في هذا الفن لم يعتمدوا على كثير من روايات النساء؛ لأنها لم تصلهم عن طرق يرضونها.

ج- أن الحركة العلمية لدى النساء كانت محدودة جداً وغير مشجعة على نطاق واسع بين النساء خاصة في فترة وجود أكبر المحدثات عائشة، رضي الله عنها، وهذا ما ترجحه الباحثة لتفسير هذا التراجع والزهد في المساهمة في هذا العلم.

غير أنني أوافق الباحثة في زاوية وأختلف معها في أخرى. فحقاً أن عائشة، رضي الله عنها، كانت فريدة عصرها. ولكن هل يمكن أن نستبعد أن توجد من تضاهيها في علمها وحفظها؟ إذا قلنا بأن الأرحام لم تعد قادرة على إنجاب مثل هذا النوع من النساء نكون قد حكمنا على مثالية المجتمع النبوي المطلق مما يجعله لا يصلح أنموذجاً. وهذا ما جعلني أخصص لها مبحثاً خاصاً أبيِّن فيه أهمية الموقع النخبوي الذي كانت تحتله، والظروف التي أسهمت في تشكيل عقليتها وصناعتها بوصفها أنموذجاً نخبوياً لنساء المجتمع المسلم.

وأما ما رجحته الباحثة عن سبب التراجع والزهد في الإسهام في هذا العلم من أن الحركة العلمية لم تكن تشجع على نطاق واسع بين النساء خاصة في فترة وجود عائشة، رضي الله عنها، فهذا رأي يحتاج إلى تحديد أدق للمدة الزمنية التي تقصدها. فإذا تبنينا القول: إن عدد الرواة من طبقة الصحابة عموماً، رجالاً ونساء، كان ١٥٦٥، وعدد الراويات ٢٩٢ فإن النسبة أراها معقولة وخاصة إذا عرفنا أن الرواة لا ينتمون كلهم إلى هذه الحركة العلمية المنتجة الفعالة كما سيتضح في العنصر القادم.

- الخاصة من حملة العلم النبوي:

رأينا سابقاً أن العدد الإجمالي لعدد الرواة من الصحابيات حسب القوائم المذكورة هو ٢٩٢ راوية، ورأينا ترتيبهن حسب كثرة الرواية. ولا يمكن ربط التفاوت بين الصحابيات في كثرة الرواية بسبب تاريخ الوفاة، فقد يظن البعض أن عائشة، رضي الله عنها، روت أكثر لأنها عمرت أكثر حيث قيل إنها توفيت في عام ٥٧ وقيل ٥٨ هـ. لكن إذا رجعنا إلى تاريخ وفاة باقي أمهات المؤمنين مثلاً يبدو لنا غير ذلك، على الرغم من الاختلاف المتباين حول تاريخ وفاة بعضهن(١).

وأم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها، آخر من توفي من أمهات المؤمنين، وذلك عام ٥٩ أو ٦١ هـ، يعني بعد السيدة عائشة، رضي الله عنها؛ وأم سلمة لم ترو أكثر من (٣٧٨) حديثاً. وتوفيت أم المؤمنين جويرية

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص١٩-٢٤؛ سير أعلام النبلاء، ص١٣٥-٢٣٨، ص٢٦١-٢٦٨؛ الإصابة، ١٥٠/٨، ٧٢١/٧، ١٢٨/٨.

عام٥٠هـ وقيل ٥٦ هـ، أي قبل ٧ سنوات أو عامين من وفاة عائشة. وكما رأينا فإن جويرية لم ترو إلا (٧) أحاديث فقط. وهناك من أمهات المؤمنين من روت أكثر منها وتوفيت قبلها. فلقد توفيت أم المؤمنين حفصة عام ٤١ وقيل ٤٥ هـ وروت (٦٠) حديثاً. وتوفيت أم حبيبة عام ٤٤ هـ وروت (٦٥) حديثاً. وتوفيت أم المؤمنين زينب بنت جحش قبل جويرية بـ ٣٦ سنة وذلك عام ٢٠ هجري وروت أكثر منها حيث روت (١١) حديثاً، والفارق بين تاريخ وفاتهما ٣٦ سنة. ولقد توفيت أم المؤمنين سودة بنت زمعة عام ٥٤ هـ وروت (٥) أحاديث فقط فيما روت أم المؤمنين حفصة (٦٥) حديثاً وتوفيت قبلها بـ ١٠ سنوات، أي عام ٤٤ هجري.

ترجع الباحثة قرداش سبب كثرة رواية أم المؤمنين ميمونة مثلاً مقارنة بغيرها على الرغم من مكثها مع رسول الله ثلاثة سنوات إلى سببين[1]:

- تأخر وفاتها، رضي الله عنها (٥١هـ).
- كون أحد المكثرين من الرواية من محارمها وهو ابن عباس، الأمر الذي يسهل عليه الدخول عليها وسؤالها في القضايا المختلفة، إذ أن أمهات المؤمنين كانت لهن حرمة خاصة.

قد يكون السبب الثاني معقولاً أما السبب الأول فهناك من الأدلة ما ينفيه. في البداية لا يمكن الجزم بأن تاريخ وفاتها سنة ٥١هـ؛ لأن العلماء قد اختلفوا حول ذلك وثبت أنها توفيت قبل عائشة، رضي الله عنهن. وفرضاً لو

(١) دور المرأة في خدمة الحديث، ص٧٦.

قلنا: إنها توفيت سنة ٥١هـ فإن أم المؤمنين سودة بنت زمعة التي توفيت سنة ٥٤هـ كما رأينا وهي أول زوجة تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة خديجة قد روت (٥) أحاديث فقط. وأم المؤمنين جويرية التي توفيت سنة ٥٠هـ أو ٥٦هـ ولقد تزوج بها سنة ٦ للهجرة، أي سنة قبل زواجه بميمونة[1]. وقد تكون توفيت قبلها بسنة أو بعدها بخمسة سنوات. ولم ترو أم المؤمنين جويرية أكثر من ١٠ أحاديث. قيل إن النبي ﷺ تزوج بعائشة في تاريخ سنتين قبل الهجرة، وأم سلمة عام ٤هـ أي الفرق بينهما ٥ أو ٦ سنوات. ولقد توفيت أم سلمة بعد عائشة[2]. فلو كانت كثرة الرواية مرتبطة بمدى مكث الصحابية مع النبي ﷺ وتأخر وفاتها، لما كان هذا الفارق الشاسع بين مرويات عائشة التي روت (٢٤٠٥ حديثاً) ومرويات أم سلمة التي روت (٣٧٨ حديثاً فقط).

وعلى هذا الأساس، نخلص إلى أن كثرة الرواية لم ترتبط بطول حياة الصحابيات، وإنما هناك متغيرات أخرى على رأسها القدرات الفردية، إلى جانب الظروف التي أحاطت بكل راوية.

ولم ترتبط كثرة الرواية بأمهات المؤمنين فقط، أو أقارب الخلفاء الأربعة فقط، فمن الصحابيات من روت أكثر من بعض أمهات المؤمنين. فأسماء بنت يزيد بن السكن ليست لها صلة قرابة بالرسول ﷺ، ولا بالخلفاء الأربعة، وتعتبر

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص٢٢-٢٤.
(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٢٠-٢١.

ثالث راوية بعد أم المؤمنين عائشة وأم سلمة حيث روت (٨١) حديثاً. والغريب في أمرها أن أحاديثها ليست في كتب الصحاح. ويبدو أن رواياتها لم تصل المحدثين عن طرق يرضونها. وسنتعرض لها بشيء من التفصيل فيما بعد. وأم عطية الأنصارية روت (٤٠) حديثاً، وفاطمة بنت قيس القرشية الفهرية روت (٣٤) حديثاً. وروت خولة بنت حكيم (١٥) حديثاً، وأم سليم أم أنس خادم رسول الله ﷺ روت (١٤) حديثاً. وروت الشفاء (١٢) حديثاً، وكلهنّ ليست لهن صلة قرابة بالرسول ﷺ ولا بالخلفاء الأربعة، وقد روين أكثر من أمهات المؤمنين زينب، وصفية، وجويرية، وسودة، رضي الله عنهن جميعاً. وإن كانت بعض الراويات لهن صلة قرابة ببعض الخلفاء مثل أسماء بنت أبي بكر التي روت (٥٨) حديثاً، وأم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب التي روت (٦٠) حديثاً، غير أن عثمان، رضي الله عنه، لم تروِ من نسائه سوى فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، ولم يذكر ابن القيم عدد مروياتها. وقد تكون امرأته الأخرى أم ولد هي الأخرى من بين من ذكرهن ابن القيم أيضاً دون ذكر عدد مروياتها.

هذا، والمسألة التي تهمنا أكثر هي أن الرواة الصحابة لم يكونوا صنفاً واحداً، فمنهم أعلام لحملة الآثار النبوية، ومنهم من كان يرجع إلى اجتهاداتهم في التوثيق والتضعيف والتصحيح والتزييف.. فلقد كانت نخبة من الصحابة والصحابيات اشتهروا بتخصصهم في مجال معين. ولم يكن هذا الأمر يخفى على الصحابة أنفسهم فأبو بكر انتقى من يتولى جمع القرآن وتدوينه، لم يكلف أياً كان، فلقد انتدب لتحقيق ذلك «رجلاً من خيرة رجالات الصحابة، هو زيد بن ثابت،

رضي الله عنه؛ لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال. إذ كان من حفاظ القرآن، ومن كتاب الوحي لرسول الله، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته. وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله وشدة ورعه وعظم أمانته وكمال خلقه واستقامة دينه»[1].

لقد كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقول عندما خطبهم بالجابية «من أراد القرآن فليأت أُبياً، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيداً، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذاً، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً»[2]. لذلك نجد أن المحدثين قد اقتصروا عند ذكر طبقات المحدثين من الصحابة على فئة معينة دون الأخرى. وهذا مايبدو واضحاً عند الذهبي مثلاً في كتابه «المعين في طبقات المحدثين»[3]، يذكر الذهبي في المقدمة «أسماء أعلام حملة الآثار النبوية تبصر الطالب النبيه وتذكر المحدث المفيد بمن يقبح بالطلبة أن يجهلوهم. وليس هذا كتاب بالمستوعب للكبار، بل لمن سار ذكره في الأقطار والأعصار».

وختم ذكر آخر صحابية من قائمة الطبقة الأولى وهي طبقة الصحابة بقوله: «فهؤلاء مشاهير الصحابة ونقاوتهم» فذكر ١٥٣

---

(١) محمد عبدالعظيم، الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م) ١/١٧٦.

(٢) الإمام عبد الله شمس الدين، الذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، تذكرة الحفاظ (مكة: دار الفكر العربي، ١٣٧٤هـ) ١/٢٠.

(٣) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله، الذهبي (٦٧٣هـ/٧٤٨هـ)، المعين في طبقات المحدثين، تحقيق الدكتور همام عبد الرحيم سعيد، ط١ (عمان-الأردن: دار الفرقان، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م) ص١٧-٣١.

صحابياً و٢٧ صحابية. ويهمنا ذكر الصحابيات في هذا الكتاب. إذ من ٢٩٢ راوية نرى أن الذهبي قد انتقى ٢٧ صحابية فقط، هنّ في نظره من مشاهير الصحابة ونقاوتهم. وقد ذكرهم وفق الترتيب الألفبائي، وليس حسب كثرة الرواية:

أسماء بنت الصديق. أسماء بنت عميس الخثعمية. أسماء بنت يزيد الأشهلية بدمشق. جويرية بنت الحارث المصطلقية أم المؤمنين. حفصة بنت عمر العدوية أم المؤمنين. حمنة بنت جحش زوجة طلحة. خديجة بنت خويلد سيدة النساء. خولة المجادلة في زوجها أوس بن الصامت. الربيع بنت معوذ بن عفراء (تأخرت). رملة أم حبيبة بنت أبي سفيان الأموية أم المؤمنين. زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين. زينب بنت أبي سلمة المخزومية. زينب الثقفية زوجة ابن مسعود. سبيعة بنت الحارث الأسلمية زوجة سعد بن خولة الذي أدركه أجله بمكة. سودة بنت زمعة العامرية أم المؤمنين. صفية بنت حيي النضرية أم المؤمنين. ضباعة بنت عم النبي ﷺ الزبير زوجة المقداد. عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين. فاطمة ابنة النبي ﷺ أم أبيها. فاطمة بنت قيس الفهرية. لبابة بنت الحارث أم الفضل الهلالية. أختها أم المؤمنين ميمونة. أم عطية نسيبة الأنصارية. أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية أم المؤمنين. أم أيمن بركة حاضنة النبي ﷺ. أم حرام بنت ملحان النجارية الشهيدة. أختها أم سليم والدة أنس. وأخيراً أم هانىء ابنة عم النبي ﷺ.

ومن هذه القائمة انتقى أيضاً كما جاء في كتابه «تذكرة الحفاظ» قائمة «بأسماء معدلي حملة العلم النبوي ومن يرجع إلى اجتهادهم في التوثيق والتضعيف

والتصحيح والتزييف»[1]. ذكر ٢٢ صحابياً وذكر صحابية واحدة فقط وهي أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها. وانتقى أيضاً قائمة من الأسماء صنفهم ضمن نبلاء الصحابة الذين حديثهم في الصحاح فأورد ٧٨ صحابياً، و١٤ صحابية وهن: أسماء بنت أبي بكر الصديق. وأم المؤمنين جويرية بنت الحارث المصطلقية. وأم المؤمنين حفصة بنت عمر العدوية. وأم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان الأموية. وأم المؤمنين زينب بنت جحش الأسدية. وزينب بنت أبي سلمة المخزومية. وفاطمة ابنة رسول الله ﷺ الهاشمية. وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية. وأختها أم المؤمنين ميمونة. وأم عطية الأنصارية نسيبة. وأم المؤمنين أم سلمة هند المخزومية. وأم حرام بنت ملحان الأنصارية. وأختها أم سليم. وأخيراً أم هانئ أخت علي بن أبي طالب، رضي الله عنهن.

يبدو من ذكر الذهبي ٢٧ صحابية مقابل ١٥٣ صحابياً من المشاهير، وذكر ٧٨ صحابياً يقابله ١٤ صحابية توزيعاً معتدلاً لذلك لا أوافق رأي الباحثة قرداش الذي ترى فيه بأن الحركة العلمية لدى النساء كانت محدودة جداً وغير مشجعة على نطاق واسع بين النساء خاصة في فترة وجود أكبر المحدثات عائشة، رضي الله عنها.

أما جلال الدين عبد الرحمن السيوطي[2] فقد لخص طبقاته من «طبقات الحفاظ» للذهبي؛ فذكر معدلي حملة العلم النبوي ومن يرجع إلى اجتهادهم في التوثيق والترجيح والتضعيف والتصحيح فأورد مثل الذهبي ٢٢ صحابياً

(١) تذكرة الحفاظ، ١/١.

(٢) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، السيوطي (٨٤٩هـ/٩١١هـ) طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، ط٢ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

وأم المؤمنين عائشة فقط. ولم يذكر نبلاء الصحابة كما ذكر ذلك الذهبي في كتابه «تذكرة الحفاظ».

أما من اختص في الفقه من القائمة نفسها فنجد أن النسائي[1] قد ذكر عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وعائشة ضمن فقهاء الأمصار من أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم من أهل المدينة.

وقد اعتبر الشيرازي[2] أن الذي اشتهر منهم بالفتاوى والأحكام وتكلم في الحلال والحرام جماعة مخصوصة فمنهم (١٣) صحابياً، وصحابية واحدة هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. وممن أخذ منه الفقه من الصحابة، رضي الله عنهم، (٧)، وممن نقل عنهم الفقه (٤٤) صحابياً و(٧) صحابيات هن كما قال: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وحفصة بنت عمر، وأم سلمة، وأم حبيبة، وأسماء بنت أبي بكر، وأم الفضل بنت الحارث، وأم هانئ بنت أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين.

وأورد ابن حبان (ت٣٥٤هـ) أسماء فقهاء الأقطار دون الضعفاء والمتروكين، وأضداد العدول من المجروحين»[3]، فذكر ٤١٨ صحابياً موزعين بالضبط كالآتي:

---

(١) أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن، النسائي (٢١٥هـ/٣٠٣هـ)، تسمية فقهاء الأمصار من أصحاب رسول الله ومن بعدهم، تحقيق محمود إبراهيم زايد، ط١ (حلب: دار الوعي، ١٣٦٩هـ).

(٢) إبراهيم بن علي بن يوسف أبو إسحاق الشيرازي (٣٩٣هـ/٤٧٦هـ)، طبقات الفقهاء، تحقيق: خليل الميس، (بيروت: دار القلم) ١-٤٤.

(٣) الإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البسيتي (٣٥٤هـ/٩٦٥م)، مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، ط١ (المنصورة: دار الوفاء، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ص١٩-١٠٢.

مشاهير الصحابة بالمدينة: ١٥٢؛ مشاهير الصحابة بمكة: ٦٢؛ مشاهير الصحابة بالبصرة: ٥١؛ مشاهير الصحابة بالكوفة: ٥٥؛ مشاهير الصحابة بالشام: ٥٥؛ مشاهير الصحابة بمصر: ٢٢؛ مشاهير الصحابة باليمن: ١٦؛ مشاهير الصحابة بخراسان: ٥.

ويبدو أنه لم يورد ذكراً لامرأة واحدة في هذه القائمة التي قمت بمراجعتها. كنت أتوقع على الأقل ذكر عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، التي تصنف ضمن كبار المحدثين والفقهاء، لكنه لم يذكرها أيضاً. فكيف يغيب ذكرها من ضمن مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، وهو في القرن الثالث الهجري؟ السؤال يبقى مطروحاً؛ لأن من سبقه من العلماء ومن جاؤوا بعده ذكروا الكثير من الأسماء النسائية وعلى رأسهن عائشة، رضي الله عنها، كما رأينا.

لقد أثبت المحدثون والفقهاء وجود نخبة من الصحابة مثلها الذهبي في (١٥٣) صحابياً و(٢٧) صحابية وهم مشاهير الصحابة ونقاوتهم. ومن هذه الفئة هناك من يمثل نخبة النخبة، وهم على فئتين: فئة كانت تمثل فيها من النساء عائشة، رضي الله عنها، فقط، يرجع إلى اجتهادها في مجال الحديث، في التوثيق والتضعيف والتصحيح والتزييف. واشتهرت في مجال الفقه بالفتاوى والأحكام وتكلمت في الحلال والحرام. والفئة الثانية هم نبلاء الصحابة الذين حديثهم في الصحاح فذكر (١٤) صحابية. ومن هؤلاء الـ (١٤) صحابية (٧) منهن نقل عنهن الفقه، كما ذكر الشيرازي. وإن دلت هذه القائمة على شيء فإنها تدل على أن الفقه أو فكر هذا المجتمع المصغر أسهم في إنتاجه الصحابة رجالاً ونساءً، جنباً إلى جنب.

والملاحظة التي نستخلصها من هذه القائمة أيضاً أن الأسماء المذكورة في أعلام حملة الآثار فيها تنوع. لم تشمل من لهن صلة قرابة بالرسول ﷺ فقط أو الخلفاء الأربعة. غير أن هناك أسماء لامعة أخرى لم ترد في هذه القائمة من بينهن الشفاء على الرغم من أنها روت ١٢حديثاً هذا بغض النظر عن كفاءاتها الأخرى. أما في الفئة الثالثة، أي الذين حديثهم في الصحاح، فإلى جانب بعض أخوات أمهات المؤمنين، ثلاثة منهن فقط ليست لهن صلة قرابة بالنبي ﷺ: أم عطية، وأم حرام، وأختها أم سليم. أما من نقل عنهن الفقه كلهن لهن صلة قرابة بالرسول ﷺ. ويبدو أن أحد الأسباب الرئيسة لهذا الاختزال المتدرج للعناصر النخبوية هو التدوين التلقائي للحديث؛ لأن تتبع رواية الحديث مخافة ضياعه كان الهم الأساسي من التدوين. أي كان أمر التدوين على رأس الأولويات. وهذا ما جعلني أنتقي بعض الأسماء، بعضها مذكور في قائمة المحدثين ولم يذكر في قائمة الفقهاء. فدورهن لم يكن محصوراً في الرواية. بينما تثبت سيرهن أنهن كان لهن موقع مهم في الوسط النخبوي. وبعضها ذكر في القائمتين. وبعضها ذكر في قائمة حملة علم النبي العامة والتي تشمل (٢٩٢) راوية، كما رأينا.

وليس الهدف من هذا الانتقاء نقد المحدثين أو الفقهاء إنما هو محاولة إبراز أهمية موقع المرأة في الوسط النخبوي في المجتمع المسلم من خلال أنموذج المجتمع النبوي، وذلك بعرض بعض الشخصيات التي لم يختلف المحدثون والفقهاء حول كونها من ضمن قائمة العناصر النخبوية. كما سوف أقوم بعرض عناصر أخرى كان لها موقع مهم في هذا الوسط ولها أهميتها في صنع القرار في المجتمع النبوي و لم تلق العناية الكافية في التدوين لسيرتها الذاتية وإسهاماتها الفكرية.

المطلب الثاني: موقع نماذج من الصحابيات في الوسط النخبوي

تمهيد:

لقد أُرسل نبينا محمد ﷺ رحمة للعالمين. وإن المتأمل في القصص التي أخبرنا عنها القرآن الكريم، يلاحظ بوضوح أنه ما من نبي أرسل إلا وقد وجد معارضة صارخة من ملأ القوم، وهم عادة النخبة الحاكمة وحاشيتها التي تتشكل من نخب أخرى موالية لها مثل السحرة، والعرافين، ونبلاء القوم من الشعراء، والأغنياء.

لقد كانت هذه النخب ترى أن قدوم أي نبي فيه خطر يهدد مصالحها الشخصية، ولذا تعمل على محاربته والتصدي له بكل ما تملكه من قوة. بينما كانت العامة هي المستفيد الأول من دعوة الرسل، تتولى هذه الدعوة تغيير النخبة الفاسدة بالنخبة الصالحة التي تكون في خدمة العامة. وهذا ما وجد عليه نبينا محمد ﷺ مجتمعه الذي أرسل إليه. ذلك المجتمع الذي كان محكوماً بعادات وتقاليد وأعراف فاسدة، تسيره النخبة الحاكمة وحاشيتها من سحرة وشعراء، جعلتها تلك المعتقدات التي زينتها لهم الشياطين تنصب نفسها آلهة تستعبد الناس بها. لذلك جاء الإسلام يحرر العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ولقد كان للمرأة في العصر الجاهلي حضور في الوسط النخبوي، كما سيأتي، غير أنها لم يكن لها موقع إيجابي مؤثر في وسط العامة، باعتبار أن النخبة في ذاتها كان دورها سلبياً على العامة؛ لأنها كانت موالية للفئة الحاكمة،

بدليل أن العامة من الرجال والنساء كانوا يعيشون حياة القهر والاستعباد. فلقد كان بعض الناس يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويئدون بناقم خشية العار[1]. لقد أُرسل النبي ﷺ والفساد قد مس جميع جوانب الحياة، باستثناء ما بقي من مكارم الأخلاق والتي جاء ليتممها، فتولى بنفسه بناء مجتمع أنموذجي ليكون نبراساً للعالمين، فأحدث نقلة نوعية في الوسط النخبوي، فأشرف على تربية عناصره رجالاً ونساء، ليتولوا قيادة وتوجيه المجتمع بعده. لقد تكفل النبي ﷺ بتصحيح مسار الحركة الفكرية لتلك النخبة حتى تكون نعمة للمجتمع، وليس نقمة عليه عندما تؤدي الدور الفعال الذي خلقت لأجله.

إن وجود العنصر النسوي في الوسط النخبوي لم يكن بدعاً من الرسول ﷺ كما أسلفت، بل كان موجوداً في العصر الجاهلي قبل الإسلام بدليل ما روي عن السيدة عائشة، رضي الله عنها، قالت: بلغ رسول الله ﷺ

---

(١) انظر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير:٨-٩). كما جاء في التفسير: «وكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار. وعن ابن عباس: كذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم، شركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم... وقال مجاهد: شركاؤهم شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة. وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات، إما ليردوهم فيهلكوهم، وإما ليلبسوا عليهم دينهم أي فيخلطوا عليهم دينهم ونحو ذلك. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقتادة: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل:٥٨-٥٩). وقد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق وهو الفقر، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تلف المال وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك وإنما كان هذا كله من تزيين الشياطين»، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٨١/٢،١٨٠.

أن امرأة من بني فزارة يقال لها: أم قرفة جهزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها وقالت: اذهبوا إلى المدينة فاقتلوا محمداً، فقال النبي ﷺ: «**اللهم أثكلها بولدها**»، وبعث إليهم زيد بن حارثة في بعث فالتقوا فقتل زيد بني فزارة وقتل أم قرفة وولدها فأقبل زيد حتى قدم المدينة»(١).

ومن بين هذه العناصر أيضاً هند بنت عتبة، التي اشتهر دورها وأثرها في غزوة أحد «قال ابن بري: هي هند بنت بياضة بن رباح بن طارق الإيادي، قالت يوم أحد تحض على الحرب:

نحن بنات طارق لا ننثني لوامق
نمشي على النمارق المسك في المفارق
والدر في المخانق إن تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

أي أن أبانا في الشرف والعلو كالنجم المضيء. وقيل أرادت القول: نحن بنات ذوات الشرف في الناس كأنه النجم في علو قدره»(٢).

وبعد أن أسلمت بقيت محافظة على مؤهلاتها كما يبدو في هذه الرواية، عن قتادة السدوسي قال: «...اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله على الإسلام.. فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء، واجتمع إليه نساء من نساء قريش، فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها ذلك، فلما دنون منه

(١) نصب الراية، كتاب الكراهية، ٤/٣٢٣.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، ١٠/٢١٨.

ليبايعنه قال رسول الله فيما بلغني: «**تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً**». فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرا ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه. قال: «**ولا تسرقن**». قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حلاً لي أم لا؟ فقال أبو سفيان، وكان شاهداً لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل. فقال رسول الله: «**وإنك لهند بنت عتبة؟**» فقالت: أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف عفا الله عنك. قال: «**ولا تزنين**»، قالت: يا رسول الله، هل تزني الحرة؟! قال: «**ولا تقتلن أولادكن**». قالت: قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم. فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب. قال: «**ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن**». قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل. قال: «**ولا تعصينني في معروف**». قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف»[(1)].

لم يلغ النبي، عليه الصلاة والسلام، موقع المرأة في الوسط النخبوي، بل على العكس تماماً، أقر وجوده وأهميته وصحح مساره، فاقتلع جذور المعتقدات والأعراف الفاسدة، واستبدلها بما أوحي إليه من ربه، كما قال عمر: «**وَاللَّه إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ...**»[(2)]. ولقد رأينا ثمار عناية النبي ﷺ بالمرأة في المبحث السابق من

(1) محمد بن جرير الطبري أبو جعفر (ت ٣١٠)، تاريخ الأمم والملوك، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ) ٢/١٦١.
(2) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن.

خلال أثر المرأة عموماً في رواية الحديث ونقل الفقه. غير أن المتتبع لسيرة الصحابيات في كتب التاريخ يجد أن الرسول ﷺ قد ركز عنايته أكثر، وأشرف على نُخبة من النساء، منهن من كن من بين أزواجه ومنهن من كن غير ذلك، باعتبارهن عناصر نخبوية، لها دورها الخاص في تحريك عجلة الحركة العلمية والتغيرية في المجتمع. تلك النماذج تثبت لنا أن مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية سنة سنها النبي ﷺ. وعلى رأس تلك المشاركة الإسهام في صنع الرأي العام الفكري بأنواعه، سواء السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي. وهذا ما يدل على أهمية وضرورة وجودهن في الوسط النخبوي، وأن غياب هذه السنة في المجتمع يترتب عنها نتائج مضرة به.

لقد قام الرسول ﷺ بتوفير جوٍّ من العناية الخاصة لبعض الصحابيات. وكان في مقدمتهن عائشة، رضي الله عنها، والتي خصصتُ لها مبحثاً خاصاً مفصلاً. فلقد كان يشجع الصحابيات اللواتي كانت لديهن مؤهلات فطرية، فيشجع روح السؤال والبحث عن الحقيقة في نفوسهن، ويشجع من كانت تعرف الكتابة على أن تعلم غيرها، ويثني على الجرأة التي تميزت بعضهن بها. وكان من عادته زيارة بعض النساء الفضليات يتفقد أحوالهن، وقد يقيّل عند بعضهن، كما سنرى في بعض الروايات، فكانت فرصة لإدلائه ببعض توجيهاته لشد عزمهن على القيام بدورهن تجاه أنفسهن وتجاه المجتمع، وغير ذلك مما سنراه من خلال استعراض سيَر بعض الصحابيات اللاتي انتقيتها. وقبل الخوض في سيرة هذه النماذج النسائية تجدر الإشارة إلى الملحوظات التي

توصلت إليها واستقيتها من المصادر والمراجع، التي تناولت سيرة الصحابيات اللاتي اخترتهن(١)، وهي كالآتي:

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢؛ ابن حنبل، أحمد أبو عبد الله الشيباني (ت٢٤١)، فضائل الصحابة، تحقيق: الدكتور وصي الله محمد عباس، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م)؛ أبو بكر، أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني (ت ٢٨٧)، الآحاد والمثاني، تحقيق د: باسم فيصل أحمد الجوابرة، ط١ (الرياض: دار الراية، ١٤١١هـ-١٩٩١م). الذهبي، سير أعلام النبلاء. ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة؛ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، (ت٤٦٣هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب؛ علي بن برهان الدين الحلبي (ت١٠٤٤هـ)، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ)؛ ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الجزريّ (ت٦٣٠هـ)؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)؛ ابن سعد (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى (دمشق: دار بيروت للطباعة والنشر، د.ت)؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر أبو الفضل (٨٣٩هـ-٩١١هـ)، تنوير الحوالك (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)؛ رؤوف المناوي، فيض القدير، ط١ (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٦هـ)؛ ابن الجوزي (ت٤٩٧هـ)، صفة الصفوة. محمد شاهين، حياة الصحابيات (المنصورة: مكتبة الإيمان، ١٩٩٥م)؛ جمعة، أحمد خليل، نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث، ط١ (بيروت: اليمامة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)؛ جاسم، ليث سعود، الرعاية والخدمات الاجتماعية في عصر النبوة ودور المرأة المسلمة فيها، ط١ (ماليزيا: دار التجديد، /١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)؛ أمال قرداش، دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى ؛ كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت)؛ أبو شقة، عبد الحليم محمد، تحرير المرأة في عصر الرسالة؛ أحمد الجدع، صحابيات ومواقف، ط١ (الأردن: دار الضياء، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)؛ أحمد الجدع، ألقاب الصحابيات (عمّان: دار الضياء، ١٩٩٦م)؛ إدارة المكتبات بوزارة التربية في الكويت، أعلام الأنصار والأنصاريات (الكويت: إدارة المكتبات، ١٤٠٥هـ)؛ العك، خالد عبدالرحمن، موسوعة عظماء حول الرسول، ط١ (بيروت: دار النفائس، ١٤١٢ هـ/١٩٩١م) ج٣؛ بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)؛ حسونة، عرفان العشا الدمشقي، نساء في ظل رسول الله ﷺ، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)؛ أحمد حامد، قمم نسائية في الإسلام، ط١ (مصر: مدبولي الصغير، ١٩٩٧م)؛ سليم، محمد إبراهيم، نساء حول الرسول ﷺ (مصر الجديدة: مكتبة ابن سينا، ١٩٩١م)؛ محمد رفعت، شهيرات النساء العربيات والمسلمات (بيروت: مؤسسة عزالدين، ١٤١١هـ/١٩٩١م)؛ عبيد، منصور الرفاعي، أمهات المؤمنين وسيدات أخريات، ط١(مدينة نصر: الدار العربية للكتاب، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)؛ ابن عزت، بهاء الدين الهندي، كلمة حق في زوجات سيد المرسلين أفضل نساء العالمين، ط١ (دمشق: مكتبة دار الفرفور، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)؛ العامر، نجيب خالد، مواقف نسائية مشرقة (السعودية: دار الذخائر، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

- المراجع التي ألفت حول سيرة الصحابيات لم تستطع أن تضيف أكثر مما ورد في المصادر؛ لأنها تقيدت بالروايات الواردة فيها، وأمثلة ذلك كثيرة سبق ذكرها في الهامش وسيرد ذكرها لاحقاً عند الوقوف عند سيرة كل صحابية، وإن كان بعض المؤلفين تجاوز هذا الحد بدون أدلة علمية. منهم من قام بعرض الروايات باختصار بدون تحليل مثل كتاب «عظماء حول الرسول» الذي نجده مثلاً أورد تأويلاً خاطئاً في عن الشفاء، رضي الله عنها، من خلال حديث رقية النملة. ومنهم من رجع إلى الروايات بدون توثيق مثل كتاب «مواقف نسائية مشرّفة» و«صحابيات ومواقف» و«ألقاب الصحابيات». حيث قام مؤلف الكتابين الأخيرين بتركيب قصص صحابيات بدون أدنى توثيق، فنجده مثلاً عندما تحدث عن الشفاء ذكر ما جاء في الروايات دون توثيق لذلك. وقام بعضهم بالتوثيق والتحليل مثل كتاب «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والسنة».

- أعطت المصادر مساحة أكبر في التأليف لأمهات المؤمنين. أما باقي الصحابيات فلقد ارتبط ذكرهن بما روين من أحاديث عن رسول الله ﷺ.

- وحتى أمهات المؤمنين، ركزوا في التأليف عنهن خاصة في القضايا المتعلقة بزواجهن من رسول الله ﷺ. يعني جاء التأليف عنهن بسبب التأليف عن الرسول ﷺ. فمن رحمة الله أنهن ارتبطن برسول الله ﷺ وإلا لانقرضت

إسهاماتهن بوفاتهن. ومن رحمته أيضاً أن عددهن كان كثيراً. وارتبطت بحاجة المحدثين إلى رواياتهن عن النبي ﷺ.

- وبعض الصحابيات اللواتي كن سبباً في نزول بعض الآيات من القرآن الكريم لم تصلنا إسهاماتهن الفكرية والاجتماعية. على الرغم من ارتباطهن بقضايا مهمة، كما رأينا سابقاً.

- أسماء بارزة من الصحابيات عدت من ضمن فقهاء الصحابة، ووصفت بذوات العقول و لم يصلنا فقههن كما وصلنا فقه عمر، رضي الله عنه، وغيره.

- حظيت عائشة، رضي الله عنه، أكثر من غيرهن بالتأليف، وعلى الرغم من ذلك لم تصلنا إسهاماتها الفقهية بالحجم الذي تصفه المصادر؛ أقوالها متناثرة في كتب الفقه تحتاج إلى عملية جمع لرسم منهجها الفكري.

- القول: إن الصحابيات روين في القضايا الخاصة بالنساء فقط كلام غير صحيح، بدليل ما ورد من الروايات، كما سيأتي.

- وعليه، انتقيتُ بعض الأسماء بسبب المادة المتوفرة، وليس من باب التفضيل، وإنما على أساس الإسهامات التي وصلتنا عنهن في المصادر.

- أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن:

١ - أم المؤمنين أم سلمة[١]:

أم سلمة هي أم المؤمنين هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم بن يقظة بن مرة المخزومية، بنت عم خالد بن الوليد سيف الله، وبنت عم أبي جهل بن هشام، القرشية. وكان أبوها يلقب «زاد الركب»، وقيل: اسمه حذيفة وكان يلقب بزاد الراكب لأنه كان أحد الأجواد، فكان إذا سافر لم يحمل أحد معه من رفقته زاداً، بل هو كان يكفيهم. من المهاجرات الأوائل؛ كانت قبل النبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، الملقب بذي الهجرتين.

دخل بها النبي ﷺ في سنة أربع من الهجرة، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً. ولها أولاد صحابيون: عمر وسلمة وزينب. وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين، عمرت حتى بلغها مقتل الحسين الشهيد، فوجمت لذلك وغشي عليها، وحزنت عليه كثيراً، ولم تلبث بعده إلا يسيراً وانتقلت إلى

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/٨٦-٩٥، ٢١٧، ٣/٢٣٩؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/٢١٣؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٢/٤٠؛ ابن الأثير، البداية والنهاية، ٥/٢٩٩؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢/٢٠١-٢١١؛ ابن حجر، الإصابة، ٨/١٥٠ و١٥٢؛ كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ٥/٢٢١؛ العك، خالد عبد الرحمن، موسوعة عظماء حول الرسول، ٣/١٩٥٠؛ بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة، ص ٢٦٤؛ حسونة، عرفان العشا الدمشقي، نساء في ظل رسول الله، ص١٤٤؛ أحمد حامد، قمم نسائية في الإسلام، ص١٠٧؛ سليم، محمد إبراهيم، نساء حول الرسول، ص١٠٦؛ ابن عزت، بهاء الدين الهندي، كلمة حق في زوجات سيد المرسلين أفضل نساء العالمين، ص٤٣؛ أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ١/٢٢٨، ٢/١٤٧-١٥٠.

الرفيق الأعلى. عاشت نحواً من تسعين سنة. وقيل: أربعة وثمانين، وتوفيت سنة إحدى وستين. وقيل: تسعة وخمسين.

لقد كان لأم سلمة إسهام بارز في الحديث، حيث كانت تعد من فقهاء الصحابيات. وتعتبر هي ثاني راوية بعد عائشة. وقد بلغت مروياتها، رضي الله عنها، (٣٧٨) رواية. وروى عنها عدد من الصحابة، فقد روت عنها عائشة، وأبو سعيد الخدري، وعمر بن أبي سلمة، وأنس بن مالك، وبريدة بن الحصين الأسلمي، وسليمان بن بريدة، وأبو رافع، وابن عباس. كما روى عنها أيضاً سعيد بن المسيب وشقيق بن سلمة والأسود بن يزيد والشعبي وأبو صالح السمان ومجاهد ونافع بن جبير بن مطعم ونافع مولاها ونافع مولى ابن عمر وعطاء بن أبي رباح وشهر بن حوشب وابن أبي مليكة وغيرهم.

وقد روت[(١)] أم سلمة في مختلف الأبواب. ومعظم مروياتها في الأحكام وما اختص بالعبادات أساساً:

ففي أبواب الطهارة: روت عن الغسل وآدابه؛ كما روت عن طريقة غسل المرأة التي تشد ضفر رأسها؛ وعن طهارة الثوب؛ واغتسال الزوجين من إناء واحد؛ وعن غسل المرأة التي تحتلم؛ وروت أن الرسول ﷺ كان ينام جُنباً؛ وما يتعلق بالاستحاضة؛ واستدركت على أبي هريرة في الوضوء مما مسته النار.. وغيرها.

وفي أبواب الصلاة: أخبرت عن رسول الله ﷺ أنه كان أشد تعجيلاً للظهر من القوم الذين عاصرهم، وأنهم هم أشد تعجيلاً للعصر منه؛ وعن صلاة

---

(١) انظر: كتب الصحاح والسنن.

الوتر؛ وإذا حضر العَشاء والصلاة في وقت واحد يبدأ بالعَشاء؛ وصلاة رسول الله ﷺ، وقراءته بالليل؛ وعدم النفخ في التراب عند السجود؛ وصلاة النساء في البيت؛ وصلاة نافلة الظهر البعدية وجواز استدراكها بعد صلاة العصر؛ وأنه ﷺ كان يجلس في صلاة النوافل وليست المكتوبة؛ وأخبرت أن النساء كن يخرجن من المسجد قبل الرجال.

وفي أبواب الصوم: صيام ثلاثة أيام من كل شهر؛ يصبح وهو جُنُب ثم يصوم؛ كان يقبّلها وهو صائم؛ صوم شعبان؛ إذا دخلت العشر فأراد رجل أن يضحّي.

وروت أيضاً في الجنائز: عدة المتوفي عنها زوجها وهي حامل؛ النهي عن النياحة على الميت؛ في الدعاء الذي يدعى به للميت؛ عدة المتوفي عنها زوجها؛ نهي النبي ﷺ أن يبنى على القبر أو يجصص؛ عدم تزين المعتدة المتوفى عنها زوجها.

وفي اللباس: روت عما يتعلق بالحجاب؛ ما قاله عن من تنزع ثيابها في غير بيتها؛ وعلى أن القميص كان أحب ثوب إلى رسول الله ﷺ؛ وعن أمر الرسول نساءه يحتجبن من المُكاتِب.

وفي الحج: اشتكت المرض فأمرها بالطواف وهي راكبة؛ أمرها أن توافي معه صلاة الصبح يوم النحر في مكة؛ الإحرام من بيت المقدس؛ عن النفساء أثناء الحج؛ ما يخص الحج.

وفي خير الأعمال: خير الأعمال عند رسول الله ﷺ أدومها وإن قلّ.

وفي الزواج: عدم جواز الجمع بين الأختين في الزواج، التساوي في توزيع الأيام على الضرائر؛ إتيان الزوج زوجته أنّى شاء.

وفي النفقة: روت جواز إنفاق المرأة على أبنائها من زوجها المتوفى عنها وهي تحت عصمة زوج آخر.

وعن وصية النبي ﷺ: روت عن آخر وصية للرسول ﷺ.

وفي القضاء: عن بشرية النبي ﷺ في القضاء إذ لا يقول المتخاصمان إلا الحق حتى لا يخطئ القاضي في حق أحدهما لأنه بشر يبني على ما يسمع، والأمر نفسه ينطبق على أي قاضي.

وفي موضوع الأكل: المنهي عنه من الأكل؛ النهي عن الشرب في إناء من فضة.

وعن أهل البيت: فضل أهل البيت؛ دعاء النبي ﷺ لأهل بيته؛ فضل أهل البيت وعدم سبهم؛ أن علي كان أقرب الناس به عهداً.

وفي الفتن ومسائل أخرى متفرقة: روت عن المكرهين في الجيش الذي يُخسف بهم بأنهم يبعثون على نياتهم؛ أخبرها النبي ﷺ عن العذاب الذي سيصيب أمته إذا انتشرت فيها المعاصي ولو كان فيها صالحون؛ إخبار النبي، عليه الصلاة والسلام، عماراً بأنه تقتله الفئة الباغية. وروت أيضاً ما قاله عن ابن سمية في يوم الخندق؛ وأن من الصحابة من لا يراه يوم القيامة. كما روت الدعاء الذي دعاه النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف؛ وعن أكبر نسبة من المال رأتها أتى بها النبي ﷺ. وهي التي روت الرواية الخاصة بالمساواة بين الجنسين «ما لنا لا نذكر كما يذكر الرجال»؛ وكذلك قبول الرسول ﷺ الهدايا. كما أنها هي التي أخبرتنا أن سر الرسول ﷺ كعلانيته؛ وأيضاً عما يقال عند المصيبة؛ وكذلك قول النبي ﷺ: «**إن الشهر تسعة وعشرون يوماً**». وأيضاً

هي التي حكت القصة التي أضحكت النبي ﷺ وأصحابه حولاً وهي أنه نهى عن كل مسكرٍ ومفتر؛ ونهيه عن حكم استخدام الذهب.

ومن هذا، نخلص إلى القول: إن مرويات أم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها، تمس القضايا المتعلقة بالمرأة، وبعض القضايا التي تهم الرجال، وبعض القضايا التي تهم الناس عامة.

- موقع أم سلمة في الوسط النخبوي:

يتجلى موقع أم سلمة، رضي الله عنها، من خلال الروايات التي وصلتنا عن طريق المصادر. ولقد حظيت ببعض العناية في التأليف لكونها ثاني راوية للحديث بعد عائشة، رضي الله عنها، من حيث الكثرة. وتعد شخصية أم سلمة نموذجاً نخبوياً متميزاً إلى جانب نموذج عائشة، فلقد كانت وراء سبب نزول بعض الآيات التي تتناول مواضيع لا تزال تطرح إلى يومنا هذا. ويبدو من خلال بعض التفاسير[1]، وبعض الكتب التي تناولت دراسة أسباب نزول آيات القرآن أن هذه الآيات الثلاث وهي: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ

(١) انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٥/٤٦-٤٩؛ انظر أيضاً: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤/٥-٩؛ انظر أيضاً: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٥/١٦٢-١٦٥؛ وانظر أيضاً: السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٢/٢٦٦-٢٦٨؛ وانظر أيضاً: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط١ (بيروت: دار المعرفة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ١/٥٨٥-٥٨٨؛ وانظر أيضاً: الزحيلي، وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط١ (بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ٥/٤١-٤٦؛ وانظر أيضاً: الشيخ خالد عبد الرحمن العك، تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول (بيروت: دار المعرفة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ص٩٨؛ غازي عناية، أسباب النزول القرآني (بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ص١٦٠.

بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ (النساء:٣٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (الأحزاب:٣٥)، وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ (آل عمران:١٩٥)، نزلت في أم سلمة، رضي الله عنها، ويبقى هذا الاحتمال ظنياً ضعيفاً نتيجة لعدم توفر الروايات الصحيحة لذاتها، كما سيتضح:

فأما بالنسبة للآية الأولى فلقد اتفق المفسرون حول معناها أو الحكم الذي يستخرج منها، وهو النهي عن الحسد، واختلفوا حول ما إذا كان التمني غبطة وليس حسداً، يجوز أم لا[1]. واختلف المفسرون حول سبب نزول هذه الآية. نتيجةً لكثرة الروايات المتباينة، ولعدم ورود روايات صحيحة لذاتها لحسم

---

(١) انظر التفاسير السابقة، وانظر: البيضاوي، تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ١/١٨٠.

هذه المسألة بترجيحها على باقي الروايات[1]. ويمكننا تصنيف الروايات الـتي تحدثت عن سبب نـزولها إلى ثلاثة اتجاهات:

١- اتجاه يسرد الروايات التي تفيد بأنها نـزلت في النساء -بعد نـزول الآيات الخاصة بتقسيم الميراث والتي تفيد بأن للذكر مثل حظ الأنثيين- تمـنين بلوغ «منازل الرجال، وأن يكون لهم ما لهم، فنهى الله عباده عن الأماني الباطلة، وأمرهم أن يسألوه من فضله، إذ كانت الأماني تورث أهلها الحسد والبغي بغير الحق»[2]. وفي هذا الاتجاه نجد ثلاث روايات:

- ما روي عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، تغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنـزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (النساء:٣٢)، ولقد رويت هذه الرواية عن مجاهد بطرق متعددة وبألفاظ مختلفة[3].

---

(١) لقد انتقى وهبة الزحيلي، في تفسيره، ٤٢/٥، عند ذكره لسبب نـزول هذه الآية روايتين دون ذكر مبرر علمي لهذا الانتقاء. إذ يذكر ما يلي: «روى الترمذي والحاكم عن أم سلمة أنها قالت: «...»؛ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «...»، هذا مايوهم القارئ أن سبب نـزول هذه الآية راجع لاحتمالين فقط. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فالترمذي علق على الحديث بأنه مرسل. وللحاكم روايتان إحداهن صحيحة بشرط أن يكون مجاهد سمع من أم سلمة، والثانية جزم فيها بروايته. وقد علّق على جزمه بأنه جزم بغير دليل.

(٢) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٤٦/٥.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٣٢٢/٦. والترمذي عن ابن عمير، في الجامع للترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة النساء (٣٠٢٢) وقال عنه: حديث مرسل ووافقه الذهبي. والحاكم من طريق قبيصة، في المستدرك، (٢، ص٣٠٥- ٣٠٦) وقال عنه: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، إن كان سمع مجاهد من أم سلمة.

– عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل، أفنحن في العمل هكذا، إن فعلت امرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾، فإنه عدل مني وأنا صنعته[1].

– وقال عبد الرزاق في تفسيره: أخبرنا معمر عن شيخ من أهل مكة قال: نـزلت هذه الآية في قول النساء: ليتنا الرجال فنجاهد كما يجاهدون ونغـزو في سبيل الله عز وجل. وروي عن مجاهد نحو ذلك[2].

٢- واتجاه ثانٍ يرى أنها نـزلت في الرجال وفي النساء بعد نـزول الآية السابقة والخاصة بالميراث، حيث طالب الرجال الزيادة في الأجر على النساء، وطالبت النساء المساواة. كما جـاء في الرواية بطرق متعددة وبألفاظ مختلفة كما روي عن السدي في الآية أن رجالاً قالوا: إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهمان، وقالت النساء: إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء، فإنا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا. فأبى الله ذلك، ولكن قال لهم: سلوني من فضلي. قـال لـيس بعرض الدنيا. وقد روي عن قتادة نحو ذلك[3].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٥٢٢٣/٣، وجعفر بن أبي المغيرة وثقه أحمد، وابن حبان، وقال ابن منده: «ليس بالقوي في سعيد بن جبير» وفي «التقريب»: «صدوق يهم».

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٤٧/٥ أورد ثلاث روايات عن مجاهد من طريق محمد بن عمرو، المثنى، وعن عكرمة ومجاهد من طريق القاسم.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٤٧/٥؛ السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٢٦٧/٢؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤٨٩/١؛ رشيد رضا، تفسير المنار، ٥٢/٥.

٣- واتجاه ثالث أن تكون نزلت في الرجل يتمنى النعم التي أنعمها الله على غيره من الرجال في أمور الدنيا. عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله فنهى اللّه عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله[1]. وأورد ابن كثير ما يلي: «وقال الحسن ومحمد ابن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا. وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح «لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ...»»[2].

خلاصة القول: إن سبب نزول هذه الآية قد يكون أحد هذه الاتجاهات. فلا يمكن الجزم بأنها نزلت في أم سلمة، رضي الله عنها، لكثرة الروايات المتباينة في المتن، وعدم ورود روايات صحيحة لذاتها؛ وإن حاول بعضهم أن يثبت نزولها فيها، فهذا راجع إلى تعدد طرق الروايات التي يقوي بعضها بعضاً. وهذا الذي جعل -كما يبدو- الحاكم يجزم في مستدركه بسماع مجاهد من أم سلمة فصحح الحديث. غير أنه لا يمكننا الجزم بصحة نسبة متن من المتون المتباينة، والتي تحمل في طيّاتها معاني مختلفة، فقد تكون أم سلمة، رضي الله عنها، سألت النبي ﷺ وهي تريد منافسة الرجال في الأجر، وهذا التساؤل لا يعبر عن رأي أم سلمة فقط، إنما يعبّر عن رأي أخواتها من النساء. وقد تكون سألته وهي تقصد المساواة؛ لأن الأمر استشكل عليها، وهذا الرأي يعضده نزول باقي الآية أي: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟

---

(١) أخرجه الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، من طريق المثنى، نحوه عن الحسن وعن عطاء، ٤٧/٥. السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٢٦٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧/٤.

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ (النساء:٣٢)، والآية التي جاءت مبينة للهدف من إعطاء الذكر مثل حظ الأنثيين: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ...﴾ (النساء:٣٤).

كما أورد القرطبي وغيره في تفسيره: «وقيل: سببها قول أم سلمة المتقدم. ووجه النظم أنهن تكلمن في تفضيل الرجال على النساء في الإرث، فنزلت ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾ الآية. ثم بين تعالى أن تفضيلهم عليهن في الإرث لما على الرجال من المهر والإنفاق. ثم فائدة تفضيلهم عائدة إليهن. ويقال: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير، فجعل لهم حق القيام عليهن لذلك. وقيل: للرجال زيادة قوة في النفس والطبع ما ليس للنساء؛ لأن طبع الرجال غلب عليه الحرارة واليبوسة، فيكون فيه قوة وشدة، وطبع النساء غلب عليه الرطوبة والبرودة، فيكون فيه معنى اللين والضعف، فجعل لهم حق القيام عليهن بذلك وبقوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾»[1].

وأما عن الآية الثانية، فلا يختلف وضعها كثيراً عن الأولى، حيث وردت في سبب نزولها روايات متباينة أيضاً، غير أنها تصب في اتجاهين اثنين:

١- الاتجاه الأول، وهو الغالب لتعدد طرق روايته وصحة أسانيدها، جاءت فيه روايات تفيد بأن النساء استفسرن من رسول الله ﷺ: لماذا لا تذكر

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٦٩/٥؛ الشوكاني، فتح القدير، ٥٨٦/١، يذكر الشوكاني أن هذه الآية جاءت «مشتملة على بيان العلة التي استحق بها الرجال الزيادة»؛ رشيد رضا، تفسير المنار، ٦٠/٥.

النساء في القرآن كما يذكر الرجال؟ فنزلت هذه الآية، رداً على هذا الاحتجاج، ولتثبت المعنى الحقيقي للمساواة بين الرجل والمرأة. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي على الطاعات.

ونجد أربع روايات في هذا الاتجاه:

تشير الرواية الأولى إلى أن هذه الآية نزلت في أم سلمة، رضي الله عنها. روى الإمام أحمد عن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شَيْبَةَ قَالَ سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا لَنَا لا نُذْكَرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يُذْكَرُ الرِّجَالُ؟ قَالَتْ: فَلَمْ يَرُعْنِي مِنْهُ يَوْمَئِذٍ إِلا وَنِدَاؤُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَتْ: وَأَنَا أُسَرِّحُ شَعْرِي، فَلَفَفْتُ شَعْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِ بَيْتِي، فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (الأحزاب:٣٥) إِلَى آخِرِ الآيَةِ [١].

---

(١) انظر: تخريج الرواية في: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١١/١٦٢. وهكذا رواه النسائي وابن جرير من طريق عبد الواحد بن زياد؛ وأخرجه الطبري ٢٢/١٠؛ والحاكم من حديث سفيان الثوري.

وتذكر الرواية الثانية أن هذه الآية نزلت في أم عمارة الأنصارية.

عَنْ أُمِّ عُمَارَةَ الأَنْصَارِيَّةِ أَنَّهَا أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: مَا أَرَى كُلَّ شَيْءٍ إِلا لِلرِّجَالِ، وَمَا أَرَى النِّسَاءَ يُذْكَرْنَ بِشَيْءٍ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية[1].

٢- أما الاتجاه الثاني فيفيد أن نساءً استفسرن عن سبب ذكر القرآن لنساء النبي، عليه الصلاة والسلام، وعدم ذكره لهن. ولقد وردت رواية واحدة في هذا الاتجاه.

- روي عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن: قد ذكركن الله تعالى في القرآن، ولم نذكر بشيء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[2].

وخلاصة القول: إن الاتجاه الأول هو الراجح في رأيي، نظراً لكثرة الروايات التي رويت فيه وبطرق متعددة؛ وإن لم يثبت صحتها، غير أن تعدد طرقها يقوّي بعضها بعضاً. والراجح أيضاً أنها نزلت في أم سلمة، رضي الله عنها، للسبب نفسه.

أما الآية الثالثة، فيبدو فيها اتجاه واحد حسب الروايات التي وردت في سبب نزولها، يفيد هذا الاتجاه أنها نزلت في أم سلمة، رضي الله عنها،

---

(١) انظر: الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى (ت٢٧٩)، سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي) وقال عنه: حديث حسن غريب، ج٥، ح رقم ٣٢١١؛ القرطبي، جامع أحكام القرآن، ١٨٥/١٤.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٩/٢٢.

تستفسر النبي ﷺ عن سبب عدم ذكر الله عز وجل النساء في الهجرة. ولقد وردت في هذا الاتجاه روايات هي كالآتي:

- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لا أَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥)[1].

- وأخرج ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة، رضي الله عنها، أنها قالت: آخر آية نزلت هذه الآية ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥)، وذلك أنها قالت: يا رسول الله، أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء؟ فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء:٣٢)، ونزلت﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(الأحزاب:٣٥)، ونزلت هذه الآية فهي آخر الثلاثة نزولاً وآخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة[2].

- عن أم سلمة، رضي الله عنها، قالت: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، لا أَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[3].

---

(١) أخرجه الترمذي، ٥/٢٣٧، ح٣٠٢٣؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه، ٢/٣٢٨، ح رقم ٣١٧٤.

(٢) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م) ١/٧١-٨٧.

(٣) أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج٢، حديث رقم ٣١٧٤، وقال عنه: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

- مثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم سلمة، رضي الله عنها، أنها قالت: يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾.

- وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت: قلت: يا رسول، الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء، فأنزلت: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ (الأحزاب:٣٥)، وأنزلت: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾[1].

خلاصة القول:

لا يوجد تشريع على وجه الأرض يصف المساواة بين الرجل والمرأة يعادل هذه الآيات التي أنزلها رب العباد على عباده. ودلت هذه الآيات على أهمية صوت المرأة، التي كانت سبباً في نزول آيات تشريعية تضمن حق المساواة، وأهمية وجودها عبر الزمن للحرص على هذا الكنز والسهر على متابعة تطبيقه كما أراده الله عز وجل؛ كما تبرز بوضوح دور المرأة النخبوي، فأم سلمة، رضي الله عنها، من بين أولئك النساء اللواتي تربين في مدرسة المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وكان لهن أثر واضح، كما سنرى لاحقاً.

(١) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ٨٧/١.

سؤال النساء:

لقد سألت أم سلمة، رضي الله عنها، النبي ﷺ وهي تريد منافسة الرجال في الأجر. وهذا التساؤل لا يعبر عن رأي أم سلمة فقط، وإنما يعبر عن رأي أخواتها من النساء. وقد تكون سألته وهي تقصد المساواة بين الجنسين، الرجل والمرأة، فنزل قرآن يتلى يقر بالسؤال، ففصل في المسائل التي سألت عنها، وبيّن عدله في توزيع الوظائف والثواب بين الذكر والأنثى. فبيَّن كما ذكر الدكتور ليث سعود جاسم أن «هذه التكاليف هي تكليف تخصيص لا تكليف تفضيل. فالجهاد والإنفاق على الزوجة والعصبات خاص بالرجل، وما خص به فهو الأفضل له والمناسب لطبيعته ودوره في النظام الاجتماعي الإسلامي، وما خصت به المرأة من التكليف فهو الأفضل لها، وفضلت به على الرجل..»[1]، وإثارة أم سلمة دليل إقرار القرآن والرسول ﷺ على شرعية السؤال من جهة، وعلى تشجيع هذا النوع من النساء على المضي قدماً في السؤال فيما يخص مصالحهم الدينية والدنيوية من جهة أخرى. وهذا دليل أيضاً على ضرورة وجود هذا العنصر من النساء، يسهر على مراقبة مدى تطبيق هذه المساواة العادلة كما أرادها الله عز وجل.

لقد تجلّى موقع أم سلمة، رضي الله عنها، في الوسط النخبوي من خلال اهتمامها بأمور المسلمين. فعن عبد الله بن رافع قال: كانت أم سلمة تحدث أنها سمعت النبي ﷺ يقول على المنبر وهى تمتشط: «أَيُّهَا النَّاسُ» فَقَالَتْ لِمَاشِطَتِهَا:

(١) جاسم، ليث سعود، الرعاية والخدمات الاجتماعية في عصر النبوة، ٨١.

لُفِّي رَأْسِي. قَالَتْ: فَقَالَتْ: فَدَيْتُكِ، إِنَّمَا يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ. قُلْتُ: وَيْحَكِ، أَوَلَسْنَا مِنَ النَّاسِ؟ فَلَفَّتْ رَأْسَهَا وَقَامَتْ فِي حُجْرَتِهَا، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، بَيْنَمَا أَنَا عَلَى الْحَوْضِ جِيءَ بِكُمْ زُمَرًا فَتَفَرَّقَتْ بِكُمُ الطُّرُقُ فَنَادَيْتُكُمْ: أَلاَ هَلُمُّوا إِلَى الطَّرِيقِ، فَنَادَانِي مُنَادٍ مِنْ بَعْدِي فَقَالَ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَقُلْتُ: أَلاَ سُحْقاً، أَلاَ سُحْقاً**»(١). لم تكن ترى أم سلمة أن الاهتمام بأمور المسلمين هو من خصائص الرجال فقط أو نخبة من الناس، بل قالت لماشطتها: أهما – الماشطة وأم سلمة – من الناس. ولم تقل لها: أولستُ أنا أم المؤمنين، وإذا أردنا أن نقارن هذا الأمر بواقعنا المعاصر تجلى بوضوح في أهمية متابعة أخبار المسلمين عن طريق الإعلام والمساجد.

ويظهر اهتمامها بأمور المسلمين أيضاً حينما استفسرت من رسول الله ﷺ عن مصير فئة من المسلمين كانت تراها ستخسف ظلماً، فردّ عليها أنه لا ضرر على المكره. فعن الحسن عن أمه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ استيقظ من منامه وهو يسترجع، قالت: قلت يا رسول الله، ما شأنك، قال: **طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُخْسَفُ بِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ إِلَى رَجُلٍ، فَيَأْتِي مَكَّةَ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَيُخْسَفُ بِهِمْ، مَصْرَعُهُمْ وَاحِدٌ، وَمَصَادِرُهُمْ شَتَّى**. قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَكُونُ مَصْرَعُهُمْ وَاحِدًا وَمَصَادِرُهُمْ شَتَّى؟ قَالَ: **إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُكْرَهُ فَيَجِيءُ مُكْرَهًا**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد، كتاب باقي مسند الأنصار.

(٢) أخرجه أحمد، كتاب باقي مسند الأنصار.

لقد تجلى موقعها أيضاً من خلال اهتمامها بأمور السياسة في مواقف عديدة، منها نصيحتها للمنتَخبين، حيث دعت أم سلمة - كما جاء في رواية- أهل العراق على عدم الخروج عن صف الوحدة؛ لأن الرسول ﷺ بريء ممن نقض البيعة وخرج عن جماعة المسلمين. وروي أن أم سلمة كتبت إلى أهل العراق: «أن الله عز وجل برئ وبرئ رسول الله ممن بايع وفارق، فلا تفارقوا، والسلام»[1].

ولأم سلمة، رضي الله عنها، موقف سياسي آخر تمثل في معارضة الأمراء دون القتال مالم يجهروا بالكفر. فقد روت في مسألة سياسية خطيرة تتوقف عليها أرواح الناس، وتقنن لنظام المعارضة الخطير في الدولة. وروايتها في مثل هذه المسائل تدل على اهتمامها بها أيضاً، وهذا ما يؤكد لنا اتساع دائرة اختصاصها. ورواية مثل هذه تسهم في صناعة القرار السياسي على أعلى مستوى. عن ضبة بن محصن عن أم سلمة قالت: أن رسول الله ﷺ قال: **«سَتَكُونُ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قَالُوا: أَفَلاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: (لاَ مَا صَلَّوْا)»**[2]. لقد نقلت أم سلمة رواية تحفظ أمن البلد واستقراره السياسي.

كما كان لأم سلمة موقف سياسي صريح أعلنت فيه إنكارها قتل الحسين. فعن شهر بن حوشب قال: سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ حين جاء

(١) ابن حجر، الإصابة، ٦/٤٧٤.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة.

نعي الحسين بن علي لعنت أهل العراق، فقالت: «قَتَلُوهُ، قَتَلَهُمُ اللَّهُ، غَرُّوهُ وَذَلُّوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ..»[1].

لم يكن لأم المؤمنين أم سلمة أثر في المجال السياسي فحسب، بل كانت حريصة على أموال المسلمين. ويظهر ذلك في توجيهاتها لرجال أعمال بني عصرها. فلقد جاء عبد الرحمن بن عوف يستنصحها وهو آنذاك أكثر قريش مالاً. والملاحظة الطريفة أنه لم يقل لها: أنا أغنى قرشي أو ما شابه ذلك، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ورع وتقوى السائل. المهم أنها نصحته في أن ينفق. عن شقيق عن أم سلمة قالت: «دخل عليها عبد الرحمن بن عوف فقال: يا أمه، قد خفت أن يهلكني كثرة مالي، أنا أكثر قريش مالاً. قالت: يا بني فأنفق فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لاَ يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أُفَارِقَهُ**». فَخَرَجَ فَلَقِيَ عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ. فَجَاءَ عُمَرُ فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: بِاللَّهِ مِنْهُمْ أَنَا؟ فَقَالَتْ: لاَ وَلَنْ أُبْلِيَ أَحَدًا بَعْدَكَ»[2].

وتجدر الإشارة إلى أن سيرة أم سلمة لم تحظ بالاهتمام الكافي من قبل الباحثين بمثل ما حظيت به سيرة السيدة عائشة، رضي الله عنها، على الرغم من أن أم سلمة عُرفت بأنها كانت من فقهاء الصحابة، غير أن فقهها لم يصلنا على حد علمنا.

---

(١) أخرجه أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٦، ح٢٦٥٩٢. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب.

(٢) أخرجه أحمد، حديث أم سلمة، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٦، ح٢٦٥٣٢. وانظر: مجمع الزوائد، أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح، ٧٣/٩.

٢- أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث[١]:

هي ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية أخت أم الفضل لبابة. كان اسمها برة فسماها النبي ﷺ ميمونة. وكانت قبل النبي ﷺ عند أبي رهم ابن عبد العزى بن عبد ود بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي العامري. وقيل عند سخبرة بن أبي رهم المذكور. وقيل عند حويطب بن عبد العزى. وقيل عند فروة أخيه. وتزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة سبع لما اعتمر عمرة القضية. وكانت آخر امرأة تزوجها، يعني ممن دخل بها. وعن محمد بن عبد الرحمن عن عمرة قال: قيل لها: إن ميمونة وهبت نفسها. فقالت: تزوجها رسول الله على مهر خمسمائة درهم وولي نكاحه إياها العباس. وثمة اختلاف شديد حول تاريخ وفاتها، فقيل: إن وفاة ميمونة كان سنة إحدى وخمسين. وقيل: سنة إحدى وستين.

لقد تميزت أم المؤمنين ميمونة بمكانة متميزة كما تصفها السيدة عائشة، رضي الله عنهن، فعن يزيد بن الأصم قال: تلقيت عائشة وهي مقبلة من مكة أنا وابن طلحة من أختها، وقد كنا وقعنا على حائط من حيطان المدينة، فأصبنا منه فبلغها ذلك. فأقبلت على ابن أختها تلومه. ثم أقبلت علي فوعظتني موعظة بليغة. ثم قالت: أما علمت أن الله ساقك، حتى جعلك في بيت من بيوت نبيه؟

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/١٣٢-١٤٢، أبو بكر، أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني، الآحاد والمثاني، ٥/٣٤٤-٤٣٦؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤/١٩١٤،١٩١٨؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١/١٤٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢/٢٣٨؛ ابن حجر الإصابة، ٨/١٢٦-١٢٨.

ذهبت والله ميمونة، ورمى بحبلك على غاربك. أما أنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم.

روى عن أم المؤمنين عدد من الصحابة، روى عنها ابن عباس ابن أختها، وابن أختها الثاني عبد الله بن شداد بن الهاد، وابن أختها الثالث عبد الرحمن ابن السائب، وابن أختها الرابع يزيد بن الأصم، وعبيد بن السباق، وكريب مولى ابن عباس (وكان يدخل على أمهات المؤمنين)، ومولاها سليمان بن يسار، وعطاء ابن يسار، وعمران بن حذيفة، ومولاتها ندبة، والعالية بنت سبيع، وأم منبوذ.

تتنوع مرويات أم المؤمنين أم ميمونة في مختلف المجالات.

روي عنها في أبواب الطهارة: في كيفية الغسل من الجنابة، وفي وضوء النبي ﷺ بفضل غسل نسائه، مباشرة الحائض وهي مؤتزرة، قراءة القرآن في حجر الحائض، الصلاة بعد الأكل بدون وضوء.

وفي أبوب الصلاة: روي عنها في فضل الصلاة في مسجد النبي ﷺ، وفي سجود النبي ﷺ..

وفي الجنائز: في الميت يصلي عليه أمة من الناس.. وروت في الصيام: في صيام النبي ﷺ في عرفة.

وروي عنها في الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة، وفي رقية النبي ﷺ، كما روي عنها في العتق.. ولعل أبرز حكم ارتبط باسم ميمونة، رضي الله عنها، هو تزويج المحرم، فقد تضاربت الروايات في قصة تزويج النبي ﷺ ميمونة، هل كان حلالاً أم محرماً؟[1].

(١) آمال قرداش، دور المرأة في خدمة الحديث، ص٧٤-٧٦.

– موقع أم المؤمنين ميمونة في الوسط النخبوي:

ويبرز موقع أم المؤمنين ميمونة في دورها في رواية الحديث حيث تعد من حيث ترتيب عدد مرويات الصحابيات الراوية الرابعة حيث بلغت عدد رواياتها (٧٦) حديثاً. وهذه الثروة الحديثية يفترض أن نجد أثرها في الإنتاج الفكري الذي بني فيما بعد على التراث السني الذي خلفه الصحابة. فتكون ميمونة، رضي الله عنها، بذلك قد شاركت في صنع الفكر النخبوي الأول للصحابة. ولم تزد المصادر على إثرائنا بموقعها النخبوي بعد وفاة النبي ﷺ أكثر من ذكر مروياتها الحديثية، على الرغم من أنها توفيت في عام ٦٥هـ على الأرجح بعد السيدة عائشة، فالمهم أنها عمّرت في حياة السيدة عائشة، ولم تصلنا إسهاماتها في المجالات الأخرى.

٣– أم المؤمنين حفصة[1]:

هي حفصة بنت عمر بن الخطاب زوج النبي ﷺ، وهي أخت عبد الله ابن عمر لأبيه وأمه. وأمهما زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة ابن جمح. كانت حفصة من المهاجرات، وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/٨١–٨٦،٢١٧؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤/١٨١١–١٨١٢؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٢/٣٨؛ ابن حجر، الإصابة، ٧/٥٨٢–٥٨٣؛ أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ٢/٤٣٢–٤٣٣؛ بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة، ص٢٤٦؛ حسونة، عرفان العشا الدمشقي، نساء في ظل رسول الله ﷺ، ص١٢١؛ أحمد حامد، قمم نسائية في الإسلام، ص٩٧؛ عبيد، منصور الرفاعي، أمهات المؤمنين وسيدات أخريات، ص١٧٤؛ ابن عزت، بهاء الدين الهندي، كلمة حق في زوجات سيد المرسلين أفضل نساء العالمين، ص٤٠.

خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي. فلما تأيمت ذكرها عمر لأبي بكر وعرضها عليه، فلم يرجع إليه أبو بكر كلمة. فغضب عمر من ذلك، ثم عرضها على عثمان حين ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ، فقال عثمان: ما أريد أن أتزوج اليوم. فانطلق عمر إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه عثمان، وأخبره بعرضه حفصة عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة**»، ثم خطبها إلى عمر فتزوجها رسول الله ﷺ، فلقي أبو بكر عمر بن الخطاب، فقال له: لا تجد علي في نفسك فإن رسول الله ﷺ كان ذكر حفصة فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها. واختلف حول تاريخ زواجها، فقيل: في سنة ثلاث من الهجرة. وقيل: سنة اثنتين. وحسب الروايات فإن الرسول ﷺ طلق حفصة تطليقة وراجعها بأمر من الله عز وجل. وقيل: رحمة بعمر. وقال أبو عمر: طلقها تطليقة ثم ارتجعها، وذلك أن جبرائيل، عليه السلام، قال: راجع حفصة فإنها قوامة صوامة، وإنها زوجتك في الجنة. ولقد اختلف حول تاريخ وفاتها، فقيل: إنها توفيت في حين بايع الحسن بن علي، رضي الله عنهما، معاوية، رضي الله عنه، وذلك في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين. وقيل: توفيت سنة خمس وأربعين. وقيل: غير ذلك.

رأينا في الرواية السابقة أن الله عز وجل قد شرفها بتزكية ممتازة فإنها صوامة قوامة، فإلى جانب هذه المواصفات الإيمانية فلقد تولى النبي ﷺ الإشراف على تكوينها والرفع من مستواها التعليمي. علمتها الشفاء الكتابة؛ لأن بعض النساء القرشيات كن يعرفن القراءة والكتابة، إلى جانب مهارات

أخرى، قبل ظهور الإسلام من بينهن الشفاء. ولقد تولى رسول الله ﷺ تشجيع هذه المهارة في وسط الصحابيات، فبعد أن علّمت الشفاء حفصة الكتابة، أمرها أن تعلمها رقية النملة أيضاً. «قالت الشفاء: فدعا رسول الله ﷺ الشفاء، فقال: **اعرضي علي** (الرقية). فعرضتها عليه، فقال: **ارقيه وعلميها حفصة كما علمتها الكتاب**» (وفي روايات الكتابة)[1].

لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على تنمية مهارات الصحابيات بشكل بارز. لم يكن يحرص على كبت طاقاتهن، بقدر ما كان يحرص على تفجيرها فيهن، وتوجيهها أحسن توجيه. لقد اعتنى بهذه العناصر حتى تتولى أداء أدوارهن في المجتمع، والإسهام في دفع الحركة العلمية الفكرية. فخصهن بيوم لتلقي علمه؛ ولولا أهمية الكتابة في الوسط النسائي لاقتصر تعليمها في وسط الرجال.

لقد روت أم المؤمنين حفصة عن النبي ﷺ ستين (٦٠) حديثاً. اتفق لها الشيخان على أربعة أحاديث، وانفرد مسلم بستة أحاديث...ومجموع مروياتها في الكتب الستة ثمانية وعشرون (٢٨) حديثاً، ومحتوى تلك المرويات كما يلي:

الطهارة: في وجوب الغسل على كل محتلم يوم الجمعة، وجعل اليد اليمنى للطعام والشراب. وفي أبواب الصلاة، روت في الركعتين الخفيفتين إذا نودي بالصبح وهي من فعل النبي ﷺ.

وفي الصوم: روت في لا صيام لمن لم يجمع الصيام قبل الفجر، وصوم النبي ثلاثة أيام من الشهر، وفي القبلة للصائم، وفي من يصبح جنباً ثم يتم صومه، وفي صيام الاثنين والخميس، وصيام عاشوراء وغيرها.

---

(١) الرواية مذكورة بالتفصيل في ترجمة الشفاء في هذا الكتاب.

كما روت في المناسك: في الدواب التي لا جناح على من قتلهن.. كما روت في الزينة في لبس الديباج للرجل، وفي الشمائل في فراش النبي ﷺ. وفي الآداب: فيما يفعل الرجل إذا أراد النوم. وفي الطب في رقية النملة. وفي تعبير الرؤيا. وفي الفتن في قصة ابن الصائد وخروج الدجال من غضبة يغضبها. وفي تفسير ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: ٧١)، أنه يبعث كل امرئ على نيته إذا استكره على الحرب، وهذا أشهر ماروت.. ويلاحظ غلبة السنة الفعلية في وصف أعمال النبي ﷺ التي اشتركت في نقلها إلى الناس مع بقية أمهات المؤمنين[1]. وتُعد أم المؤمنين حفصة هي سابع راوية من حيث الكثرة في القائمة العامة، ومن بين أمهات المؤمنين تعتبر هي الخامسة. ولقد تركت أم المؤمنين حفصة بصماتها في مواقف حساسة، كما سنرى، مما يدل على أهمية وجود مثل هذا الأنموذج في المجتمع.

- موقع أم المؤمنين حفصة بعد وفاة النبي ﷺ:

لقد تجلت بوضوح ثمار عناية النبي ﷺ بحفصة بعد وفاته، فلقد كان لها الشرف في أن تتولى حفظ النسخة الأصلية للقرآن الكريم، والتي أمر أبو بكر بجمعها. قال علي، رضي الله عنه: «أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله؛ أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن، وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيد بما تستحق

---

(١) آمال قرداش، دور المرأة في خدمة الحديث، ص٨١-٨٢. وغير ذلك من كتب السنن.

من عناية فائقة فحفظها أبو بكر عنده، ثم حفظها عمر بعده، ثم حفظتها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر، حتى طلبها منها خليفة المسلمين عثمان، رضي الله عنه، حيث اعتمد عليها في استنساخ مصاحف القرآن، ثم ردها إليها»[1]. ويرجع الدكتور ليث سبب ترشيحها لتكون خازنة النسخة الأصلية للمصحف هو تعلمها الكتابة من طرف الشفاء[2].

وتعد السيدة حفصة هي أول (مشرفة) على الوقف «كانت أم المؤمنين حفصة أول مشرفة على الأوقاف في التاريخ الإسلامي، حيث ولاها عمر، رضي الله عنه، هذه المهمة، قبل وفاته كتب وصيته بقوله: «هذا ما أوصى به عبد الله عمر أمير المؤمنين إن حدث به حدث الموت، أن ثمغا، وصرمة ابن الأكوع (بستانان من بساتين عمر) والعبد الذي فيه، والمائة التي أطعمه محمد ﷺ بالوادي، تليه حفصة ما عاشت، ثم توليه ذا الرأي من أهلها أن لا يباع ولا يشترى ينفقه حيث يرى، من السائل والمحروم وذي القربى، ولا حرج عليه إن أكل أو آكل (أي أشرك معه آخرين في الأكل) واشترى رقيقاً منه»[3].

ولقد كان لحفصة إسهام في المجال السياسي تمثل في موقفها من قرار الخليفة عمر بن الخطاب. فعن ابن عمر قال: «دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقَالَتْ:

---

(١) محمد عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ١/١٧٦.
(٢) جاسم، ليث سعود، الرعاية والخدمات الاجتماعية في عصر النبوة، ص٥٩.
(٣) جاسم، ليث سعود؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤/١٨١٢، الرعاية والخدمات الاجتماعية في عصر النبوة ودور المرأة المسلمة فيها، ص٩٧.

أَعَلِمْتَ أَنَّ أَبَاكَ غَيْرُ مُسْتَخْلِفٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: مَا كَانَ لِيَفْعَلَ. قَالَتْ: إِنَّهُ فَاعِلٌ. قَالَ: فَحَلَفْتُ أَنِّي أُكَلِّمُهُ فِي ذَلِكَ. فَسَكَتُّ حَتَّى غَدَوْتُ وَلَمْ أُكَلِّمْهُ، قَالَ: فَكُنْتُ كَأَنَّمَا أَحْمِلُ بِيَمِينِي جَبَلاً، حَتَّى رَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْ حَالِ النَّاسِ، وَأَنَا أُخْبِرُهُ قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ مَقَالَةً فَآلَيْتُ أَنْ أَقُولَهَا لَكَ، زَعَمُوا أَنَّكَ غَيْرُ مُسْتَخْلِفٍ، وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ لَكَ رَاعِي إِبِلٍ أَوْ رَاعِي غَنَمٍ، ثُمَّ جَاءَكَ وَتَرَكَهَا رَأَيْتَ أَنْ قَدْ ضَيَّعَ فَرِعَايَةُ النَّاسِ أَشَدُّ. قَالَ: فَوَافَقَهُ قَوْلِي فَوَضَعَ رَأْسَهُ سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَيَّ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحْفَظُ دِينَهُ وَإِنِّي لَئِنْ لاَ أَسْتَخْلِفْ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَسْتَخْلِفْ، وَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ قَد اسْتَخْلَفَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَعْدِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدًا، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَخْلِفٍ»(١).

لقد أشارت على أخيها بعد طعن عمر بن الخطاب في المسجد بمراجعة أبيها الخليفة حول أخطر وأهم مسألة سياسية، ألا وهي تعيين الخليفة أو ما يسمى اليوم تعيين نائب الرئيس في حالة وفاته. مجرد اعتراضها على الخليفة عندما لم يستخلف بعده خليفة يعني الكثير. فحفصة هي ابنة عمر بن الخطاب، الذي عرف بتشدده. لكن هذا التشدد كان موضوعاً في محله. وعلى رغم تشدد عمرَ فإن ذلك لم يمنع حفصة من اشتغالها بأمور السياسة. ولقد تخرجت من بيت النبوة أيضاً، ورأينا أن الله زكاها وقال عنها: إنها صوامة قوامة. فلو كان اشتغال المرأة بالسياسة محظوراً لكانت أبعد الناس عن ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة.

ولحفصة موقف سياسي آخر تجلى في نصيحتها لأخيها يوم التحكيم في ما يخص دماء المسلمين. عن ابن عمر، رضي الله عنه، قال: «دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ وَنَسْوَاتُهَا تَنْطُفُ. قُلْتُ: قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ مَا تَرَيْنَ. فَلَمْ يُجْعَلْ لِي مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ. فَقَالَت: الْحَقْ فَإِنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ، وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ فِي احْتِبَاسِكَ عَنْهُمْ فُرْقَةٌ، فَلَمْ تَدَعْهُ حَتَّى ذَهَبَ. فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ خَطَبَ مُعَاوِيَةُ قَالَ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي هَذَا الأَمْرِ فَلْيُطْلِعْ لَنَا قَرْنَهُ، فَلَنَحْنُ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ وَمِنْ أَبِيهِ. قَالَ حَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ: فَهَلاَّ أَجَبْتَهُ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَلَلْتُ حُبْوَتِي وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُولَ: أَحَقُّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْكَ مَنْ قَاتَلَكَ وَأَبَاكَ عَلَى الإِسْلاَمِ، فَخَشِيتُ أَنْ أَقُولَ كَلِمَةً تُفَرِّقُ بَيْنَ الْجَمْعِ وَتَسْفِكُ الدَّمَ، وَيُحْمَلُ عَنِّي غَيْرُ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ فِي الْجِنَانِ. قَالَ حَبِيبٌ: حُفِظْتَ وَعُصِمْتَ. قَالَ مَحْمُودٌ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ: وَنَوْسَاتُهَا»(١).

لقد أشارت حفصة على أخيها يوم التحكيم بين علي ومعاوية بمشورة حقنت بها دماء المسلمين، وحفظت وحدتهم. إنه موقف يسجله لها التاريخ، فلنعم المرأة الصالحة العاقلة إذا أدلت بصوتها في أمور السياسة. يعتبر أنموذج حفصة أنموذجاً متميزاً يدل صراحة على أهمية وجود المرأة في الوسط النخبوي، وتأثيره في مختلف المجالات، وكيف يمكن أن يتصدر في تحمل مسؤولية قضايا حساسة قد تكون ذات علاقة بعقيدة أمة بكاملها.

(١) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب. قال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع، ح٣٨٨، ج٤.

٤ – أم المؤمنين زينب بنت جحش[1]:

زينب أم المؤمنين، بنت جحش بن رياب، وابنة عمة رسول الله ﷺ. أمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، وهي أخت حمنة وأبي أحمد، من المهاجرات الأول. تزوجت زيداً مولى النبي ﷺ وهي غير راغبة فيه؛ وهي التي يقول الله فيها: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ (الأحزاب:٣٧)، فزوجها الله تعالى بنبيه بنص كتابه بلا ولي ولا شاهد، فكانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين وتقول: زوجكن أهاليكن، «وزوجني الله من فوق عرشه». وقيل: إن النبي ﷺ تزوج بزينب في ذي القعدة سنة خمس وهي يومئذ بنت خمس وعشرين سنة، وكانت صالحة صوامة قوامة بارة. ويقال لها: أم المساكين[2].

عن أنس قال: «لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِزَيْدٍ: فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ. قَالَ: فَانْطَلَقَ زَيْدٌ حَتَّى أَتَاهَا وَهِيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا. قَالَ: فَلَمَّا

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٠١،٢٠٨/٨ و٢١٨؛ صفوة الصفوة، ٤٦/٢؛ أحمد حامد، قمم نسائية في الإسلام، ص١١٣؛ محمد رفعت، شهيرات النساء العربيات والمسلمات، ص٨٩؛ بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة، ص٢٨١؛ ابن عزت، بهاء الدين الهندي، كلمة حق في زوجات سيد المرسلين أفضل نساء العالمين، ص٥٤؛ عبيد، منصور الرفاعي، أمهات المؤمنين وسيدات أخريات، ص٩٨؛ حسونة، عرفان العشا الدمشقي، نساء في ظل رسول الله ﷺ، ص٩٧١؛ أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ٢٣٤/١.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢١١/٢.

رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي، حَتَّى مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّـه ﷺ ذَكَـرَهَا، فَوَلَّيْتُهَا ظَهْـرِي، وَنَكَصْتُ عَلَى عَقِبِي، فَقُلْتُ: يَا زَيْنَـبُ أَرْسَـلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُكِ. قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي، فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ..»[1].

لم تروِ أم المؤمنين زينب بنت جحش روايات كثيرة كغيرها، حيث بلغت أحد عشر حـديثاً فقط. وحديثها في الكتب الستة. روى عنها ابـن أخيهـا محمد بن عبد الله بن جحش وأم المؤمنين أم حبيبة وزينب بنـت أبي سـلمة، وأرسل عنها القاسم بن محمد. توفيت في سنة عشرين، وصلى عليها عمر.

ولقد كان لأم المؤمنين زينب بنت جحش قدرات وصفات متميزة، حيث يروى عن عمرة عن عائشة قالت: يرحم الله زينب، لقد نالت في الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف، إن الله زوَّجها، ونطق به القرآن، وإن رسول الله قال لنا: أسرعكن بي لحوقاً أطولكن باعاً، فبشرها بسرعة لحوقها به، وهي زوجتـه في الجنة. وعن عائشة أيضاً قال النبي ﷺ لأزواجه: يتبعنـي أطولكن يداً. فـكنا إذا اجتمعنا بعده نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نـزل نفعله حـتى توفيـت زينب، وكانت امرأة قصيرة، لم تكن، رحمها الله، أطولنـا، فعرفنـا أنما أراد الصدقة. وكانت صناع اليد، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق[2].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب النكاح.

(٢) واشتهرت بهذه الصنعة أيضاً، «من المتخصصات في الدباغة: سودة بنـت زمعـة وأسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب، انظر: الذهبي، سير أعلام النـبلاء، ٢١١/٢.

لقد كانت زينب أنموذجاً في الزهد، فعن برزة بنت رافع قالت: أرسل عمر إلى زينب بعطائها. فقالت: غفر الله لعمر، غيري كان أقوى على قسم هذا. قالوا: كله لك. قالت: سبحان الله واستترت منه بثوب. وقالت: صبوه واطرحوا عليه ثوباً، وأخذت تفرقه في رحمها وأيتامها، وأعطتني ما بقي، فوجدناه خمسة وثمانين درهماً، ثم رفعت يدها إلى السماء، فقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا»[1].

بقيت زينب حريصة على الصدقة لدرجة أنها أوصت بالتصدق بكفنها. فعن القاسم بن محمد قال: قالت زينب بنت جحش حين حضرتها الوفاة: إني قد أعددت كفني، فإن بعث لي عمر بكفن، فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذ أدليتموني أن تصدقوا بحقوتي فافعلوا[2].

لقد وصفها الرسول ﷺ بأحسن الأوصاف، إذ روي عن عبد الله بن شداد أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «**إن زينب بنت جحش أواهة**». قيل: يا رسول الله، ما الأواهة؟ قال: **الخاشعة المتضرعة** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ (هود:٧٥).

روي عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت وهي تتحدث عن زينب: «كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْهُنَّ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْراً

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢/٢١٢.
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات: ٨/١٠٩ من طريق الواقدي.

فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ، وَأَتْقَى لِلَّهِ وَأَصْدَقَ حَدِيثاً، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً، وَأَشَدَّ ابْتِذَالاً لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِهِ وَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ كَانَتْ فِيهَا تُسْرِعُ مِنْهَا الْفَيْئَةَ..»[1].

- موقع أم المؤمنين زينت في الوسط النخبوي:

يتجلى موقع زينت النخبوي بشكل غير مباشر من خلال ارتباط سبب نزول بعض الآيات بها، ومن خلال بعض الروايات السنية.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب:٣٧)، «قال العوفي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، ذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية، رضي الله عنها، فخطبها، فقالت: لست بناكحته. فقال رسول الله ﷺ: «**بل فانكحيه**». قالت: يا رسول الله، أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل.

مُؤۡمِنَةٍ﴾ الآية. قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم». قالت: إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي. وقال ابن لهيعة عن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، رضي الله عنه، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾ الآية كلها»[1].

لقد كانت زينب بنت جحش، رضي الله عنها، سبباً لنزول هذه الآيات التشريعية، قبل أن تحظى بلقب أم المؤمنين. بل وكانت ناقمة على الزواج الأول كما كان يصف زيد معاملتها له. لقد امتحنت بالزواج السابق، والذي قبلت به امتثالاً لأوامر الله عز وجل، فأكرمها الله عز وجل بأفضل زوج بعد زيد، وهو نبي الله خير خلق الله، عليه الصلاة والسلام، ولقد كانت ظاهرة التبني منتشرة في الجاهلية وقبل نزول هذه الآية. لذلك ابتليت زينب وابتلي زيد، رضي الله عنها، لتكون نهاية زواجهما بداية لقانون إلهي يمنع التبني؛ لأن زيداً كان ابن رسول الله ﷺ بالتبني، فزوَّج الله عز وجل الرسول ﷺ بزينب ليضع حداً لظاهرة التبني ويصون الأنساب.

والحكمة التي نستخرجها من الخطاب القرآني هو أن التشريع انبنى على أحداث صنعها الطرفان، الرجل والمرأة. ولحكمة الخالق، جلّ وعلا، كان

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤/٤٩٠.

يشرع بناء على أحداث قد يكون سببها رجال أو نساء، و لم تكن تظهر نوع من الوصايا أو احتكار الرجل لصنع القرار التشريعي بل العكس. فالتشريع الذي ينتجه طرف واحد، لا يمكن أن يؤدي وظيفته الحقيقية، أو سيكون لا محالة مصدراً لمشاكل خطيرة في المجتمع.

وتُعَدُّ أم المؤمنين زينب بنت جحش أنموذجاً آخر من النساء، فهي امرأة صُنّاع كما وصفتها السيدة عائشة، رضي الله عنهما، فلقد كانت تصنع من يدها، وتتصدق بمالها على المحتاجين من أرامل وأيتام، فلم تكن تصنع لتتكفل بالنفقة على نفسها. لقد أقرَّ الرسول ﷺ بمشاركتها الفعالة في المجتمع. ومن حكمة الله عزّ وجل أنها لم تنجب من رسول الله ﷺ، فلو أنجبت لقيل إنها كانت تنفق على أولادها. لقد فقهت زينب المعنى الحقيقي للعبودية لله عز وجل؛ فلقد كانت صوّامة قوّامة، كما وُصفت، وهذا لم يمنعها من أن تكون أطول نساء النبي ﷺ يداً، أي أكثرهن تصدّقاً. فلم يمنعها صيامها وقيامها من ممارسة حرفة الصناعة اليدوية لتسهم بها في رقي المجتمع، فيستفيد المجتمع من إنتاجها من جهة، ومن مالها من جهة أخرى، وتستفيد هي من مالها لتفوز بآخرتها. روت زينب (١١) حديثاً، كما أسلفنا. يكفي هذا العدد لبناء نظام اجتماعي خاص يرسم سلوكيات اجتماعية محددة. ويكفي أن إقرار النبي ﷺ بعملها والثناء على كثرة تصدقها قد رسم أحد أوجه مشاركة المرأة في التنمية الاجتماعية ووضع الهدف الصحيح من عمل المرأة.

الصحابيات الأخريات:

١ – أسماء بنت يزيد(١):

اسمها الكامل أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس ابن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث الأنصارية الأوسية ثم الأشهلية. هي بنت عم معاذ بن جبل وكانت تكنى أم سلمة. وقال ابن حجر: أم عامر بنت يزيد بن السكن الأنصارية الأشهلية هي أختها سماها ابن السكن فكيهة. ولها أخ اسمه عمرو بن يزيد بن السكن. استشهد أبوهما بأُحد سنة ثلاث، وقتل معه ابنه عامر بن يزيد، رضي الله عنهما. وكانت يقال لها خطيبة النساء، شهدت اليرموك وخيبر، وقتلت يومئذٍ تسعة من الروم بعمود فسطاطها، وعاشت إلى دولة يزيد بن معاوية. وتعد أسماء بنت يزيد ثالث امرأة راوية للحديث الشريف بعد أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنهن.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣١٩/٨؛ ابن حنبل، فضائل الصحابة، ٣٣٧/١؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ١٥٧٦/٤؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٧/٢؛ ابن حجر، الإصابة، ٤٩٨/٧، ٢٤٨/٨، ٦٩٨/٤؛ علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ١٤٩/١؛ أبو حاتم، محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، (ت٣٥٤)، الثقات، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، ط١ (دار الفكر، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) ٢٣/٣؛ إدارة المكتبات بوزارة التربية في الكويت، أعلام الأنصار والأنصاريات، ص٩٧؛ سليم، محمد إبراهيم، نساء حول الرسول، ص١٢٠؛ محمد رفعت، شهيرات النساء العربيات والمسلمات، ص٩٦؛ آمال قرداش، دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى، ص١٢٩؛ الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٢١٣/٦.

لقد عرفت أسماء برجاحة العقل، وكانت من فضليات الصحابيات، كثيرة الدخول على أمهات المؤمنين، ملازمة للبيت النبوي، زد على ذلك حبها للعلم والسؤال. وتجمع مروياتها بين التفسير وأسباب النـزول والأحكام والشمائل والمغازي والسيرة والفضائل. ألقت رحالها في دمشق وأخذت تحدث بها. ذكر لها الحاكم[1] حديثاً واحداً صحيحاً فقط.

إن اهتمام أسماء بالعلم وبقضايا التغيير، كما سنرى، لا يعني أنها كانت مسترجلة، بل على العكس هي كغيرها من الصحابيات النخبويات فلقد كانت تهتم بأمور الزينة. فكثيراً ما تفهم بعض النساء أن التدين الصحيح يعني الزهد المطلق في الدنيا، والانكباب على طلب العلم، أو أن الاهتمام بالزينة في حدود مايرضي الله يتنافى مع التقوى والورع. وهذا تفكير غير صحيح بدليل أن الصحابيات كن يولين اهتماماً خاصاً بهذه الأمور. ومن بينهن أسماء بنت يزيد الأنصارية، حيث شاركت في تزيين عائشة، رضي الله عنها، عندما أهديت إلى النبي ﷺ[2]. فالتزين للزوج الصالح عبادة أيضاً إذا قصدت بها إرضاء الله عز وجل وليس إفلاس الزوج وإغناء الشركات التي لا تخلو موادهم من الأضرار التي تضر بصحة المرأة.

ولقد كانت شخصية المرأة الأنصارية تتميز بصفات تعبر عن طلاقة روحها، وحريتها في التعبير بدون خجل عما يكمن في صدرها. وانعكس هذا

(١) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ٣/٢٢٨.
(٢) ليث سعود جاسم، الرعاية والخدمات الاجتماعية في عصر النبوة، أورد الدكتور ليث عدداً من الصحابيات اللواتي اشتهرن بذلك، ص٧٣-٧٥.

في علاقتها بزوجها حيث اشتهرت نساء الأنصار بأهن كن منفتحات أكثر على مبدأ الحوار مع أزواجهن. وعندما قدمت النساء المهاجرات تأثرن بهذه الصفة[1]. ولم يأمر النبي ﷺ بإلغاء مبدأ الحوار في الأسرة، بل العكس شجعه بدليل المعاملة التي كان يعامل بها زوجاته، سواء مع أم سلمة أو مع عائشة، كما سنرى. وهذا ما رشّح أن يكون من بين الأنصاريات نماذج نخبوية جريئة حريصة على ما يهم النساء في الدنيا والآخرة. فلقد تميزت أسماء بنت يزيد عن أخواتها الصحابيات بجرأتها في السؤال عن دينها وقول الحق دون أن يمنعها حياؤها من ذلك وهذا مما جعل السيدة عائشة، رضي الله عنها، تثني عليهن عندما جاءت أسماء تسأل عن دينها بقولها: «نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ»[2].

---

(١) روى ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس: «...وكنا معاشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من نساء الأنصار، فصخبت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني...» ج٩، ح٤١٨٧.

(٢) روى مسلم في صحيحه «عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَاجِرِ قَالَ: سَمِعْتُ صَفِيَّةَ تُحَدِّثُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ. فَقَالَ: تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا، فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: وَكَيْفَ تَطَهَّرُ بِهَا؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، تَطَهَّرِينَ بِهَا. فَقَالَتْ عَائِشَةُ، كَأَنَّهَا تُخْفِي: ذَلِكَ تَتَبَّعِينَ أَثَرَ الدَّمِ. وَسَأَلَتْهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ فَقَالَ: تَأْخُذُ مَاءً فَتَطَهَّرُ، فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا، فَتَدْلُكُهُ حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ» انظر، كتاب الحيض، باب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم، ٢٦١/١، ح٣٣٢.

لقد كانت أسماء أنموذجاً نخبوياً من نماذج النساء الأنصاريات، جريئة تعبر عن حاجات واهتمامات نساء مجتمعها، فعن أسماء بنت يزيد قالت: «أنا من النسوة اللاتي أخذ عليهن رسول الله ﷺ. قالت: وكنت جارية ناهداً جريئة على مسألته، فقلت: يا رسول الله، ابسط يدك حتى أصافحك. فقال: **إني لا أصافح النساء، ولكن اخذ عليهن ما أخذ الله عليهن**... فذكر الحديث»[1].

وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية أيضاً قالت: زعمت أن رسول الله ﷺ مر في المسجد يوماً، وعصبة من النساء قعود، فألوى بيده إليهن بالسلام. فقال: **إياكن وكفران المنعمين**. قالت إحداهن: يا رسول الله، أعوذ بالله من كفران نعم الله. قال: **بلى، إن إحداكن تطول أيمتها، ويطول تعنيسها، ثم يرزقها الله عز وجل البعل، ويفيدها الولد وقرة العين، ثم تغضب الغضبة فتقسم بالله: ما رأت منه ساعة خير قط، فذلك من كفران نعم الله، وذلك من كفران المنعمين**»[2].

وعن أسماء أيضاً أن رسول الله ﷺ خرج إلى النساء في جانب المسجد فإذا أنا معهن فسمع أصواتهن، فقال: **يا معشر النساء، إنكن أكثر حطب جهنم**. فناديت رسول الله ﷺ، وكنت جريئة على كلامه فقلت: يا رسول الله، لِمَ؟ قال: **إنكن إذا أعطيتن لم تشكرن، وإذا ابتليتن لم تصبرن، وإذا أمسك عليكن شكوتن، وإياكن وكفر المنعمين**. فقلت: يا رسول الله، وما كفر

---

(١) علي بن أبي بكر، الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦/٣٩، وعلق عليه: رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو متروك.

(٢) علي بن أبي بكر، الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٤/٣١١، وعلق عليه كما يلي: قلت: روى أبو داود منه السلام على النساء. رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق.

المنعمين؟ قال: **المرأة تكون مع الرجل وقد ولدت له الولدين والثلاثة، فتقول ما رأيت منك خيراً قط»**[1].

ولقد اشتهرت أسماء بلقب خطيبة النساء، لحرصها على مصالح بني جنسها، وطموحها في تحقيق أفضل الأعمال. ولقد اشتهرت بهذا اللقب بناءً على الرواية التي سألت فيها، رضي الله عنها، النبي ﷺ نيابة عن النساء، ذلك السؤال الذي يتبادر إلى ذهن كل امرأة عاقلة، ويشغل عقل كل من تؤمن بالله واليوم الآخر. وهناك روايات مختلفة حوله و لم أستطع أن أقف على روايات صحيحة للجزم بمعاني محتوى المتن:

روي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر، فقال النبي ﷺ: **نعم، إذا أحسنتن تبعل أزواجكن وطلبتن مرضاتهم»**[2].

عن العباس بن الوليد بن مزيد أخبرني أبو سعيد الساحلي واسمه الأخطل بن المؤمل الجبيلي عن مسلم بن عبيد عن أسماء بنت يزيد الأنصارية من بني عبد الأشهل أنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، وأعلم نفسي لك الفداء، أنه ما من

---

(١) علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٤/٣١١، وعلق عليه كما يلي: رواه الطبراني وفيه شهر وهو ضعيف وقد وثق وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) محمد بن محمد، خطابي (٩٣١هـ)، غريب الحديث (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٢م) ١/٣٨١.

امرأة كانت في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا أو لم تسمع إلا وهي على مثل رأيي، أن الله بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، ومفضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في هذا الخير يا رسول الله؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: «**سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها عن أمر دينها من هذه؟**»، قالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ إليها ثم قال: «**انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من ورائك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله**»، قال: فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر استبشاراً»[1]. وتبعل المرأة لزوجها أي طاعتها لبعلها. وتبعلت له أيضاً بمعنى تزينت. ويقال: امرأة حسنة التبعل إذا كانت مطاوعة لزوجها محبة له[2].

---

(١) أخرجه أبونعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة، ٢٢٥٩/٦ رقم٧٥١٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق، ٣٦٣/٧-٣٦٤، رقم الترجمة ٥٦٩، وفي ٦٥/٢٩-٦٦ رقم الترجمة ٣٣١٨. والحديث في إسناده الأخطل بن المؤمل لم يذكره أحد من علماء الجرح والتعديل، وذكره ابن عساكر فقط ولم يذكر فيه جرحاً أو تعديلاً وبقية إسناده حسن.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٥٨/١١.

موقع أسماء بنت يزيد في الوسط النخبوي:

سبق وأن أشرنا إلى أن أسماء بنت يزيد قد كان لها دورها في الوسط النخبوي، كما رأينا، في عهد النبي ﷺ. وشجعها ﷺ على ذلك وأثنى على حرصها على المصلحة العامة. و لم يتوقف دورها عند هذا الحد، بل استمر في عهد أبي بكر، رضي الله عنه، حيث كانت تحفظ الروايات التي تتحدث عن القضايا المتعلقة بالخلافة مما يدل على مجال اهتمامها. هذا الكلام نستنبطه ولو بشق الأنفس من رواية عن القاسم بن محمد أن أسماء بنت يزيد، أخبرته أن رجلاً من المهاجرين دخل على أبي بكر حين اشتكى وجعه الذي توفي فيه، فقال: يا أبا بكر، أذكرك الله واليوم الآخر، فإنك قد استخلفت على الناس رجلاً فظاً غليظاً يزع الناس ولا سلطان لهم، وإن الله سائلك. فقال: أجلسوني، فأجلسناه، فقال: أبالله تخوفوني!؟ إني أقول: اللهم إني استخلفت عليهم خيرهم[1].

و لم تورد لنا المصادر، التي ذكرتها سابقاً، إسهاماتها في هذا العصر للأسف. ويبدو أن السبب الرئيس، كما ذكرت سابقاً، راجع إلى التركيز على راويات الحديث أكثر. ونظراً لعدم توفر الروايات الصحيحة يكفي الاستئناس بهذه الروايات لإبراز أهمية صوت المرأة في الوسط النخبوي.

---

(١) ابن حنبل، فضائل الصحابة، ٣٣٧/١.

٢- أسماء بنت أبي بكر الصديق[1]:

أسماء، بنت أبي بكر الصديق أول خليفة على المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ. وهي أسماء بنت عبد الله بن عثمان التيمية، والدة عبد الله بن الزبير بن العوّام التيمية. وأمها قتلة أو قتيلة بنت عبد العزى، قرشية من بني عامر بن لؤي. أسلمت أسماء قديماً بمكة. قال ابن إسحاق: بعد سبعة عشر نفساً، وتزوجها الزبير بن العوام وهاجرت وهي حامل منه بولده عبد الله، فوضعته بقباء. وكانت تلقب ذات النطاقين لأنها هيأت للرسول ﷺ لما أراد الهجرة سفرة فاحتاجت إلى ما تشدها به، فشقت خمارها نصفين، فشدت بنصفه السفرة، واتخذت النصف الآخر منطقاً. وكانت من فقيهات نساء الصحابة، ومن العالمات منهن. وقيل: إن أسماء بلغت مائة سنة لم يسقط لها سن، ولم ينكر لها عقل. وقيل: ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، وعاشت إلى أوائل سنة أربع وعشرين. وقيل: عاشت إلى أن ولي ابنها الخلافة، ثم انتقلت إلى الرفيق الأعلى بعده بعشرين يوماً. وقيل غير ذلك.

تُعدُّ أسماء بنت أبي بكر هي ثالث راوية إذا أخذنا بعدد مروياتها كما جاء عند أحمد بن حنبل، وثامن راوية من حيث كثرة الرواية كما جاء عند بقي بن مخلد وابن حزم وابن الجوزي.

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤، حديث ١٧٨١؛ انظر: ابن حجر، الإصابة، ٧/٤٨٤؛ الذهبي، سير الأعلام، ٢/٢٩٢؛ أحمد الجدع، صحابيات ومواقف، ص٤٧-٦٠؛ أحمد حامد، قمم نسائية في الإسلام، ص١٦٣؛ أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ١/٢٤٥؛ محمد رفعت، شهيرات النساء العربيات والمسلمات، ص١٣٣.

وأحاديثها في الصحيحين والسنن رواها عنها ابناها عبد الله وعروة وأحفادها عباد بن عبد الله وعبد الله بن عروة وفاطمة بنت المنذر بن الزبير وعباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير ومولاها عبد الله بن كيسان وابن عباس وصفية بنت شيبة وابن أبي مليكة ووهب بن كيسان وغيرهم.

إن مرويات أسماء متنوعة. فقد رأينا سابقاً أنها كانت سبباً في نزول الآية الخاصة بصلة الأرحام عندما زارتها أمها وهي على الكفر فاستشارت النبي ﷺ فيما إذا كانت تستقبلها عندها في بيتها أم لا. وروت حول ما يتعلق بفرائض الحج، واللباس، وما يتعلق بوصل الشعر، وعن الكسوف، وما يتعلق بأمور النفقة، والتشبع من مال الزوج. ومداراة الزوج.

اشتهرت قصة أسماء التي تشير إلى مدى غيرة زوجها عليها، جعلتها تلك الغيرة لا تركب البعير الذي أناخه رسول الله ﷺ لها. وفي تلك القصة يتضح فقه معاملة الزوج عند أسماء. لقد فهمت أسماء أن غيرة الزوج شيء طبيعي، يجب احترامها ومعرفة كيفية توجيهها دون أن تخدش كرامته. عن أسماء بنت أبي بكر قالت: تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الأَرْضِ مِنْ مَالٍ، وَلاَ مَمْلُوكٍ وَلاَ شَيْءٍ غَيْرَ فَرَسِهِ. قَالَتْ: فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ، وَأَكْفِيهِ مَئُونَتَهُ وَأَسُوسُهُ، وَأَدُقُّ النَّوَى لِنَاضِحِهِ وَأَعْلِفُهُ، وَأَسْتَقِي الْمَاءَ، وَأَخْرُزُ غَرْبَهُ، وَأَعْجِنُ، وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ، وَكَانَ يَخْبِزُ لِي جَارَاتٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ. قَالَتْ: وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ. قَالَتْ: فَجِئْتُ يَوْماً وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي. فَلَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَدَعَانِي، ثُمَّ قَالَ: إِخْ إِخْ،

لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، قَالَتْ: فَاسْتَحَيَيْتُ وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَحَمْلُكِ النَّوَى عَلَى رَأْسِكِ، أَشَدُّ مِنْ رُكُوبِكِ مَعَهُ. قَالَتْ: حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ فَكَفَتْنِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَتْنِي[1].

وفي رواية أخرى عن ابن أبي مليكة أن أسماء قالت: كُنْتُ أَخْدُمُ الزُّبَيْرَ خِدْمَةَ الْبَيْتِ وَكَانَ لَهُ فَرَسٌ وَكُنْتُ أَسُوسُهُ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْخِدْمَةِ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ سِيَاسَةِ الْفَرَسِ، كُنْتُ أَحْتَشُّ لَهُ وَأَقُومُ عَلَيْهِ وَأَسُوسُهُ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّهَا أَصَابَتْ خَادِماً، جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ سَبْيٌ فَأَعْطَاهَا خَادِماً. قَالَتْ: كَفَتْنِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ، فَأَلْقَتْ عَنِّي مَئُونَتَهُ، فَجَاءَنِي رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ، إِنِّي رَجُلٌ فَقِيرٌ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَ فِي ظِلِّ دَارِكِ. قَالَتْ: إِنِّي إِنْ رَخَّصْتُ لَكَ أَبَى ذَاكَ الزُّبَيْرُ، فَتَعَالَ فَاطْلُبْ إِلَيَّ وَالزُّبَيْرُ شَاهِدٌ. فَجَاءَ فَقَالَ: يَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ إِنِّي رَجُلٌ فَقِيرٌ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَ فِي ظِلِّ دَارِكِ، فَقَالَتْ: مَا لَكَ بِالْمَدِينَةِ إِلاَّ دَارِي. فَقَالَ لَهَا الزُّبَيْرُ: مَا لَكِ أَنْ تَمْنَعِي رَجُلاً فَقِيراً يَبِيعُ فَكَانَ يَبِيعُ، إِلَى أَنْ كَسَبَ فَبِعْتُهُ الْجَارِيَةَ، فَدَخَلَ عَلَيَّ الزُّبَيْرُ وَثَمَنُهَا فِي حَجْرِي، فَقَالَ: هَبِيهَا لِي. قَالَتْ: إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِهَا[2].

يمكننا أن نستخلص عدة مسائل في هذه الرواية: الحوار الذي دار بين الرجل وأسماء يعبر عن أسلوب العيش السائد آنذاك في علاقة الصحابة بالصحابيات في الحياة العامة. لو كان مثل هذا السؤال محظور في المجتمع ما كان ليتجرأ ذلك الرجل على سؤالها وخاصة عندما أعاد الطلب عليها في

(١) أخرجه مسلم، كتاب السلام.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب السلام.

حضور زوجها و لم يفعل ذلك معه. ونستخلص أيضاً مدى حرص الصحابيات الجليلات على التصدق من المال الذي اكتسبته سواء من عمل يد كما رأينا مع زينب، أو تجارة كما فعلت أسماء. ولقد فقهت أسماء أن مداراة الزوج لا تعني الكذب عليه بقدر ما تعني مراعاة مشاعر الغيرة فيه.

وعن فاطمة عن أسماء أنها كانت تؤتى بالمرأة الموعوكة، فتدعو بالماء فتصبه في جيبها، وتقول: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **ابْرُدُوهَا بِالْمَاءِ، وَقَالَ: إِنَّهَا مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**[1].

موقع أسماء في الوسط النخبوي بعد وفاة النبي ﷺ:

يتجلى موقع أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، من خلال ارتباط سبب نزول آية تشريعية، كما يتضح أيضاً من خلال بعض الروايات من السنة الشريفة.

يقول الله عز وجل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨)، أي يعاونوا على إخراجكم؛ أي لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة، الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب السلام.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٥٠/٤.

روي عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِي اللَّه عَنْها، قَالَتْ: «قَـدِمَتْ عَلَـيَّ أُمِّي، وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ، إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّه ﷺ وَمُـدَّتِهِمْ مَـعَ أَبِيهَا، فَاسْتَفْتَتْ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي قَـدِمَتْ عَلَـيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: نَعَمْ صِلِيهَا»[1].

لم تكن أمهات المؤمنين فقط وراء سبب نـزول بعض آيـات القـرآن. فلقد كانت هناك عناصر نخبوية أخرى شاركت في صنع فكر الفترة المحمديـة. فها هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، تستفسر عن أمر لـيس خاصاً بها فقط، فكل مسلم سواء كان رجلاً أو امرأة معني بمسألة الإحسان إلى الوالدين، حتى ولو لم يكونوا مسلمين. فسؤالها يعبّر عن موقف قد يتعرض لـه أي شخص، سواء كان من الرجال أو النساء.

إن الحياة الاجتماعية والثقافية لا تخل من المواقف، ومما لا شك فيه أن كل الصحابيات كن يتفاعلن معها، ويبدين آراءهن فيها، بدليل بعـض الروايـات القليلة جداً والتي تفيدنا بها المصادر، حيث تدل على أنه كانت هناك مواقـف أخرى، لكنها لم تصلنا. ومن بين تلك المواقف استدراك أسماء على الـصحابي عبد الله بن عمر. فعن عبد الله، مَوْلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ خَالَ وَلَـدِ عَطَاء قَالَ: أَرْسَلَتْنِي أَسْمَاءُ إِلَى عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ، فَقَالَتْ: بَلَغَنِي أَنَّـكَ تُحَـرِّمُ أَشْيَاءَ ثَلاثَةً: الْعَلَمَ فِي الثَّوْبِ، وَمِيثَرَةَ الأُرْجُوَانِ، وَصَوْمَ رَجَبٍ كُلِّهِ. فَقَالَ لِـي عَبْدُ اللَّهِ: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ رَجَبٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَصُومُ الأَبَدَ. وَأَمَّا مَا ذَكَـرْتَ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، ح٣٠١٢، ٣/١١٦٢.

مِنَ الْعَلَمِ فِي الثَّوْبِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **إِنَّمَا يَلْبَسُ الْحَرِيرَ مَنْ لاَ خَلاَقَ لَهُ**، فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ الْعَلَمُ مِنْهُ. وَأَمَّا مِيثَرَةُ الأُرْجُوَانِ، فَهَذِهِ مِيثَرَةُ عَبْدِ اللَّهِ فَإِذَا هِيَ أُرْجُوَانٌ. فَرَجَعْتُ إِلَى أَسْمَاءَ فَخَبَّرْتُهَا، فَقَالَتْ: هَذِهِ جُبَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جُبَّةَ طَيَالِسَةٍ كِسْرَوَانِيَّةٍ، لَهَا لِبْنَةُ دِيبَاجٍ، وَفَرْجَيْهَا مَكْفُوفَيْنِ بِالدِّيبَاجِ. فَقَالَتْ: هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَ عَائِشَةَ حَتَّى قُبِضَتْ. فَلَمَّا قُبِضَتْ قَبَضْتُهَا، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَلْبَسُهَا، فَنَحْنُ نَغْسِلُهَا لِلْمَرْضَى يُسْتَشْفَى بِهَا[1]. وتعد هذه الرواية كنزاً فكرياً يدل صراحة على التلاقح الفكري الذي كان ساري المفعول بين العناصر النخبوية، رجالاً ونساء، وكما سيتضح أكثر مع باقي الصحابيات وخاصة عائشة، رضي الله عنها.

عَنْ أَبِي نَوْفَلٍ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى عَقَبَةِ الْمَدِينَةِ. قَالَ فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تَمُرُّ عَلَيْهِ وَالنَّاسُ. حَتَّى مَرَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ. فَوَقَفَ عَلَيْهِ. فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ! السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ! أَمَا وَاللَّهِ! لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا، أَمَا وَاللَّهِ! لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا، أَمَا وَاللَّهِ! لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا. أَمَا وَاللَّهِ! إِنْ كُنْتَ مَا عَلِمْتُ صَوَّاماً، قَوَّاماً، وَصُولاً لِلرَّحِمِ. أَمَا وَاللَّهِ! لأُمَّةٌ أَنْتَ أَشَرُّهَا لأُمَّةٌ خَيْرٌ. ثُمَّ نَفَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ. فَبَلَغَ الْحَجَّاجَ مَوْقِفُ عَبْدِ اللَّهِ وَقَوْلُهُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأُنْزِلَ عَنْ جِذْعِهِ. فَأُلْقِيَ فِي قُبُورِ الْيَهُودِ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُمِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ. فَأَبَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ. فَأَعَادَ عَلَيْهَا

(١) أخرجه مسلم، كتاب اللباس والزينة.

الرَّسُولَ: لَتَأْتِيَنِّي أَوْ لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكِ مَنْ يَسْحَبُكِ بِقُرُونِك. قَالَ: فَأَبَتْ، وَقَالَتْ: وَاللَّه لاَ آتِيكَ حَتَّى تَبْعَثَ إِلَيَّ مَنْ يَسْحَبُنِي بِقُرُونِي. قَالَ: فَقَالَ: أَرُونِي سِبْتَيَّ. فَأَخَذَ نَعْلَيْهِ. ثُمَّ انْطَلَقَ يَتَوَذَّفُ. حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتِنِي صَنَعْتُ بِعَدُوِّ اللَّه؟ قَالَتْ رَأَيْتُكَ أَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ! أَنَا، وَاللَّه، ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ. أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكُنْتُ أَرْفَعُ بِه طَعَامَ رَسُولِ اللَّه ﷺ وَطَعَامَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الدَّوَابِّ. وَأَمَّا الآخَرُ فَنِطَاقُ الْمَرْأَة الَّتِي لاَ تَسْتَغْنِي عَنْهُ. أَمَا إِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ حَدَّثَنَا: «**أَنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّاباً وَمُبِيراً**» فَأَمَّا الْكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ، وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَلاَ إِخَالُكَ إِلاَّ إِيَّاهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهَا وَلَمْ يُرَاجِعْهَا(١).

لم تخش أسماء قول كلمة الحق أمام الحجاج وهي في هذا السن. فكيف تخشى قول الصدق وهي ابنة الصديق؟!. إن جرأتها اكتسبتها من مدرسة النبوة ومن بيت الصديق، الأمر الذي يدعو إلى التأمل والنظر إلى أهمية وجود هذه العناصر في المجتمع. لقد كان لأسماء دور بارز في عهد النبي ﷺ، الأمر الذي خلّدها بلقب ذات النطاقين. لقبت بوسام المشاركة التي بذلتها في بداية طريق الدعوة الإسلامية وفي أحرج فتراتها. ولقد بارك الرسول ﷺ أعمالها، وتأهلت لحمل مسؤولية العلم، علم رسول الله ﷺ، حيث روت عنه (٥٨) حديثاً، شاركت بهم في صنع الفكر الذي بني فيما بعد على أساس تلك المرويات.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة.

٣- أم هانئ[1]:

أم هانيء، اسمها فاختة، بنت عم النبي ﷺ أبي طالب عبد مناف ابن عبد المطلب بن هاشم الهاشمية المكية. قال الحاكم: قال أحمد بن حنبل: أم هانئ بنت أبي طالب اسمها هند وأمها فاطمة بنت أسد بن هاشم. ثم قال الحاكم: هكذا ذكر الإمام أبو عبد الله، رضي الله عنه، اسم أم هانئ» وقد تواترت الأخبار أن اسمها فاختة[2]. اشتهرت بمكة بألها إحدى ذوات الرأي السديد والأدب الجم، أخت علي وجعفر. خطبها الرسول ﷺ و لم يتم زواجه منها. عاشت أم هانيء إلى ما بعد سنة خمسين.

بلغت مرويات أم هانئ ستة وأربعين حديثاً، وهي موجودة في الكتب الستة. وهي تاسع صحابية من حيث الكثرة في الرواية. روى عنها حفيدها جعدة ومولاها أبو صالح باذام وكريب مولى ابن عباس وعبد الرحمن بن أبي ليلى ومجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح. ومجمل مروياها تدور حول مايتعلق بالغسل، وصلاة الضحى، جواز المرأة إيجار من استأجرها، عن لباس

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٥١/٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة ٦٢٤/٥؛ سير أعلام النبلاء، ج٣١١/٢-٣١٤؛ ابن حجر، الإصابة ٤٧٩/٤؛ أحمد حامد، قمم نسائية في الإسلام، ص٢٤٣؛ سليم، محمد إبراهيم نساء حول الرسول ﷺ ، ص١٤؛ إدارة المكتبات بوزارة التربية في الكويت، أعلام الأنصار والأنصاريات، ص١٣٠؛ العك، خالد عبد الرحمن، موسوعة عظماء حول الرسول، ص٢١٨٥.

(٢) أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ذكر أم هانئ فاختة بنت أبي طالب ابن عبد المطلب ابنة عم رسول الله ﷺ وأختُ علي، رضي الله عنه، ج٤، حديث ٦٨٦٩.

الرجل في الصلاة، حول الصيام، وعن قيمة التسبيح، وفي قضايا التفسير، وعن كيفية قراءة النبي ﷺ للقرآن، وفضائل أهل قريش[1].

لقد اشتهرت أم هانئ بموقفها من إجارتها، فعن أبي مرة، مولى أم هانئ بنت أبي طالب، أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب، تقول: «ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ. قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ. فَقَالَ: **مَرْحَباً بِأُمِّ هَانِئٍ**، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفاً فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلاً قَدْ أَجَرْتُهُ فُلاَنَ ابْنَ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ**، قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ: وَذَاكَ ضُحًى»[2].

لقد اشتهرت أم هانئ بهذا الموقف الذي يدل على قوة شخصيتها من جهة، وفيه دليل قوي على جواز قبول إجارة المرأة.

و لم تزودنا المصادر -على حد علمنا- بسيرة مستوفية لهذه الصحابية الجليلة على الرغم من أنها روت (٤٦) حديثاً، وهي تعتبر التاسعة. لقد كان

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب التستر في الغسل عن الناس، ج١، ح٢٧٦؛ وكتاب الصلاة، باب عقد الإزار على القفا في الصلاة، ج١، ح٣٤٦؛ صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، حديث ٣٣٥-٣٣٧، ٢٦٥/١-٢٦٦؛ كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى، ح٧٢٢، ص٤٩٩. وانظر أيضاً: المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة العنكبوت، ج٢، ح٣٥٣٧، وفي تفسير سورة قريش، ج٢، ح٣٩٧٥. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة.

لها موقف سياسي في عهد النبي ﷺ بمجرد إجارتها لحمويها. ولا نستبعد أن تكون لها مواقف أخرى، غير أن المصادر لم تزودنا بها. يبقى أن نقلها لتلك الروايات يعكس موقعها في النخبة المثقفة حيث أسهمت في إثراء الثروة السنية التي بني عليها الفكر الإسلامي فيما بعد. ورأينا أنها روت في مجالات مختلفة، هذا ما يدل على تأثيرها في تلك المجالات، كما تعبر عن اهتماماتها خاصة إذا علمنا، كما ذكرت سابقاً، أنها اشتهرت بسداد الرأي والأدب الجم.

٤- أم عطية الأنصارية[١]:

أم عطية الأنصارية اسمها نسيبة بنت الحارث. وقيل: نسيبة بنت كعب[٢]. وكانت من كبار نساء الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين. أسلمت مع السابقات من نساء الأنصار، وبايعت النبي ﷺ مع نسوة من الأنصار بيعتها المشهورة، وشهدت غسل ابنة النبي ﷺ زينب. وكان جماعة من الصحابة وعلماء التابعين بالبصرة يأخذون عنها غسل الميت. تعتبر من فقهاء الصحابة -كما يذكر الذهبي- وكانت تغزو كثيراً مع رسول الله ﷺ تمرض المرضى وتداوي الجرحى.

روت أم عطية عن النبي ﷺ أربعين (٤٠) حديثاً، وهي تُعد عاشر راوية من حيث الكثرة. روى عنها أنس بن مالك؛ ومحمد بن سيرين؛ وأخته حفصة

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب، ١٩٤٧/٤؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣١٨/٢؛ ابن حجر، الإصابة، ج٦٢٠/٧؛ أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ٢٤٣/١، ٢٥٤؛ ٦١/٢؛ إدارة المكتبات بوزارة التربية في الكويت، أعلام الأنصار والأنصاريات، ص١٢٠؛ العك، خالد عبدالرحمن، موسوعة عظماء حول الرسول، ص٢١٥٨.

(٢) وجاء في ابن سعد، الإصابة، ولم عطية إن كانت الأنصارية فالمشهور أن اسمها نسيبة، ٦٢٠/٧.

بنت سيرين؛ وأم شراحيل؛ وعلي بن الأقمر؛ وعبد الملك بن عمير؛ وإسماعيل ابن عبد الرحمن؛ وعاشت إلى حدود سنة سبعين. حديثها مخرج في الكتب الستة. اتفق البخاري ومسلم على ستة، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بحديث[1].

لقد كانت حريصة على الالتزام بأوامر ونواهي الرسول ﷺ. فعن أم عطية قالت: «أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ الْبَيْعَةِ أَلاَّ نَنُوحَ، فَمَا وَفَتْ مِنَّا امْرَأَةٌ إِلاَّ خَمْسٌ: أُمُّ سُلَيْمٍ، وَأُمُّ الْعَلاَءِ، وَابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ امْرَأَةُ مُعَاذٍ أَوِ ابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ، وَامْرَأَةُ مُعَاذٍ»[2].

موقع أم عطية في الوسط النخبوي بعد وفاة النبي ﷺ:

لقد كانت أم عطية فقيهة ومعلمة، تخرجت من مدرسة المصطفى ﷺ. عن حفصة بنت سيرين قالت: «كُنَّا نَمْنَعُ جَوَارِيَنَا أَنْ يَخْرُجْنَ يَوْمَ الْعِيدِ. فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فَنَزَلَتْ قَصْرَ بَنِي خَلَفٍ فَأَتَيْتُهَا، فَحَدَّثَتْ أَنَّ زَوْجَ أُخْتِهَا غَزَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ غَزْوَةً، فَكَانَتْ أُخْتُهَا مَعَهُ فِي سِتِّ غَزَوَاتٍ. فَقَالَتْ: فَكُنَّا نَقُومُ عَلَى الْمَرْضَى وَنُدَاوِي الْكَلْمَى. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعَلَى إِحْدَانَا بَأْسٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا جِلْبَابٌ، أَنْ لاَ تَخْرُجَ؟ فَقَالَ: **لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا فَلْيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ، وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ**. قَالَتْ حَفْصَةُ: فَلَمَّا قَدِمَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ، أَتَيْتُهَا فَسَأَلْتُهَا، أَسَمِعْتِ فِي كَذَا وَكَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ بِأَبِي -وَقَلَّمَا ذَكَرَتِ النَّبِيَّ ﷺ إِلاَّ قَالَتْ بِأَبِي- قَالَ: **لِيَخْرُجِ الْعَوَاتِقُ ذَوَاتُ الْخُدُورِ**. أَوْ قَالَ: **الْعَوَاتِقُ**

---

(١) انظر: ابن سعد، الإصابة ٤/٤٥٥؛ سير الأعلام، ٢/٣١٨.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز.

وَذَوَاتُ الْخُدُورِ -شَكَّ أَيُّوبُ- وَالْحُيَّضُ. وَيَعْتَزِلُ الْحُيَّضُ الْمُصَلَّى، وَلْيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ، وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهَا: الْحُيَّضُ. قَالَتْ: نَعَمْ. أَلَيْسَ الْحَائِضُ تَشْهَدُ عَرَفَاتٍ؟ وَتَشْهَدُ كَذَا؟ وَتَشْهَدُ كَذَا؟»[1].

جاء في شرح الحديث ما يلي: «قوله: عواتقنا، العواتق جمع عاتق وهي من بلغت الحلم أو قاربت أو استحقت التزويج... أو التي عتقت عن الامتهان في الخروج للخدمة. وكأنهم كانوا يمنعون العواتق من الخروج لما حدث بعد العصر الأول من الفساد، ولم تلاحظ الصحابية ذلك بل رأت استمرار الحكم على ما كان عليه في زمن النبي ﷺ... وقوله: وكذا وكذا، أي ومزدلفة ومنى وغيرهما»[2].

لم ترَ الصحابية الجليلة -كما يبدو في الرواية- في تعطيل حكم خروج العواتق لحضور صلاة العيد حلاً لظاهرة الفساد والذي كان وراءه فساد وظيفة الشعراء الذين كانوا يمثلون إعلام ذلك العصر؛ لأن مبدأ سد الذريعة في هذا الموضع لا يضع نهاية مطلقة لحل هذه الظاهرة؛ بل يبحث في أبسط الحلول بدلاً من أن يحاول اكتشاف الأسباب الحقيقية. ويبدو في الرواية أيضاً أسلوب الإقناع الذي حاولت أن تقنع به أم عطية صاحبتها التي لم تقف عند قول النبي ﷺ بل احتجت بقولها آلحيض؟ ولم تنكر عليها أم عطية بل أقنعتها بحجة

---

(١) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجمعة.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، باب شهود الحائض العيدين، ١/٤٢٣-٤٢٤.

أخرى، بدليل أن الحائض تشهد مزدلفة وغيرها. ويذكر الذهبي أن أم عطية اشتهرت بقولها «نهينا عن اتباع الجنازة و لم يعزم علينا»[1].

و لم تكن أم عطية مهتمة بالمجال الفقهي فحسب، بل كانت تحرص على الخروج إلى الجهاد. عن أم عطية الأنصارية قالت: «غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ، أَخْلُفُهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، فَأَصْنَعُ لَهُمُ الطَّعَامَ، وَأُدَاوِي الْجَرْحَى، وَأَقُومُ عَلَى الْمَرْضَى»[2]. ومن بين تلك الغزوات غزوة خيبر.

وخلاصة القول: إن أم عطية رغم أنها عرفت بين الصحابة أنها كانت فقيهة إلا أن فقهها لم يصلنا، إلا ما اتصل بروايتها لحديث النبي ﷺ. فكل ما وقفت عليه كما ورد في المصادر هو مسألة غسل الميت، وزيارة القبور ومسألة خروج شهود العواتق والحيض لصلاة العيد، ومسألة غزو النساء مع رسول الله ﷺ، ومسألة أن النبي ﷺ كان يأكل من الهدية وليس من الصدقة. وللأسف هذا لا يفي الغرض لتقييم الفقه الذي كانت تحمله و لم يصلنا. يبقى أن القليل الذي وصل يفيد أن تأثيرها في الوسط النخبوي كان حاضراً، يكفي أنها لم تر تغيير الحكم بسبب فساد الزمان. وهذه قاعدة يمكن أن يبنى عليها تيار فكري يترتب عنه حياة أفضل لواقع المرأة المسلمة يحفظ لها كل المكتسبات التي حققتها من عهد المصطفى ﷺ كمن سبقها من الصحابيات اللآتي ذكرت ومن سأورده فيما بعد، فإن أم عطية نقلت من علم رسول الله ﷺ (٤٠) حديثاً مما يثبت تأثيرها في الفكر الذي بني على الثروة السنية. ورغم أن المصادر تصفها بأنها كانت فقيهة وذات عقل، إلا أن ما جاد به عقلها لم يصلنا.

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢١٨/٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير.

٥- فاطمة بنت قيس[1]:

فاطمة بنت قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن سنان ابن محارب بن فهر الفهري أبو أنيس وأبو عبد الرحمن القرشية الفهرية، أخت الضحاك وكانت أسن منه. قال ابن عبد البر: كانت من المهاجرات الأول. كانت تحت أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي فطلقها، فخطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم، فتزوجت بمشورة من الرسول ﷺ بعد انقضاء عدتها حيث نصحها بأسامة بن زيد بدل معاوية - الذي قال عنه أنه رجل فقير-، وأبي جهم -الذي قال عنه أنه رجل ضراب للنساء-. فاختارت أسامة رغم أنها لم تكن ترغب فيه، نتيجة تفضيل الرسول له على غيره، وطاعة لرسول الله ﷺ. وكانت ذات عقل وجمال، فهي إحدى الصحابيات العالمات والفقيهات. اجتمع أهل الشورى في بيتها بعد مقتل عمر. عاشت إلى غاية ما بعد سنة خمسين للهجرة، وتوفيت في خلافة معاوية.

روت فاطمة بنت قيس أربعة وثلاثين حديثاً. وهي الراوية الرابعة عشرة من حيث كثرة الرواية؛ لها حديث متفق عليه، ولمسلم ثلاثة أحاديث. و لم تتحفنا المصادر بمشاركتها أو إسهاماتها العقلية. ويبدو أنها اهتُمَّ بها فقط بسبب ارتباطها بمسألة فقهية مشهورة، وهي النفقة للمطلقة طلاقاً بائناً.

---

(١) ابن سعد، الإصابة، ٦٩/٨ و٣٧٣/٤؛ سير أعلام النبلاء، ٣١٩/٢؛ سليم، محمد إبراهيم، نساء حول الرسول ﷺ، ص١٢٠؛ وانظر الحديث الذي أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، ج٢، كل الروايات التي جاءت تابعة للحديث رقم١٤٨٠.

ووردت رواية لها تسأل فيها النبي ﷺ عن الاستحاضة[1]. ويظهر من خلال بعض الأدلة أنها كانت مهتمة بأمور المسلمين، وكانت تعي دورها في المجتمع. ويبدو كذلك أنها كانت فعلاً ذات عقل.

يتجلى علم فاطمة بنت قيس بالقرآن، من خلال استدراكها على الرجال في قضايا خاصة بالنساء، وتمس مصلحة الرجال. فعن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُتْبَةَ أَنَّ أَبَا عَمْرِو بْنَ حَفْصِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، خَرَجَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى الْيَمَنِ، فَأَرْسَلَ إِلَى امْرَأَتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ بِتَطْلِيقَةٍ كَانَتْ بَقِيَتْ مِنْ طَلَاقِهَا. وَأَمَرَ لَهَا الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ بِنَفَقَةٍ. فَقَالاَ لَهَا: وَاللَّهِ مَا لَكِ نَفَقَةٌ إِلاَّ أَنْ تَكُونِي حَامِلاً، فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَتْ لَهُ قَوْلَهُمَا فَقَالَ: **لاَ نَفَقَةَ لَكِ**، فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي الانْتِقَالِ، فَأَذِنَ لَهَا. فَقَالَتْ: أَيْنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: **إِلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ**، وَكَانَ أَعْمَى، تَضَعُ ثِيَابَهَا عِنْدَهُ وَلاَ يَرَاهَا. فَلَمَّا مَضَتْ عِدَّتُهَا، أَنْكَحَهَا النَّبِيُّ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا مَرْوَانُ قَبِيصَةَ بْنَ ذُؤَيْبٍ يَسْأَلُهَا عَنِ الْحَدِيثِ. فَحَدَّثَتْهُ بِهِ فَقَالَ مَرْوَانُ: لَمْ نَسْمَعْ هَذَا الْحَدِيثَ إِلاَّ مِنِ امْرَأَةٍ، سَنَأْخُذُ بِالْعِصْمَةِ الَّتِي وَجَدْنَا النَّاسَ عَلَيْهَا. فَقَالَتْ فَاطِمَةُ حِينَ بَلَغَهَا قَوْلُ مَرْوَانَ: فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمُ الْقُرْآنُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ (الطلاق:١)، قَالَتْ هَذَا لِمَنْ كَانَتْ لَهُ مُرَاجَعَةٌ، فَأَيُّ أَمْرٍ يَحْدُثُ بَعْدَ الثَّلاَثِ، فَكَيْفَ تَقُولُونَ: لا نَفَقَةَ لَهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ حَامِلاً؟ فَعَلاَمَ تَحْبِسُونَهَا»[2].

---

(١) انظر: الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج٤، ح٦٨٨٣.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الطلاق.

وبحكم كونها امرأة تعلم فاطمة بنت قيس الضرر الذي يلحق بالمطلقة ثلاثاً إذا لم يرخص لها أن تعتد خارج بيتها، واعتبرت حبسها في بيت زوجها بدون نفقة ظلماً لها، فرأت أنه من مصلحتها أن تعتد في بيت زوجها في الطلاق الرجعي، إذ لها الحق في النفقة وقد يراجعها زوجها. وأما أن تعتد في بيت زوجها بعد الطلقة الثالثة ليس لها في ذلك مصلحة، فلا نفقة ولا رجعة. فإذن الرسول ﷺ لها بالانتقال كان لمصلحتها. ويبدو جلياً من خلال هذه الرواية رجاحة عقلها.

ويتجلى حضور فاطمة في الموقع النخبوي من خلال حرصها على اهتمامها بأمور المسلمين. روي «عن عامر أَنَّهُ سَأَلَ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ، أُخْتَ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلِ، فَقَالَ: «حَدِّثِينِي حَدِيثاً سَمِعْتِيهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لاَ تُسْنِدِيهِ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ، فَقَالَتْ: لَئِنْ شِئْتَ لأَفْعَلَنَّ، فَقَالَ لَهَا: أَجَلْ حَدِّثِينِي. فَقَالَتْ:.... فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي سَمِعْتُ نِدَاءَ الْمُنَادِي مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُنَادِي الصَّلاَةَ جَامِعَةً فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلاَتَهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: **لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلاَّهُ**، ثُمَّ قَالَ: **أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟** قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **إِنِّي وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لأَنَّ تَمِيماً الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيّاً فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ وَحَدَّثَنِي حَدِيثاً وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة. ولقد أورد أحمد رواية مفصلة مطولة عن موضوع الدجال الذي روته، مما يدل على رجاحة عقلها، ويدل أيضاً على أنها كانت تفقه أموراً متعلقة بالدولة وإلا ماكانت لتحفظها.

ويمكننا أن نستخلص من هذا الحديث أموراً كثيرة هي كالآتي:

- استجابتها للنداء مباشرة بعد انقضاء عدتها، مما يدل على أن الطلاق لم يسبب لها أزمة نفسية تبعدها عن المجتمع، لأن الطلاق آنذاك كان يعد حلاً وليس مشكلة، والذي يؤكد ذلك أنها جلست في صف النساء الذي يلي ظهور القوم.

- لم يمنعها انقضاء عدتها التخلي عن الاهتمام بأمور المسلمين العامة، فهي مثل أخيها الرجل تنشد أن تكون خليفة الله في الأرض، فيهمها أن تكون على اتصال بقضايا الأمة.

- تدل هذه الرواية، على أن الصحابية لم تكن تهتم بقضايا المرأة فقط، وإنما كانت حريصة على مختلف القضايا التي تخص المسلمين. ومنها ما قد يهدد مستقبل المجتمع.

وحسب ما ذكرت المصادر فإن فاطمة بنت قيس كانت ذات عقل راجح، وأن في بيتها اجتمع أهل الشورى بعد مقتل عمر، رضي الله عنه، وهذا دليل على حضور فاطمة في الموقع النخبوي دون أن يصلنا ماجاد به عقلها، ولا السبب الذي رشح بيتها ليحتضن مثل ذلك الاجتماع الذي يحدد مصير الأمة. يمكننا تأويل هذا الاختيار بأنه دليل على اهتمام فاطمة بالقضايا السياسية.

٦- أم شريك، خولة بنت حكيم[١]:

أم شريك صحابية جليلة، رضي الله عنها، يقال لها خويلة، وهي خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة السلمية. وقيل: إنها قرشية عامرية. وقيل: إنها أنصارية. وقيل: إنها غزيلية. ويبدو أنها كانت من بين اللواتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، غير أنه لم يدخل بها. كانت قبل ذلك تحت عثمان بن مظعون. روي عن قتادة أنه قال: «تزوج رسول الله ﷺ أم شريك الأنصارية من بني النجار، وقال: **إني أحب أن أتزوج في الأنصار**. ثم قال: **إني أكره غيرهن**، فلم يدخل بها»[٢].

أما عن روايتها في الحديث فلقد روت أم شريك عن النبي ﷺ خمسة عشر حديثاً. وروى لها مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه. وروى عنها سعد ابن أبي وقاص وسعيد بن المسيب ومحمد بن يحي بن حبان وعمر بن عبد العزيز.

يتجلى مستوى أم شريك الاجتماعي وفعاليتها في المجتمع من خلال رواية يرويها عامر بن شراحيل الشعبي عن فاطمة بنت قيس مطولة اقتطفت منها مايخدم الموضوع: «... فَقَالَ -أي النبي ﷺ-: **انْتَقِلِي إِلَى أُمِّ شَرِيكٍ،**

---

(١) ابن الأثير، البداية والنهاية، ٣٠٠/٥. ابن الجوزية، صفة الصفوة، ٥٣/٢. عبد الرحمن بن أبي بكر أبو الفضل السيوطي (٨٣٩هـ/٩١١هـ)، تنوير الحوالك، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ٣٤/١؛ المناوي، عبد الرؤوف، فيض القدير، ٤٠٣/٢؛ إدارة المكتبات بوزارة التربية في الكويت، أعلام الأنصار والأنصاريات، ص١١١؛ العك، خالد عبد الرحمن، موسوعة عظماء حول الرسول، ص٢١٤١؛ كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ٣٨٤/١.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ذكر أم شريك الأنصارية من بني النجار ج٤، ح٦٨١٠. وسكت عنه الحاكم والذهبي.

وَأُمُّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ غَنِيَّةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، عَظِيمَةُ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَنْزِلُ عَلَيْهَا الضِّيفَانُ فَقُلْتُ: (أي فاطمة): سَأَفْعَلُ. فَقَالَ: لاَ تَفْعَلِي، إِنَّ أُمَّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ كَثِيرَةُ الضِّيفَانِ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَسْقُطَ عَنْكِ خِمَارُكِ، أَوْ يَنْكَشِفَ الثَّوْبُ عَنْ سَاقَيْكِ، فَيَرَى الْقَوْمُ مِنْكِ بَعْضَ مَا تَكْرَهِينَ، وَلَكِنِ انْتَقِلِي إِلَى ابْنِ عَمِّكِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِهْرٍ»(١).

ويتضح اهتمام أم شريك بأمور المسلمين من خلال رواية عن جابر ابن عبد الله يقول: «أَخْبَرَتْنِي أُمُّ شَرِيكٍ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: لَيَفِرَّنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَّالِ فِي الْجِبَالِ. قَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: هُمْ قَلِيلٌ»(٢).

وخلاصة القول: على الرغم من أن أم شريك كانت عظيمة النفقة، وينزل عليها الكثير من الضيوف، وهذا ما يفسر وجود احتكاكٍ لها بالناس بشكل واضح، كما جاء في الرواية كانت بشكل ظاهر وكثير، إلا أن المصادر لم تنقل إلينا إسهاماتها الاجتماعية أو الفكرية باستثناء الروايتين اللتين ذكرتهما. كما لم تصلنا الحوارات التي كانت تجري بين القوم في بيتها، وأثرها في ذلك.

وفي الواقع تُعد أم شريك أنموذجاً نخبوياً متميزاً، فإلى جانب روايتها للحديث رغم قلة مروياتها، إلا أنها كانت تساهم في المجتمع بمالها. فاستقبالها للضيفان في بيتها هو تعزيز لاتجاه فكري معين وتأكيد له، سواء من حيث

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة.

استقلالية المرأة المالية وانعكاساتها الإيجابية على المجتمع، أو من حيث مشاركتها الاجتماعية الإيجابية بدل صرف المال في ملذات الدنيا ومتاعها.

٧- أم سليم، الغميصاء بنت ملحان[١]:

يبدو أن أم سليم الغميصاء كانت تلقّب بألقاب كثيرة. فيقال لها الرميصاء، ويقال سهلة، ويقال أنيفة، ويقال رميثة، بنت ملحان بن خالد ابن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار الأنصارية الخزرجية. أسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار. أم خادم النبي ﷺ أنس بن مالك. فمات زوجها مالك بن النضر ثم تزوجها أبو طلحة زيد ابن سهل الأنصاري، فولدت له أبا عمير وعبد الله. شهدت حنيناً وأحداً وكانت من فضليات النساء. روت عن النبي ﷺ أربعة عشر حديثاً، اتفق لها البخاري ومسلم على حديث وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بحديثين.

ولقد حظيت الغميصاء بمكانة خاصة عند النبي ﷺ، فعن أنس قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لاَ يَدْخُلُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِ إِلاَّ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: **إِنِّي أَرْحَمُهَا، قُتِلَ أَخُوهَا مَعِي**». وفي

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢/٣٠٤-٣١١. ابن سعد، الإصابة، ٤/٤٤١. أحمد حامد، قمم نسائية في الإسلام، ص٢٣٧؛ العك، خالد عبد الرحمن، موسوعة عظماء حول الرسول، ص٢١٣٥؛ محمد رفعت، شهيرات النساء العربيات والمسلمات، ص١١٣؛ إدارة المكتبات بوزارة التربية في الكويت، أعلام الأنصار والأنصاريات، ص١٠٧؛ سليم، محمد إبراهيم، نساء حول الرسول ﷺ، ص١٨٦؛ أحمد الجدع، صحابيات ومواقف، ص ٧٩؛ أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ١/٢٣٧.

رواية عنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «**دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْفَةً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذِهِ الْغُمَيْصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ أُمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ**»(١).

لقد اشتهرت الغميصاء بالمهر الذي طلبته من أبي طلحة مقابل الزواج بها. لقد كان مهرها الإسلام رغم تمتع أبي طلحة بكثرة المال(٢).

وهذا دليل على قيمة وأهمية المهر. فهي لم تطلب منه المال نتيجة زهدها؛ لأنه لم يكن هناك ما يمنعها أن تطلبه فهو غني، وطلب مهر مادي سهل عليه أداؤه. طلبت منه شيئاً لا يملكه وهو الإسلام. فبالنسبة لها لا يكافئها لأنه كافر. فالمهر الذي يتقدم به الرجل يجب أن يعبر عن مدى رجولة الرجل واستعداده لتحمل مسؤوليته، وأنه قادر أن يوفر لها الرعاية والحماية. غير أن بعض الناس أساؤوا استخدام قصتها وراحوا يشجعون الرجال على الكسل وعدم التفاني في القيام على رعاية المرأة، ومحاولة بذل كل مافي وسعهم فيجتهد في الحصول على ما يثبت استعداده على تحمل مسؤوليته تجاه هذه المرأة التي يرغب في الزواج بها. وليس بالضرورة مهراً مادياً كما فعلت أم سليم. فأيسرهن مهراً أكثرهن بركة. فمهري مثلاً كان نصفه مادي رمزي والنصف الآخر كان عندي أهم وهو أن يعينني زوجي ويوفر لي الظروف المناسبة لإتمام الدراسة للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه. وفعلاً بارك الله لنا في زواجنا.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة.

(٢) انظر الحديث الذي أخرجه النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي (٢١٥هـ/٣٠٣هـ)، سنن النسائي (المجتبى)، ط٢ (حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) باب التزويج على الإسلام، ج٦، ح٣٣٤٠، ح٣٠٤١.

وواجهتنا عراقيل في الطريق أكسب مهري المعنوي زوجي طاقة أكبر لتحملها. فكان من الممكن أن يستسلم أمام تلك الظروف لكن بفضل الله أراد أن يوفي وعده فاستطاع تجاوز تلك العقبات.

واشتهرت أم سليم أيضاً بصبرها الشديد على موت ولدها[1]. ولقد كانت أم سليم حريصة على حسن التزامها بأوامر النبي ﷺ. فعن أم عطية قالت: «أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ الْبَيْعَةِ أَلاَّ نَنُوحَ، فَمَا وَفَتْ مِنَّا امْرَأَةٌ إِلاَّ خَمْسٌ: أُمُّ سُلَيْمٍ، وَأُمُّ الْعَلاَءِ، وَابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ امْرَأَةُ مُعَاذٍ -أَوِ ابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ وَامْرَأَةُ مُعَاذٍ[2].

كما كانت حريصة على أن تستفسر عن قضايا فقهية، لم يمنع الحياء أم سليم أن تستفسر في قضايا دينها حتى ولو كانت محرجة. فعن أم سلمة قالت: «جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ**. فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ، تَعْنِي وَجْهَهَا، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: **نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا**»[3].

عن إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك، قال: «جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ -وَهِيَ جَدَّةُ إِسْحَاقَ- إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ لَهُ وَعَائِشَةُ عِنْدَهُ:

---

(١) انظر الحديث الذي أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي طلحة الأنصاري، رضي الله عنه، ١٩٠٩/٤، ح٢١٤٤.
(٢) أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، ٦٤٥/٢، ح٩٣٦.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب العلم.

يَا رَسُولَ اللَّه، الْمَرْأَةُ تَرَى مَا يَرَى الرَّجُلُ فِي الْمَنَام، فَتَرَى مِنْ نَفْسِهَا مَا يَرَى الرَّجُلُ مِنْ نَفْسه، فَقَالَتْ عَائشَةُ: يَا أُمَّ سُلَيْم، فَضَحْت النِّسَاءَ تَرِبَتْ يَمينُك. فَقَالَ لعَائشَةَ: **بَلْ أَنْت فَتَرِبَتْ يَمينُك، نَعَمْ فَلْتَغْتَسلْ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِذَا رَأَتْ ذَاك**»[1]. لقد أقر الرسول ﷺ المجال الذي كانت تظن عائشة أنه محظور على النساء السؤال فيه. فها هو يعلمهن ويشجعهن على السؤال وبدون حرج.

ولقد كان لأم سليم موقف خاص مع رسول الله ﷺ، حيث إنها أشارت عليه يوم غزوة حنين -وهو بمثابة رئيس الدولة آنذاك- في أخطر القضايا المتعلقة بالدولة، وهو استئصال المعارضة الخفية. لقد رأت في الطلقاء خطراً كبيراً على الدولة الإسلامية؛ لأنها اعتقدت أنهم أسلموا على مضض، يظهرون ما لا يبطنون أي منافقون. وعن أنس أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر. فقال لها رسول الله ﷺ: **مَا هَذَا الْخنْجَرُ**؟ قَالَت: اتَّخَذْتُهُ إِنْ دَنَا منِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ. فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَضْحَكُ. قَالَتْ: اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ الطُّلَقَاء، انْهَزَمُوا بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ**»[2].

ولم تكن الغميصاء مهتمة بالقضايا السياسية فحسب، بل كانت تشارك في الجهاد أيضاً. فعن أنس بن مالك قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْزُو

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحيض.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير.

بِأُمِّ سُلَيْمٍ وَنِسْــوَةٍ مِنَ الأَنْصَــارِ مَعَهُ، إِذَا غَزَا فَيَــسْقِينَ الْمَــاءَ، وَيُــدَاوِينَ الْجَرْحَى»[١].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ عَــنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبُو طَلْحَــةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ. قَالَ: وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلاً رَامِياً شَدِيدَ النَّزْعِ، وَكَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً. قَالَ: فَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَــهُ الْجَعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ، فَيَقُولُ: **انْثُرْهَا لأَبِي طَلْحَةَ**، قَالَ: وَيُشْرِفُ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ. فَيَقُــولُ أَبُو طَلْحَــةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لاَ تُشْرِفْ لاَ يُصِبْكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ. قَــالَ: وَلَقَــدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَأُمَّ سُلَيْمٍ، وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ، أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُلاَنِ الْقِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِهِمْ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلآنِهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْــفُ مِنْ يَــدَيْ أَبِي طَلْحَـــــةَ إِمَّا مَرَّتَيْنِ وَإِمَّا ثَلاَثاً مِنَ النُّعَاسِ»[٢].

وخلاصة القول: إن أم سليم كان لها موقع في الوسط النخبوي، ســواء بالأحــاديث التي روتــها عن رســول الله ﷺ، أو آرائها السياسية المصيرية، أو بمشاركتها في الجهــاد. إن إسهاماتها في عهد النبي ﷺ مع إقرار النبي بذلك -وهو كان بمثابة رئيس الدولــة- دليل على إقرار النبي لهذا الموقع في المجتمع. فلو كان موقع المرأة النخبــوي محصوراً في مجال معين لأنكر عليها، ولقال لها: لا دخل للنساء في شؤون السياسة. العكس تماماً حدث فقد كان، عليه أفضل الصلاة والتسليم، يأخذ ويرد معها في الكلام.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير.

٨- الشفاء بنت عبد الله[1]:

عن مصعب بن عبد الله الزبيري «أن الشفاء هي من نساء قريش اللاتي صحبن رسول الله ﷺ، وهي بنت عبد الله، وهي أم سليمان بن أبي حثمة القرشي وجدة أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة»[2]. وقيل: إن اسمها ليلى وغلب عليها الشفاء. أسلمت الشفاء قبل الهجرة، فهي من المهاجرات الأول، وبايعت النبي ﷺ. روى عنها حفيداها أبو بكر وعثمان ابنا سليمان بن أبي حثمة. وروى عنها أيضاً ابنها سليمان وأبو سلمة بن عبد الرحمن وحفصة أم المؤمنين ومولاها أبو إسحاق.

ولقد كانت الشفاء امرأة أنموذجاً، تميزت بصفات مميزة، صنفت -حسب ما ورد في الاستيعاب- من ضمن عقلاء النساء وفضليائهن. كانت إحدى النساء القرشيات ممن يعرفن الكتابة والقراءة. وهذه الصفات تدل على أنها كانت لها بالتأكيد آثار واضحة في وسط النخبة المثقفة آنذاك. وسيتضح هذا أكثر في إسهاماتها التي وصلتنا من خلال المصادر. ومما يزيد تأكيد فضلها أن رسول الله ﷺ يأتيها ويقيل عندها في بيتها. وكانت قد اتخذت له فراشاً

---

(١) أبو بكر، أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني، الآحاد والمثاني، ٤/٦، ح٣١٧٩؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ١٨٦٩/٤؛ ابن حجر، الإصابة، ٣٣٣/٤؛ أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ٣٧٠/٢؛ ١٨٦٨/٣؛ سليم، محمد إبراهيم، نساء حول الرسول ﷺ، ص١١٨.

(٢) أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ذكر الشفاء بنت عبد الله القرشية، رضي الله عنها، ج٤، ح٦٨٨٧،٦٨٨٦.

وإزاراً ينام فيه، فلم يزل ذلك عند ولدها، حتى أخذه منهم مروان. ولقد أقطعها رسول الله ﷺ داراً عند الحكاكين فنزلتها مع ابنها سليمان.

موقع الشفاء النخبوي قبل وبعد وفاة الرسول ﷺ :

يبدو أن الشفاء قد برزت كفاءاها قبل الإسلام، فلقد كانت ترقي من النملة، ويقصدها ليس النساء فقط بل الرجال أيضاً، كان يقصدونها طلباً للتداوي، فهي كانت بمثابة ما يطلق عليه الآن (الطبيبة). ويبدو أيضاً أنها تعلمت الكتابة في الجاهلية طبقاً للروايات. واستمرت في نشاطها في عهد الإسلام بإقرار من النبي ﷺ فلقد قصدها رجال لترقيهم من قرصة النملة فلم يمنعها الرسول ﷺ من ذلك، بل شجعها وأمرها بتعليم حفصة ذلك، كما أقر لها تعليمها الكتابة. فيبدو أن حفصة كانت تمتلك المؤهلات نفسها، مما حدا بالرسول ﷺ لتشجيع هذا النوع من النساء على تنمية قدراتهن واستثمارها في المجتمع. فعن أبي بكر بن سليمان «أن رجلاً من الأنصار نملة خرجت به، فدل أن الشفاء بنت عبد الله ترقي من النملة. فجاءها فسألها أن ترقيه، فقالت: والله ما رقيت منذ أسلمت. فذهب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالذي قالت الشفاء، فدعا رسول الله ﷺ الشفاء، فقال: **اعرضي علي**، فعرضتها عليه. فقال: **أرقيه وعلميها حفصة كما علمتيها الكتاب**» (وفي روايات: **الكتابة**)[1].

إن هذه الرواية غنية بالأخبار التي تهمنا في الموضوع. ثبت من خلال الرواية أن الشفاء كانت ترقي في الجاهلية. مما يدل على أن نخبة من النساء كن

---

(١) أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ذكر الشفاء بنت عبد الله القرشية، رضي الله عنها، ج٤، ح٦٨٨٨، ٦٨٨٩، ٦٨٩٠.

يمارسن نشاطات معينة، فلم تكن كل النساء تُوأد. فعندما عرضتها على النبي ﷺ أقرها، وأكثر من ذلك، أنه أمرها أن ترقي الرجل، وأمرها بتعليمها حفصة ذلك، دون أن يوجه تخصيص ذلك بالنساء، أي لم يشترط على حفصة أن تمارس هذه الرقية على النساء فقط. هذا من جهة، ومن ناحية أخرى فلقد جعلنا الرسول ﷺ نكتشف أن الشفاء هي التي علمت حفصة الكتابة.

يدّعِي بعضهم أن نساء الصحابة لم يتجاوز نشاطهن القضايا الاجتماعية، وأنهن كن متخصصات في القضايا المتعلقة بالنساء فقط، ولكن يبدو -كما ورد في بعض المصادر- أن الشفاء كانت على علم بشؤون السوق. فعن يزيد بن أبي حبيب أن عمر استعمل الشفاء على السوق قال: ولا نعلم امرأة استعملها غير هذه[1]. وجاء في الاستيعاب «وكان عمر يقدمها في الرأي، ويرضاها ويفضلها، وربما ولاها شيئاً من أمر السوق»[2].

ويبدو أن الشفاء قد نقلت خبرتها لابنها بدليل تعيين عمر له في المجال نفسه. ونقلت له صلاحها أيضاً فلقد برعت في المجالين، في التربية والاقتصاد. لقد جاء في الاستيعاب أن «سليمان بن أبي حثمة هاجر صغيراً مع أمه الشفاء، وكان من فضلاء المسلمين وصالحيهم، واستعمله عمر على السوق وجمع عليه وعلى أبي بن كعب الناس ليصليا بهم في شهر رمضان، وهو معدود في كبار التابعين»[3].

---

(١) أبو بكر، أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني، الآحاد والمثاني، ٤/٦، ح٣١٧٩.
(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب، ١٨٦٩،٣٣٩٨/٤؛ ابن حجر، الإصابة، ٧٢٧/٧-٧٢٩.
(٣) ابن عبد البر، الاستيعاب، ٦٤٩،١٠٥٥/٢.

وإلى جانب اهتمام الشفاء بأمور السوق، فإنها كانت مهتمة بالقضايا السياسية. إن اختصاص الشفاء في الكتابة وتقديم عمر لها في الرأي جعلها قريبة من الأمور المتعلقة بالحكم. فلقد كانت على علم بمراسلات عمر الحكومية مع ولاته، كما ورد في مسألة الاطلاع على أمور العراق، وهذا مما جعلها أيضاً تحيط علماً بأول مرة استُخدم فيها مصطلح أمير المؤمنين. فعن الزهري «أن عمر بن عبد العزيز سأل أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة لأي شيء كان أبو بكر، رضي الله عنه، يكتب من خليفة رسول الله، وكان عمر يكتب من خليفة أبي بكر، ومن أول من كتب عبد الله أمير المؤمنين؟ فقال: حدثتني الشفاء وكانت من المهاجرات الأول أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كتب إلى عامل العراق أن ابعث إليّ برجلين جلدين نبيلين أسألهما عن العراق وأهله فبعث إليه عامل العراق لبيد بن ربيعة العامري وعدي بن حاتم الطائي، فلما قدما المدينة أناخا راحلتيهما بفناء المسجد ثم دخلا المسجد فإذا هما بعمرو بن العاص، فقالا له: استأذن لنا على أمير المؤمنين يا عمرو. فقال: عمرو أنتما والله أصبتما باسمه، نحن المؤمنون وهو أميرنا. فوثب عمرو فدخل على عمر، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال عمر: ما بدا لك فى هذا الاسم، يعلم الله لتخرجن مما قلت أو لأفعلن. قال: إن لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم قدما فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم دخلا المسجد وقالا لي: استأذن لنا يا عمرو على أمير المؤمنين، فهما والله أصابا اسمك أنت الأمير ونحن المؤمنون. قال فجرى الكتاب من يومئذ. قال أبو عمر: وكانت الشفاء جدة أبي بكر»[1].

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب، ١١٥١/٣.

ومن بين المواقف التي كانت تشير إلى اهتمام الشفاء بالشأن العام، ما يخص الرجال أوالنساء، أنها كانت لديها نظرة خاصة لنموذج الرجل الناسك. ففي رأي الشفاء لقد جمع الرسول ﷺ المعنى المثالي للرجولة، فهو الرجل بكل ماتحمله الكلمة من معانٍ، سواء في تحمل مسؤولية الدولة من كل النواحي، وفي تطبيق أحكام الشريعة في جميع أركانها، وكان الرجل الصبور العطوف الحنون مع الجنس اللطيف. ولقد اشتهر عمر بشدته، ولقد كانت الشفاء على اتصال بعمر كما ورد في المصادر، وتعرف شخصيته جيداً، فكانت تراه أنموذج الناسك الذي يجمع بين خصال الرجل الشديد والعبد الضعيف، الذي لا يعرف الإذلال والخضوع سوى بين يدي الله، لذلك أنكرت على بعض النساك طريقة حديثهم ومشيتهم، فرأت أن ذلك ينقص من شأن رجولتهم ربما، وأن أسلوبهم لا يعكس المواصفات الحقيقية للناسك. فعن عمر بن سليمان قال: قالت الشفاء ابنة عبد الله- ورأت فتياناً يقصدون في المشي، ويتكلمون رويداً- فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نساك. فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقاً[1].

وخلاصة القول: إن أنموذج الشفاء أنموذج متميز، عرفه تراثنا الفكري، غير أنه من الصعب الوصول إلى حقيقة إسهامات هذا العنصر النسوي النادر، لأن المصادر لم تنقل إلينا تجربتها، وأي شيء من تجربتها مفصلاً. فالسؤال الذي يثار: كيف تتولى مثل تلك المناصب، ولا يصلنا من تاريخها ولو بنسبة ٢٠%؟.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٩٠.

لقد وقفتُ عند نذر يسير من المعلومات لا أكثر، فتحت لي منافذ كثيرة من المعلومات، فكيف لو وصلتنا معلومات أكثر. إن تشجيع النبي ﷺ لهذا العنصر النخبوي يعني الكثير في إطار تشكيل مجتمع متكامل الكفاءات. أراد الرسول ﷺ أن يسن سنة، وسنته أحق أن تتبع، كما رأينا سابقاً. إنه لمن الاقتداء والتأسي الصحيح أن نأخذ بهذه النماذج التي أقرها النبي ﷺ؛ لأنه كان بصدد تشكيل الأنموذج المثالي لمجتمع يتركه لنا نبراساً نقتدي به إذا أردنا أن نقيم مجتمعاً متكاملاً. فهذه العناصر النخبوية كان يعلم النبي ﷺ أهميتهن في الوسط النخبوي للمجتمع، لذلك شجع على وجود أمثال هذه النخب، وأمر بها حتى تتشكل النخبة بشكلها الطبيعي، وتؤدي دورها كما ينبغي في مجتمعها.

والمثير للانتباه في أنموذج الشفاء أنها كلفت بأمور السوق في عهد عمر، إذا صحّ ذلك، ولا ننسى أنها كانت كبيرة في السن لا طمع للرجال فيها، وكان يقدمها في الرأي، ولا تخفى على أحد شدة عمر، ولا نقول تشدده. لقد كان يعي، رضي الله عنه، وعياً تاماً بأنه لا تبديل لسنة رسول الله ﷺ ولكنه كان يعي أيضاً أهمية وجود هذه العناصر النخبوية في تشكيل الرأي العام، أو في صنع القرارات، سواء الاقتصادية أو السياسية، ولم تكن من أمهات المؤمنين، بل كانت جدة أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

٩- زينب بنت أبي سلمة عبد الله المخزومية[1]:

زينب بنت أبي سلـمة هي ربيبة رسول الله ﷺ. أمهـا هي أم سـلمة زوج النبي ﷺ. كانت زينب اسمها برة فسماها النبي ﷺ زينب. ولدت بأرض الحبشة، وقدمت بـها أمها إلى المدينة. وحفظت عن النبي ﷺ. تعتبر زينـب كما ورد في المصادر محدثة فقيهة من أفقه نساء زمانهـا بالمدينـة. روت عـن رسول الله ﷺ سبعة أحاديث. وروى عنها ابنها أبو عبيدة بن عبد الله بن زمعة ومحمـد بن عطـاء وعراك بن مـالك وحميـد بن نافع وعروة بـن الـزبير وأبو سلمة بن عبد الرحمن وزين العابدين علي بن الحسين. وروى لها البخاري حديثاً، ومسلم حديثاً آخر.

وعن الحسن أنه ذكر يوم الحرة فقال: والله ما كان ينجو منـهم أحـد، ولقد قتل ابنا زينب بنت أبي سلمة، وهي ربيبة رسول الله ﷺ، فأتيـت بهمـا فوضعا بين يديهـا. فقالت: والله إن المصيبة عليّ فيكما لعظيمة، وهي في هذا -وأومأت إلى أحدهما- أعظم منها في هذا -وأشارت إلى الآخـر- لأن هـذا بسط يده، ولست آمن عليه، وأما هذا فقعد في بيته، فـدخـل عليه فقتـل، فأنا أرجو له الجنة. وتوفيت سنة ٧٣هـ.

ويبدو أن زينب بنت أبي سـلمة كانت محدثة وفقيهـة، كما أسـلفت، مما يدل على أنه كان لها موقع في الوسط النخبوي، وأن فقهها قد شـارك في

---

(١) ابن حجر، الإصابة: ٦٧٥/٧؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ١٨٥٥/٤؛ عمـر رضـا كحالة، أعلام النساء، ٦٧/٢.

صناعة الفكر الذي أنتجته النخبة المثقفة في ذلك العصر. لو أن فقهها وصلنا لاستطعنا تحليل مدى تأثير فقهها في صناعة الفقه العام للمجتمع، وهي بنت أم سلمة الفقيهة أيضاً. يبقى أن هذا دليل على أصالة الموقع النخبوي في المجتمع المسلم.

١٠ - أسماء بنت مرثد وموقعها النخبوي:

أسماء بنت مرثد، رضي الله عنها، أخت بني حارثة بن جبير بن مالك بن حويرثة بن خارجة، وأمها سلامة بنت مسعود. تزوجها الضحاك بن خليفة، فولدت له ثابتاً، وأبا بكر، وأبا حسن، وعمر، وثبيتة، وبكرة، وحمادة، وصفية، وتزوج محمد بن سلمة ثبيتة.. وأسلمت أسماء وبايعت[١].

فإلى جانب أنها روت عن الاستحاضة[٢] فإن أهم ما ارتبط باسمها هو سبب نزول الآيات الآتية: قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ

(١) ابن حجر، كتاب الإصابة في تمييز الصحابة، ٧/٤٩٣.
(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤/١٧٨٥.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١)، هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات. وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل ابن حيان قال: «بلغنا، والله أعلم، أن جابر بن عبدالله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة، وقيل كان لها نخل في بني حارثة يسمى الوعل، فجعلت النساء يدخلن عليها غير متزرات، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء: ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾» الآية[1].

إن ارتباط نزول هذه الآيات بأسماء بنت مرثد، رضي الله عنها، شيء عظيم جداً. لقد استجاب الله عز وجل لإنكارها تبرج النساء -إذا ثبت صحة هذه الرواية-، فشرع للنساء أحكاماً خاصةً فأمرهن الله عز وجل بغض البصر، وحفظ الفرج، وعدم إبداء زينتهن إلاّ لبعولتهن ومحارمهن، وفرض عليهن الحجاب. وهذه المسألة خاصة جداً بالنساء، ولها أثر كبير في وسط المجتمع. لقد أقر الله عز وجل رأيها، فتكون بذلك قد أسهمت بموقفها في نزول تشريعات جديدة تخص مجال النساء بشكل مباشر.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢١٦/١٠. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي (ت ١٥٠هـ) تحقيق أحمد فريد، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ٤١٦/٢؛ تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت ٣٢٧)، تحقيق أسعد محمد الطيب (صيدا: المكتبة العصرية) ٢٥٧٣/٨.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (النور:٥٨). عن مقاتل بن حبان قال: «بلغنا أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن. فقالت أسماء: يا رسول الله، ما أقبح هذا، إنه ليدخل على المرأة وزوجها غلامهما وهما في ثوب واحد بغير إذن!؟ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ إلى آخر الآية. ومما يدل على أنها محكمة أنها لم تنسخ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1].

وتسهم أسماء بنت مرثد، رضي الله عنها، مرة أخرى في نزول أحكام تشريعية أخرى، خاصة بآداب الاستئذان. والملاحظة الأساسية حول هذا الموضوع هو أن إنكار أسماء دخول الغلمان على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد كان من الممكن أن يصدر من زوجها. غير أنها هي التي استنكرت، وهذا يدل على أن الصحابيات كنَّ على وعي تام بموقعهن في صناعة الرأي العام، ونزول التشريعات، ووعين جيداً استقلاليتهن في ذلك، فلم يكن هناك ناطق واحد باسم التشريع.

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١١/٣٣.

لقد كانت الصحابية تسهم في نـــزول التشريع جنباً إلى جنب مع أخيها الرجل. فهي ترى بعقلها وعينيها ما لا يرى، والعكس صحيح. لذلك لا يمكن أن يكون أي فقه يتميز بطابع الشمولية إذا لم يشترك الطرفان، الرجل والمـــرأة، مع بعضهما في صناعته.

والملاحظة الثانية أنها لم تستنكر على أسرتها فقط حسب الـصيغة الـتي تحدثت بها، فلقد رأت أن ذلك يضر باقي الأسر. فهي تعبر عن مسألة لا تهمها فقط، إنما تمس أي أسرة في المجتمع المسلم.

ومما لا شك فيه أن هذه العينة التي اخترتها من الصحابيات تعـد بمثابـة نافذة، تبين لنا إسهامات عناصر نخبوية من النساء أدين أدوارهن جنباً إلى جنب مع إخوانهن الرجال في المجتمع. وحقيقة أن المصادر التي وقفت عندها لم تـوفر التفاصيل الكاملة عن الإسهامات التي قدمتها تلك النمـاذج النخبويـة حـتى نستكشف مدى فعالية إسهاماتهن في الفكر النخبوي. ولكن المعلومـات الـتي أوردتها تكفي للتأصيل لموقع المرأة النخبوي في المجتمع الرسالي، وإثبات مـدى أهمية وجدية هذا الموقع في الوسط النخبوي، الذي يعبر عن صوت المـرأة إلى جانب أخيها الرجل لإنتاج فكر متوازن، يحقق المصلحة الحقيقيـة للمجتمـع. كما أنه لا يمكن أن يستقيـم المجتمـع إذا لم تستقـم نخبته التي من المفروض أنها تسهر على توجيهه وحل معضلاته الفكرية الاجتماعية.

غير أن من بين هذه العناصر النسوية حظيت السيدة عائشة، رضـي الله عنها، بمادة معلوماتية وافرة، مقارنة بباقي المعلومـات المتعلقـة بغيرهـا مـن

الصحابيات. لقد كان لعائشة، رضي الله عنها، دور بارز في الوسط الفكري والاجتماعي، خاصة بعد وفاة النبي ﷺ. غير أن الذي يهمنا هنا هو لماذا تميزت السيدة عائشة عن باقي العناصر في إنتاجها الفكري والفقهي. فهل أراد الرسول ﷺ أن تكون أنموذجاً؟ ويجب على المجتمع أن يتولى إنتاج مثله باعتباره المستفيد الأول من وجود مثل هذا الأنموذج في المجتمع؟ هذا ما سنحاول أن نجيب عليه لاحقاً.

المبحث الرابع

أم المؤمنين عائشة المرأة النخبوية الأنموذج

تمهيد:

إن الغالب على معظم الكتب[1]، التي حصلت عليها والتي تناولت سيرة أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، أنها لا تتجاوز حد الإجابة عن هذه الأسئلة: متى مولدها؟ وماذا عن زواجها بالرسول ﷺ؟ متى؟ وأين؟ أو كيف كان حبه لها، وتفضيله لها على باقي النساء؟ كيف كانت علاقته بها؟ ما تميّزت به من معاملة؟ ذكر مناقبها؟ حديث الإفك؟ علمها على شكل اعترافات تشهد

---

(١) الكتب التي تناولت سيرتها كالآتي: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣٧٤/٢-٣٧٨؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٦١٠/٢-٦١٩؛ الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٤٣/٢-٥٠؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ص١٨٨١-١٨٨٥؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٧/٢-٢٠؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ١٦/٣-١٩؛ الحافظ أبو الحجّاج يوسف المزّي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ٢٢٦/٣٥-٢٣٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٣٥/٢-٢٠١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٢٩/٣-٢٣٠؛ الإصابة في تمييز الصحابة، ١٦/٨-٢١؛ أبو الفلاح عبد الحيّ الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٦١/١-٦٥؛ أبو الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢٩٤/٢-٣٧٩؛ الإمام بدر الدين الزركشي، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، ص٣٠-٦٥؛ قدرية حسين، شهيرات النساء في العالم الإسلامي، ص٣٧-٦٠؛ عمر رضا، كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ٩/٣-١٣١؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت: دار العلم للملايين، د.ت) ٢٤٠/٣؛ محمد سعيد مبيض، موسوعة حياة الصحابيات، ص٥١٩-٥٧١؛ الشيخ سعيد فايز الدخيل، موسوعة عائشة أم المؤمنين، حياتها وفقهها، ص١٩-٨٨؛ خالد عبد الرحمن العك، موسوعة عظماء حول الرسول، ٩٦/١-١٣٦؛ أحمد خليل جمعة، نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث، ص١٠٥-١٦٦؛ الفنيسان، سعود بن عبد الله، مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير، ص٥-١٧؛ عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، تراجم سيدات بيت النبوة، ص٢٥٢-٢٩٨.

لها بالقلم؟ وموقعة الجمل، باعتبارها الحدث، الذي أخطأت فيه أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها؟ هذا في معظم الكتب، والنادر القليل منها تناول هذه العناصر بالتحليل وإعطاء تلك الآثار أو الأخبار أبعاداً أخرى ملفتة للانتباه، وتجعل من سيرة أم المؤمنين عائشة صفة مرجعية لكثير من القضايا، وأبرز تلك الكتب: موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين -حياتها وفقهها- للشيخ سعيد فايز الدخيل، وموسوعة حياة الصحابيات لمحمد سعيد مبيّض، وتراجم سيدات بيت النبوة للدكتورة عائشة عبد الرحمن، وإن كانت بعض التحليلات لا تستند إلى توثيق علمي، أو ربما استندت إلى روايات تحتاج إلى تخريج للتعرف على مدى صحتها.

ويبدو أن الروايات المعتمد عليها في الكتب التي تناولت سيرة عائشة، رضي الله عنها، لم يهتم المحققون بتخريجها كلها تخريجاً علمياً. والظاهر أن الكتاب الوحيد الذي اهتم المحقق شعيب الأرنؤوط بتخريج أحاديثه، بشكل أوسع، هو كتاب سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي.

ومثلما هو معلوم فإن المرء ابن بيئته، فلا يمكن أن تُدرَس شخصية ما بتجريدها من ظروفها الاجتماعية، أو النفسية، أو المادية؛ لأن كل هذه العوامل مجتمعةً تساعد على تكوين شخصية الإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً يتأثر ويؤثر، باستثناء الحالات الخاصة مثل الأنبياء، فإنّ تدخّل يد الله عز وجل في تكوين شخصياتهم له تأثير خاص، مثل النبي محمد ﷺ الذي تربى يتيماً، وكبر سليماً خالياً من الأمراض النفسية، بسبب العناية الربانية.. ولقد أحاطت بعائشة ظروف ساهمت في تكوين شخصيتها قبل وفاة النبي ﷺ، كان لها نتائج تجلت أهميتها في موقعها النخبوي الذي وصلت إليه وتبوأته في مجتمعها بعد وفاته ﷺ، وكان لها أثر واضح فيه.

المطلب الأول: نظرة تحليلية لشخصية عائشة قبل وفاة النبي ﷺ:

المولد والنشأة:

لقد تضافرت عوامل عديدة في تكوين شخصية عائشة، رضي الله عنها، فلقد ولدت عائشة بنت أبي بكر الصديق(١)، رضي الله عنهما، في أول السنة الرابعة من البعثة النبوية. وقيل: السنة الخامسة، وهو ما يقارب سنة ٦١٥ ميلادية. وبقيت عند النبي ﷺ تسع سنين، ومات وهي بنت ثماني عشرة سنة. توفيت زمن معاوية، ليلة الثلاثاء ١٧ من رمضان سنة سبع وخمسين، وقيل: ثمان وخمسين. وتوفيت وهي ابنة ٦٦ سنة(٢).

وقد كنّى رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة بأم عبد الله، وهو ابن أختها بطلب منها. فقد روى عروة عنها أنها قالت: «كل صواحبي لهن كنى، قال: **فاكتني بابنك عبد الله**». كما أطلق عليها ألقاباً أخرى: «**يا عائش، يا موفقة،** وكثيراً ما ناداها: **يا بنت الصدّيق، ويا بنت أبي بكر**» (٣).

---

(١) هي عائشة أم المؤمنين، بنت عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي، كني والدها بأبي بكر، ولقّبه الرسول ﷺ بالصديق، وله من زوجته قتيلة بنت عبد العزى القرشية، عبد الله وأسماء، وله من زوجة أخرى أسماء بنت عميس الخثعمية، محمد. أما عائشة فأمها هي أم رومان بنت عمير من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة، تزوجها أبو بكر، رضي الله عنه، بعد أن توفي زوجها عبد الله بن الحارث الأزدي، الذي أنجبت منه الطفيل، وأنجبت من أبي بكر عائشة وعبد الرحمن، رضي الله عنهم.

(٢) الإمام بدر الدين الزركشي، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، ص٣٣؛ أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ص٦١؛ ابن الجوزي، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، ص٢٠؛ وغيرهم.

(٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ص٧؛ سعيد فايز الدخيل، موسوعة عائشة أم المؤمنين- حياتها وفقهها، ص ١٩-٢١.

وهي من قوم بني تيم مضرب المثل في البر بنسائهم، والترفق بهن، وحسن معاملتهن[1]. وهذه الميزة لم تحظ بها كل نساء ذلك العصر، فلقد عُرف وضع المرأة في العصر الجاهلي بالدناءة والانحطاط، حتى جاء الإسلام فغيّره جذرياً. فإذا كانت عائشة، بوصفها من قبيلة تيم، من خيار الناس قبل الإسلام فماذا بعد الإسلام، وأبوها أبو بكر غني عن التعريف[2]، وأمها أم رومان فهي من الصحابيات الجليلات، قال فيها النبي ﷺ: **«من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان»**[3].

وإلى جانب الظروف المادية الميسورة فإن فطرتها لم تدنس بالشرك، كما تروي هي عن نفسها: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ»[4].. إذن

---

(١) «فقد عُرف قوم عائشة، بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأي، كما كانوا مضرب المثل في البر بنسائهم، والترفق بهن، وحسن معاملتهن»، انظر: بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة، ص٢٥٤ .

(٢) وصف ابن الدغنة أباها الصديق بقوله: «إِنَّ مِثْلَكَ لاَ يَخْرُجُ، وَلاَ يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلاَدِكَ» (أخرجه البخاري، كتاب الحوالة)، وورد عنه أيضاً أنه «كان أنسب قريش لقريش، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق معروف، يأتيه رجال قومه، ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وخبرته وحسن مجالسته». ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط٢ (القاهرة: دار التراث الإسلامي، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م) ٢٥٠/١؛ بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة، ص٢٥٤.. قال فيه رسول الله ﷺ: **«...إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ...»** (أخرجه البخاري، كتاب الصلاة).

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٧٧/٨.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة.

فطريقة تفكيرها ستختلف عن غيرها؛ لأنها لم تحمل خلفيات عقدية فاسدة، قد تعكّر عليها بعض نتائج تحليلاتها.

– السيدة عائشة في ظل العناية النبوية:

إلى جانب العناية الأبوية، حظيت عائشة بالعناية النبوية قبل زواجها منه ﷺ حسب الرواية التي وصلتنا، فالنبي تزوج عائشة بأمر من الله عز وجل. وباعتبار أن أفعال الرسول ﷺ تشريع لنا، إلا ما كان خاصاً به، فزواجه من عائشة بأمر من الله عز وجل ليس أمراً عبثاً، فإن كان زواجه من زينب مثلاً بأمر من الله عز وجل لمعالجة مسألة التبني، فما الحكمة من زواجه بعائشة؟ فأعظم حكمة نراها هي حتى يتولى الرسول ﷺ تكوينها بنفسه، وخاصة عندما نرى أنه رأى تلك الرؤية قبل أن يخطبها بفترة زمنية، أو حتى قبل أن يبني بها على الأقل، تلك الرؤية التي جعلته يضع عائشة تحت رعايته، ويحفظها من أي سوء قد يؤثر في تربيتها تأثيراً سلبياً.

وتربية الرسول ﷺ لعائشة كانت بمثابة تخريج لأنموذج من النساء يُقِرُّ به الشرع، ويحرص على بعثه. ومن خلال هذا الأنموذج الذي حرص عليه الرسول ﷺ، نتعلم أن النساء أصناف، وكل صنف ميسر لما خلق له، فلم تكن كل زوجات النبي ﷺ من صنف واحد، كل واحدة تميزت بميزات خاصة بها، وعائشة، رضي الله عنها، تميزت بخصائص ميزتها عن غيرها، ولا أتعرض لها على سبيل التفصيل، إنما أعتبرها دليلاً على أن النساء أصناف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن إيجاد الرسول ﷺ ذلك الأنموذج دليل على ضرورة وجوده في مجتمع النساء لما له من أثر في المجتمع برمته.

ولقد تزوج الرسول ﷺ عائشة وهي بنت ست سنين، قبل الهجرة ببضعة عشر شهراً، وقيل: بعامين. تزوج بها إثر وفاة خديجة، فتزوج بها وبسودة في وقت واحد، ثم دخل بسودة، فتفرد بها ثلاثة أعوام حتى بنى بعائشة[1] بالمدينة وهي بنت تسع سنين.

وحاول بعض المستشرقين استغلال زواج النبي ﷺ بفتاة في ذلك السن للطعن في شخصيته حسب ما ذكرت الدكتورة عائشة عبد الرحمن[2]. وردّت على ذلك الافتراء رداً حسناً. وقام بالعمل نفسه أيضاً محمد سعيد مبيض[3]. وخلاصة ما تعرضا له أن هذا النوع من الزواج لم يكن غريباً في ذلك الوسط الاجتماعي وذلك الزمان، فلم تكن عائشة هي أول صبية تزوجت بكهل. فلقد كانت عادةً سائدةً عند العرب في شبه الجزيرة العربية لسرعة نمو الفتاة في تلك المنطقة. ولقد أشار د. محمد سعيد مبيض إلى حكمة جليلة، وهي «أنها (عائشة) نشأت في بيت مسلم منذ نعومة أظافرها، ولكي تبقى أطول فترة ممكنة في مدرسة النبوة، فتفقه في أحكامها وتعاليمها، لتنقل هذه الأحكام بدورها إلى أخواتها المسلمات»[4]. وفعلاً تجلت هذه الحكمة.. و لم تكن هذه هي الحكمة الوحيدة، فلقد تزوجها في هذا السن حتى نتعلم منه كيف نربي البنت ونحافظ على قدراتها أو مؤهلاتها الفطرية، فمعاملته لها خير دليل.

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٢/١٣٥، ١٤١.

(٢) عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، تراجم سيدات بيت النبوة، ص٢٥٦-٢٥٨.

(٣) محمد سعيد مبيض، موسوعة حياة الصحابيات، ص٥٢٤-٥٢٥.

(٤) محمد سعيد مبيض، موسوعة حياة الصحابيات، ٢/٥٢٤.

لقد جمع المصطفى ﷺ في معاملته لعائشة بين عناية الأب وحنان ولطف الزوج، وساهم في تكوين شخصية عائشة، ابتداءً من طفولتها إلى أن شبّت. تزوجها وهي طفلة، فلم تكن معاملته لها وهي في ذلك السن عبثاً، وإنما كانت توجيهاً يتعلق بكيفية تربية البنت في ذلك السن، لذلك كان يرسل لها البنات في سنها ليلعبن معها لحداثة سنها. عن هشام عن أبيه عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: «كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن[1] منه، فيسربهن إلي فيلعبن معي»[2]؛ وكان يسمح لها بالتفرّج على السودان وهم يلعبون بالدرق[3] والحراب.. عن عروة عن عائشة قالت: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَسْأَمُ، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ، الْحَرِيصَةِ عَلَى اللَّهْوِ»[4].

ويعتبر موقفه ﷺ من اللعب والتفرج على الألعاب إقراراً منه أن اللّعب والتسلية من الأمور الفطرية في الطفل، سواء كانت بنتاً أو ولداً، فكبت هذه الفطرة فيهم قد يؤدي إلى تعطيل قدراتهم العقلية، بحكم أن اللعب جزء من عالم الطفل الخاص به في ذلك السن.

---

(١) يتقمعن: القمع، الدخول فراراً وهروباً، ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، مادة قمع، ٨/٢٩٤.

(٢) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، ح٥٧٧٩، ٥/٢٢٧٠.

(٣) الدّرق: الحجفة وهي ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب، ابن منظور الافريقي المصري، لسان العرب، مادة درق، ١٠/٩٥.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب النكاح.

وكان الجانب النفسي من بين الجوانب التي أولاها النبي ﷺ اهتماماً خاصاً، ويتجلى هذا أكثر في معاملته لها في مواضع أخرى. فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: «قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **إِنِّي لأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى**، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: **أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لاَ وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى قُلْتِ: لاَ وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ**. قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَهْجُرُ إِلاَّ اسْمَكَ»[1].

تعرضت عائشة، رضي الله عنها، لظروف وأحداث خاصة، وهي عند خير خلق الله، سواءً داخل الأسرة أو خارجها. فلقد تناول بعض الكتب[2] مثلاً مسألة الضرائر بشيء من التفصيل، وسأتناولها أنا بشكل مختصر؛ لأن الإطناب فيها لا يخدم الموضوع الذي أصبو إليه. وردت روايات متنوعة حول هذا الموضوع، والطريف منها ما حصل بينها وبين زينب بنت جحش، رضي الله عنهن. تقول عائشة، رضي الله عنها: «... فَأَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْهُنَّ فِي الْمَنْزِلَةِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح.

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ص٢٨٠؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ص٨-٩. تناولت هذه الكتب سرد الروايات. أما المراجع مثل: عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ص٨-٢١؛ بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة، ص٢٢٤-١٨٢؛ أحمد خليل جمعة، نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث، ص٢١٣-٢١٤؛ محمد سعيد مبيض، موسوعة حياة الصحابيات، ص٥٣٥، ٥٣٦، ٥٤١، فقد تناولت الموضوع بالتحليل، فبنت الشاطئ مثلاً قدمت تحليلاً لا يقوم على أدلة قطعية.

عِنْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ، وَلَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْرًا فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ، وَأَتْقَى لِلَّهِ، وَأَصْدَقَ حَدِيثًا، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً، وَأَشَدَّ ابْتِذَالاً لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِهِ وَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ كَانَتْ فِيهَا تُسْرِعُ مِنْهَا الْفَيْئَةَ. قَالَتْ: فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَرَسُولُ اللَّه ﷺ مَعَ عَائِشَةَ فِي مِرْطِهَا، عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي دَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا وَهُوَ بِهَا، فَأَذِنَ لَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ، قَالَتْ: ثُمَّ وَقَعَتْ بِي فَاسْتَطَالَتْ عَلَيَّ، وَأَنَا أَرْقُبُ رَسُولَ اللَّه ﷺ، وَأَرْقُبُ طَرْفَهُ هَلْ يَأْذَنُ لِي فِيهَا، قَالَتْ: فَلَمْ تَبْرَحْ زَيْنَبُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ، لاَ يَكْرَهُ أَنْ أَنْتَصِرَ، قَالَتْ: فَلَمَّا وَقَعْتُ بِهَا لَمْ أَنْشَبْهَا حَتَّى أَنْحَيْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَتَبَسَّمَ: **إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ**»(1).

لقد كانت ردود أفعال النبي ﷺ من غيرة أمهات المؤمنين متلائمة مع فطرهن، وعندما وصلت حدّ المبالغة هجرهن لمدة شهر لتعديلها فيهن(2).

ويمكن أن نشير هنا إلى أن الغيرة التي كانت بينهن، رضوان الله عليهن، لم تكن لتصل حدّ المكر أو المعصية، بقدر ما كانت مجرد ردود أفعال أنثوية طبيعية، لا تنقص من قيمة المرأة شيئاً، وخير دليل على خوف أمهات المؤمنين من المولى عز وجل أن عائشة، رضي الله عنها، أثنت على زينب بنت جحش ثناءً حسناً، كما رأينا في الرواية السابقة، رغم ارتباط شهادتها لها بالموقف الحرج.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة.

(٢) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ط١٠ (بيروت: دار الشروق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ٦/٣٦١٣-٣٦١٦.

ونخلص إلى القول: إن الغيرة هي مسألة فطرية في الجنسين، سواء المرأة أو الرجل، أودعها الله عز وجل في الإنسان لحكمة يريدها. فلولا الغيرة على دين الله ما كنّا نسمع عن الجهاد وغير ذلك، إذا كان الرجل يغار على زوجاته فكيف بالزوجات على رجل واحد. وبعبارة أخرى: إن غيرة الرجل على زوجته -أو زوجاته- قوية، فهو يقتل إذا تعرض أحد لإحداهن بسوء. فكيف بالمرأة ذات العاطفة الجياشة، والتي إذا أحبت أخلصت؟ فلم نُحمّل تلك الصحابيات ما لا تطيقه فطرتهن، إنهن اجتمعن حول رجل واحد، ومن هو؟! خير خلق الله، لو لم تكن هناك غيرة بينهن لكان الأمر غير طبيعي، ولخرجن عن الفطرة الإنسانية. وعليه، فإن قضية الغيرة لا تؤثر في موقع عائشة في الوسط النخبوي.

-ارتباط أسباب نزول بعض الآيات التشريعية بالسيدة عائشة:

لقد نزلت آيات من القرآن بسبب حدثين كان لهما علاقة بأم المؤمنين السيدة عائشة، رضي الله عنها، دون أن يذكر اسمها فيها؛ لأنها نصوص تشريعية لعامة المسلمين، وليست خاصة بها فقط. أما الحدث الأول فكان غير مباشر، وهو سبب نزول آيات التيمم(١) لكل المسلمين(٢). وأما السبب

---

(١) انظر: المائدة:٦.

(٢) انظر البخاري، صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾، ح٣٢٧، ١٢٧/١. وانظر: ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج٤٩١،١. وجاء في: قدرية حسين، شهيرات النساء في العالم الإسلامي، أن هذه الحادثة حدثت بعد واقعة الإفك، انظر ص٤٧.

الثاني فكان حدثاً مباشراً ذا علاقة بشخصية السيدة عائشة، وكان سبباً في نزول الآيات العشر من سورة النور لتبرئة أمنا عائشة، رضي الله عنها، من الإفك[1]، ابتليت السيدة عائشة، رضي الله عنها، بحادثة الإفك وعمرها يومئذٍ اثنتا عشرة سنة[2]، فأنزل الله آيات تتلى في براءتها في سورة النور.. لقد اعتبرت السيدة عائشة، رضي الله عنها، نزول القرآن فيها شرفاً عظيماً لها.

ويمكن استخلاص العبرة من نزوله عليها من زاوية أخرى، فإلى جانب حرص الله عز وجل على إظهار طهارة عرض رسول الله ﷺ من جهة، والمحافظة عليه نقياً من أي شائبة، وحتى لا يستغل المنافقون هذه الحادثة للقدح في رسالته، فإننا نرى أيضاً أنه لو لم ينزل الله في حقها قرآناً يتلى، واكتفى النبي ﷺ بتبرئتها من خلال رؤية رآها، لتعرض العلم الذي أخذته عن رسول الله ﷺ إلى النقد والتشكيك فيه. هذا من جهة، ومن الناحية الثانية فإن القرآن الكريم أراد أن يؤكد أهمية وقيمة كرامة كل إنسان، ذكراً كان أم أنثى، فمن حاول انتهاك حرمات هذه الكرامة يلقى العقاب الرادع.

ويمكن أن نقول: بما أن الله عز وجل أنزل تلك الأحكام ليرفع الضرر عن السيدة عائشة، رضي الله عنها، فيتجلى هنا أيضاً أهمية صوت المرأة المتضررة في صناعة قرارات ترفع الظلم عنها.

---

(١) كما روى البخاري في صحيحه، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ج ٤، ح ٣٩١٠.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢/١٥٣.

ويمكننا أن نستخلص من حادثة الإفك أن المجتمع في كل الأحوال لا يرحم، ولا يكف لسانه عن القيل والقال، فمريم، عليها السلام، أنكر عليها قومها عندما أتتهم بوليدها السيد المسيح، عليه السلام، على الرغم من المنزلة التي عرفت بها، وجاء دور عائشة لتكون لنا عبرة أيضاً. وهل سلم الرجال من أقوال الناس حتى تسلم النساء، والذي يهمنا من هذا كله أن هذه الحادثة ونزول براءتها لم تمنع عائشة من أن تتولى منصب الفتوى بعد رسول الله ﷺ، ويكون لها موقع نخبوي مؤثر.

- اهتمام السيدة عائشة بالزينة:

كانت عائشة، رضي الله عنها، تهتمّ بقضايا الزينة بشكل خاص، وتنصح النساء بالتزين لأزواجهن، كما كانت تفعل هي لزوجها ﷺ. روى سليمان بن بلال عن عمرو بن أبي عمرو، سمع القاسم يقول: كانت عائشة تلبس الأحمرين، الذهب والمعصفر، وهي محرمة[1]. وقال ابن أبي مليكة: رأيت عليها درعاً مضرجاً[2]. وعن المعلىّ بن زياد قال: حدثتنا بكرة بنت عقبة أنها دخلت على عائشة وهي جالسة في معصفرة، فسألتها عن الحنّاء، فقالت: شجرة طيبة وماء طهور. وسألتها عن الحفاف[3]، فقالت لها: إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتصنعينهما أحسن مما هما، فافعلي[4].

---

(١) إسناده صحيح، وهو في ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/٧٠-٧١. وينظر في الإمام شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، المجلد٢، ص١٨٨.
(٢) إسناده صحيح، أخرجه ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/٧٠.
مضرجاً: المضارج: الثياب الخلقان تبتذل مثل المعاوز، قاله أبو عبيد، واحدها مضرج. أنظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة ضرج، ٢/٣١٣.
(٣) الحفاف: حفّ الوجه إزالة الشعر عنه، ابن منظور، لسان العرب، مادة حفّ، ٩/٥٠.
(٤) أخرجه ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/٧٠-٧١. رجاله ثقات ما عدا بكرة فإنها لا تعرف.

لقد اشتهرت السيدة عائشة بحبها للزينة، وبأناقتها وذوقها الرفيع، لذا كانت بعض نساء المدينة يستعرن ثيابها ليلبسنها عرائسهن يوم زفافهن. قالت عائشة: كَانَ لِي مِنْهُنَّ دِرْعٌ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ تُقَيَّنُ[1] بِالْمَدِينَةِ إِلاَّ أَرْسَلَتْ إِلَيَّ تَسْتَعِيرُهُ»[2].

– **خصائص تميزت بها السيدة عائشة:**

لقد تميزت السيدة عائشة، رضي الله عنها، بخصائص متفردة، تُحدثنا عنها هي، فتقول، رضي الله عنها: «لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة إلا مريم بنت عمران: لقد نزل جبريل بصورتي في راحته، حتى أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكراً، وما تزوج بكراً غيري، ولقد قبض ورأسه في حجري، وقد قبرته في بيتي، ولقد حفت الملائكة بيتي، وإن كان الوحي ليتنزل وهو بأهله فيتفرقون عنه، وإن كان الوحي لينزل عليه وإني معه في لحافه، وإني لابنة خليفته وصديقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة، وعندي طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً»[3].

تناولت بعض الكتب خصائص أو مناقب عائشة، رضي الله عنها، بشيء من التفصيل دون أن تبرز الحكمة من ذلك، بل وجدت من يذكر تلك

---

(١) تقين: التقين التزين بألوان الزينة، ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، مادة قين، ١٣/٣٥١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الهبة.

(٣) أخرجه شيخ الإسلام أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي (٢١٠-٣٠٧هـ)، مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق إرشاد الحق الأثري، ط١ (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، بيروت: مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) حديث٤٦٠٦، ٤/٣٣٦-٣٣٧؛ وأخرج نحوه الحاكم في المستدرك، ٤/١٠، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

الخصائص على سبيل التفضيل بينها وبين الصحابيات الأخريات؛ لو درست كل شخصية على حدة لوجدنا كل واحدة تميزت ببعض الخصائص لم تتميز بها غيرها، وهذا لحكمة أرادها الله عز وجل. فليس من العدل أن يتساوى كل النساء أو كل الرجال في الخصائص نفسها، فكل ميسر لما خلق له. ونرى ذلك حتى في نبي الله نوح، عليه السلام، كان عبداً شكوراً، وكان أيوب عبداً صبوراً، وكذلك العلماء يتباينون في الخصائص. إن الناس يتكامل بعضهم ببعض و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣). هذا هو مقياس التفضيل عند الله، والتقوى لا يعلم سرها إلا الله تعالى، لذلك لا نعتمد على الخصائص الظاهرة لتفضيل شخص على آخر، والأمر نفسه ينطبق على عائشة، رضي الله عنها.

إن تلك الخصائص التي تميزت بها السيدة عائشة، رضي الله عنها، كانت مرتبطة بالدور الذي خلقت لأجله، والمقارنة فيما بين الصحابيات على سبيل التفضيل قد تقلل من شأن أدوار الأخريات، وما كان الله أن يخلق الناس عبثاً، فكل الأدوار تشكل توازناً فيما بين الناس، إذا نقص أحدها شكّل خللاً في المجتمع، فالأجدر -في رأيي- هو أن نبرز أهمية كل دور، فنحاول من خلال سيرهن أن نستخرج موقع كل واحدة في ذلك المجتمع، مثلما نحن بصدد فعله الآن، فمن خلال سردنا لتلك الخصائص يمكننا أن ندرك أهمية هذا الأنموذج من بين النماذج النسائية الأخرى، والتي لا تقل أهمية عنه، فكل أنموذج له موقعه الخاص في المجتمع، والذي لا يمكن الاستغناء عنه، وفي حالة نقصان أي دور يحدث الخلل، ويختل التوازن بدرجات مختلفة.

لقد سبق وأن تعرضنا إلى بعض هذه الخصائص، غير أنني سأحاول هنا أن أؤكد سبب تميزها بها عن غيرها. لقد تزوجها الرسول ﷺ بأمر من الله عز وجل، ليعيد المولى سبحانه بعث هذا الأنموذج في المجتمع، وتحظى بالعناية النبوية منذ سن مبكرة، فيهيئها ويتولى تخريج هذا الأنموذج إلى المجتمع، فالمرأة لا تمنعها أنوثتها من أن تكون عنصراً نخبوياً فعّالاً؛ ويتجلى تأثيرها خاصة في الوسط النسائي.

والخاصية الأخرى نزول تبرئتها من السماء، نستخلص منها أن تلك الآيات ستبقى شاهدة إلى يوم القيامة على أن هذا الحدث يمكن أن يتكرر مع غير عائشة، مثلما حدث مع مريم قبلها لأن المجتمع مطبوع على هذا العرف، وأن إرضاءه غاية لا تدرك. ومنه نستخلص أن رأي الناس أو كلام الناس ليس مبرراً لإزالة هذا الأنموذج من المجتمع سداً لأي ذريعة.

- **السيدة عائشة في مدرسة النبوة:**

ولقد ساعدت مكانة عائشة، رضي الله عنها، الاجتماعية على تنمية وتشجيع قدراتها الفطرية، وبفضل هذه المكانة التي كانت تعيش فيها عائشة، رضي الله عنها، والعناية الأبوية والنبوية، اكتسبت عائشة شخصية متوازنة سليمة، ذات عقلية متفتحة معتدلة فريدة في عصرها، خاصة في وسط النساء، لا تخشى في جرأتها أو نقاشها أو استفسارها إلا الله، وتطورت هذه المكتسبات وهي بين أحضان رسول الله ﷺ، فكانت أقرب الناس إليه، فحصلت بذلك على أسباب حسن التلقي عن رسول الله ﷺ لعلمه النظري والتطبيقي، تعلمت كيف تستقل برأيها عندما يتعلق الأمر بإرضاء الله عز وجل، فلقد رفضت أن تستشير أبويها عندما عرض عليها الاختيار بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله

ورسوله والدار الآخرة، ولم يعترض المصطفى ﷺ على رد فعلها. فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أن عائشة قالت: «لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ بَدَأَ بِي، فَقَالَ: **إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا، فَلاَ عَلَيْكِ أَنْ لاَ تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ**. قَالَتْ: قَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا لِيَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ. قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب:٢٨)، قَالَتْ: فَقُلْتُ: فِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ، فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ. قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ»[1].

وتعلمت منه ﷺ كيف تعبد الله على بصيرة، فلم يمنعها حبها له وطاعتها له ﷺ من الاستفسار والنقاش، فلقد أسهم الرسول ﷺ بشكل خاص في تنمية قدراها العقلية بدلاً من كبتها، فكانت من بين ثمار ذلك الجهد فيها أنها لا تأخذ من رسول الله ﷺ ذلك العلم بشكل تقليدي، بل سمح لها -بتكوينه لها- أن تنقل عنه ذلك العلم بشكل دقيق، وساعدها على تمحيص ما تعلمته من مناقشتها له واستفساراها منه، مثلما تدل عليه بعض الروايات. وعن عروة بن الزبير عن عائشة، «إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي قُعَيْسٍ اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ، فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ، فَقَالَ: **ائْذَنِي لَهُ**. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَرْضَعَتْنِي الْمَرْأَةُ، وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ، قَالَ: **ائْذَنِي لَهُ فَإِنَّهُ عَمُّكِ تَرِبَتْ يَمِينُكِ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطلاق.

(٢) أخرجه أحمد، كتاب باقي مسند الأنصار.

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ وَهْبٍ الْهَمْدَانِيِّ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ (المؤمنون:٢٣-٦٠)، قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمِ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: **لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمِ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**»[1]. وتقول: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ (إبراهيم:٤٨)، فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «**عَلَى الصِّرَاطِ**»[2].

يبدو من خلال هذه الروايات أن عائشة كانت تتلقى من رسول الله ﷺ وتستوعب ما تتعلمه منه بذكاء. وكان دافع هذا التعلم قوياً جداً، وهو أن ترضي الله عز وجل أولاً، وتعلمت من المصطفى الحكم الشرعي حول علاقتها بالرجل الأجنبي، وحكم أخيها من الرضاعة. فالانقياد الأول كان لله عز وجل حسب فهمها من رسول الله.

وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟ قَالَتْ: مَا كَانَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ، وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعاً، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب القيامة والجنة والنار.

وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلاَثاً. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ قَالَ: «**تَنَامُ عَيْنِي وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي**»[1].

ويمكن أن نُبصر من خلال هذا الحديث أن عائشة، رضي الله عنها، اعتادت على أن تراه يوتر، واقتدت به في ذلك، فلا تريد أن يفوتها ذلك، فقد يرد عليها، فيذكر لها حكماً آخر، وتربط بين الأحكام بشكل عقلاني. وهنا يتجلى حرصها على التعلّم منه بشكل منطقي متسلسل، ويؤكد هذا القول ما قالته عائشة: إن النبي ﷺ كان يترك العمل، وهو يحب أن يعمله، كراهية أن يستن الناس به؛ فيفرضَ عليهم، فكان يحب ما خفف عليهم من الفرائض. فهي لاحظت بذكاء الحدود التي يجب التوقف عندها في التأسي برسول الله ﷺ، والعمل بما سنّه، فميزت بين ما يداوم عليه فيعتبر سنة يستن بها، وما لم يداوم عليه ولم يكن مطلوباً.

لقد تخرجت السيدة عائشة، رضي الله عنها، من مدرسة الرسول ﷺ، وهي مرباة بتربية رفيعة وعقلية فذة أهلتها لتتحمل مسؤولية وموقعاً فعّالاً في مجتمعها بعد أن توفي عنها النبي ﷺ، وذلك في الثامنة عشرة من عمرها. وتجلت بوضوح ثمار جهود المصطفى في تكوينها، وسبب تلك العناية التي حظيت بها.

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب.

المطلب الثاني: موقع عائشة النخبوي بعد وفاة النبي ﷺ:

ترك النبي ﷺ عائشة وهي على خصائص خلقية رفيعة[1]. فلقد عرفت عائشة، رضي الله عنها، بكرمها وزهدها، فلم تكن تستهلك المال الذي يمنح لها لنفسها بقدر ما كانت تسخّره لغيرها، عن عطاء، قال: بعث معاوية إلى عائشة بطوق من ذهب، فيه جوهر قومٍ مائة ألف، فقسمته بين أزواج النبي ﷺ[2].

وعن أم ذرة، وكانت تغشى عائشة قالت: بعث إليها بمال في غرارتين، قالت: أراه ثمانين أو مائة ألف. فدعت بطبق وهي يومئذٍ صائمة، فجلست تقسم بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم. فلما أمست قالت: يا جارية هلمي أفطري. فجاءها بخبز وزيت، فقالت لها أم ذرة: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا لحماً بدرهم نفطر عليه؟! قالت لها: لا تعنفيني لو كنت ذكرتني لفعلت[3].

كما عُرفت عائشة بورعها وخوفها من الله عز وجل. ففي رواية عن عَوْفُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الطُّفَيْلِ، هُوَ ابْنُ الْحَارِثِ، وَهُوَ ابْنُ أَخِي عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ لِأُمِّهَا، أَنَّ عَائِشَةَ حُدِّثَتْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ فِي بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ

---

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١/٢-١٦؛ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء، ص٤٣-٥٠.

(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١٤/٢.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ٤٧/٢، ورجاله ثقات؛ وابن سعد، الطبقات الكبرى، ٦٧/٨.

أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ: وَاللَّه لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ أَوْ لأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَهُوَ قَالَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَتْ: هُوَ لِلَّه عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ لاَ أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبداً، فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا حِينَ طَالَتِ الْهِجْرَةُ، فَقَالَتْ: لاَ وَاللَّه لاَ أُشَفِّعُ فيه أَبداً، وَلاَ أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي. فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ كَلَّمَ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ، وَهُمَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ، وَقَالَ لَهُمَا: أَنْشُدُكُمَا بِاللَّه لَمَّا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ فَإِنَّهَا لاَ يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي. فَأَقْبَلَ بِهِ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُشْتَمِلَيْنِ بِأَرْدِيَتِهِمَا، حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ فَقَالاَ: السَّلاَمُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ، أَنَدْخُلُ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: ادْخُلُوا. قَالُوا: كُلُّنَا؟ قَالَتْ: نَعَم ادْخُلُوا كُلُّكُمْ، وَلاَ تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ. فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحِجَابَ، فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي، وَطَفِقَ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنَاشِدَانِهَا إِلاَّ مَا كَلَّمَتْهُ وَقَبِلَتْ مِنْهُ، وَيَقُولاَنِ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الْهِجْرَةِ، فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِرَةِ وَالتَّحْرِيجِ طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا نَذْرَهَا وَتَبْكِي وَتَقُولُ: إِنِّي نَذَرْتُ وَالنَّذْرُ شَدِيدٌ، فَلَمْ يَزَالاَ بِهَا حَتَّى كَلَّمَتِ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَأَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا»[1].

وأما عن تعبدها لله عز وجل، فعن عروة، أن عائشة، رضي الله عنها، كانت تسرد الصوم[2]. وعن القاسم، أن عائشة كانت تصوم الدهر ولا تفطر

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب.

(٢) ابن سعد، ٨/٧٥.

إلا يوم أضحى أو يوم فطر[1]. وعن القاسم قال: كانت أم المؤمنين إذا تعودت خلقاً لم تحب أن تدعه[2].

لقد تميزت السيدة عائشة عن غيرها بمستوى علمي متميز، فلقد رأينا سابقاً أن بعض الصحابيات -وليس كلهن- كن يعرفن الكتابة مثل الشفاء، لذلك يجب أن نشير إلى أن عائشة كانت تعرف القراءة والكتابة، وكانت تبدأ في مكاتبتها بعد البسملة بقولها: «من المرأة عائشة بنت أبي بكر حبيبة حبيب الله»[3]. ومما يدل على أنها كانت تكتب أيضاً رواية كانت تعبر فيها عن غضبها من قتل عثمان، ثم قال لها مسروق: هذا عملك، كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه. فقالت عائشة: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم سواداً في بياض إلا جلست مجلسي هذا. وقال الأعمش: كانوا يرون أنه كتب على لسانها[4].

لقد أجمع الأئمة المحدثون من المتقدمين والمتأخرين على أن أم المؤمنين عائشة كانت من بين أكبر فقهاء الصحابة، فاعتبرت مصدراً للصحابة ولمن جاء بعدهم، حيث كان كبار الصحابة يرجعون إليها في مسائل كثيرة، فلقد جمعت بين علم

---

(١) أخرجه ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٦٨/٨، ورجاله ثقات؛ صفة الصفوة، ٣١/٢.

(٢) أخرجه ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧٣/٨.

(٣) جاسم، ليث سعود، الرعاية والخدمات الاجتماعية في عصر النبوة ودور المرأة المسلمة فيها، ص٥٨.

(٤) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المالكي، (ت ٥٤٣هـ)، العواصم من القواصم في تحقيق موقف الصحابة بعد وفاة النبي، تحقيق: د. محمد جميل غازي، ط٢ (بيروت: دار الجيل، ١٤٠٧هـ) ص١٤٢.

الرواية وعلم الدراية[1]. عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: ما رأيت أحداً أعلم بسنن رسول الله ﷺ، ولا أفقه في الرأي إن احتيج إلى رأيه، ولا أعلم بآية فيما نزلت، ولا فريضة، من عائشة[2]. وقال مسروق: «لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض»[3]. وقال عنها معاوية: «والله ما سمعت قطّ أبلغ من عائشة إلا رسول الله»[4]. وعن أبي موسى قال: «ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً»[5]. وقال عطاء بن أبي رباح: «كانت عائشة من أفقه الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة»[6]، وقال عروة: «ما رأيت أحداً أعلم بفقه، ولا بطب، ولا بشعر، من عائشة، ولو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلاً، فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة»[7].

إنها الوحيدة من بين النساء، مقابل (٢٢) صحابياً، ممن يرجع إلى اجتهاداتها في التوثيق والتضعيف والتصحيح والتزييف في الحديث. وهي المرأة الوحيدة من مقابل (١٣) صحابياً من بين الذين اشتهروا بالفتاوى والأحكام وتكلموا في

---

(١) سعيد فايز الدخيل، موسوعة عائشة أم المؤمنين-حياتها وفقهها، ص٨٨.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣٧٥/٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ص٣٧٤؛ والإمام بدر الدين الزركشي، الإجابة، ص٥٨؛ وأبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٦٢/١-٦٣.

(٤) أخرجه الذهبي في السير، ١٨٣/٢.

(٥) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب فضل عائشة، ج٥، ح٣٨٨٣، وقال: حسن صحيح غريب.

(٦) أخرجه الحاكم، ١٥/٤، رقم ٦٧٤٨؛ وللإسكافي، ٤٣٥/٨، رقم٢٧٦٢.

(٧) محمد سعيد مبيض، موسوعة حياة الصحابيات، ص٥٦٢،٥٦٤.

الحلال والحرام. وكونها الوحيدة مقابل العددين المذكورين هذا معقول جداً. ولقد انفردت عائشة ببعض الآراء الفقهية خالفت فيها جمهور الصحابة، ومن أتى بعدهم، ومن ذلك صلاتها بصلاة الإمام، وهي في بيتها، وهو في المسجد؛ عن عائشة أنها كانت تصلي بصلاة الإمام في بيتها وهو في المسجد[1]، وغير ذلك.

ولما ذكر ابن حزم أسماء الصحابة الذين رويت عنهم الفتاوى في الأحكام، قدم عائشة على سائر الصحابة. ولقد جمعت عائشة، رضي الله عنها، بين العلم بالقرآن الكريم والحديث والفقه. أما عن علمها بالقرآن الكريم، فقالت عائشة: «وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[2]. وسبق أن رأينا كيف كانت تستفسر النبي ﷺ عن تفسير بعض الآيات.

ولقد كان لها منهج خاص في تفسير القرآن الكريم «فقد كانت تحرص أن تظهر اتفاق آيات القرآن فيما بينها، واتساقها وانسجامها، فترد الآيات إلى آيات أخرى، وتفسر القرآن بالقرآن، فقد سألها عروة عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء:٣)، فقالت: «يَا ابْنَ أُخْتِي هِيَ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا تُشَارِكُهُ فِي مَالِهِ، فَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ

---

(١) الحافظ الكبير أبو بكر عبد الرزاق بن همّام الصنعاني (ت ٢١١)، المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢ (المكتب الإسلامي، ١٩٨٣م)، في كتاب الصلاة، باب الرجل يصلي وراء الإمام خارجاً من المسجد، ٣/٨٢، حديث٤٨٨٣.

(٢) سعيد فايز الدخيل، موسوعة عائشة أم المؤمنين-حياتها وفقهها، ص٨٣.

يُقْسطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَنُهُوا أَنْ يُنْكِحُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يُقْسطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ». قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾» (النساء:١٢٧)، وَالَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ الآيَةُ الأُولَى الَّتِي قَالَ فِيهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، قَالَتْ عَائِشَةُ: «وَقَوْلُ اللَّهِ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾، يَعْنِي هِيَ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ لِيَتِيمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حَجْرِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلاَّ بِالْقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ»(١).

وإلى جانب علم السيدة عائشة بالقرآن فلقد كانت محدثة، فهي تصنف أول راوية في النساء الراويات من حيث كثرة الرواية للحديث. قال الحاكم أبو عبد الله: روى عنها جمع من الصحابة والتابعين، وبلغ ما روي عنها عن رسول الله ﷺ ٢٢١٠ حديثاً.

ورأينا أن مروياها بلغت ٢٤٠٥)، منها ١٧٤ حديثاً متفقاً عليها عند الشيخين، وانفرد البخاري منها بـ ٥٤ حديثاً، ومسلم بـ ٦٩ حديثاً،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشركة.

والباقي في الصحاح والسنن والمعاجم والمسانيد، وعدّها ابن حزم في المرتبة الرابعة من بين الصحابة المكثرين للرواية[1].

أخذت علمها عن رسول الله ﷺ مباشرة، قولاً وعملاً وتقريراً، وعن أبيها أبي بكر، وعن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وحمزة بن عمرو الأسلمي، رضي الله عنهم. وقد روت عن النساء أيضاً، فروت عن سيدة النساء فاطمة الزهراء، وعن جذامة بنت وهب، رضي الله عنهما[2]. أما من أخذوا عنها رجالاً ونساءً فهم كثيرون[3]. وكان من الآخذين عن عائشة الذين لا يكادون يتجاوزون قولها، المتفقهين بها، القاسم بن محمد بن أبي بكر ابن أخيها، وعروة بن الزبير ابن أختها أسماء. ومن النساء من روت عنها مثلاً زينب بنت أبي سلمة المخزومية الصحابية المعروفة، وخيرة أم الحسن البصري، وحفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وصفية بنت أبي عبيد، وعائشة بنت أبي طلحة التيمية، وعمرة بنت عبد الرحمن، ومعاذة العدوية، وأم كلثوم بنت أبي بكر -أخت عائشة لأبيها- وبهيّة مولاة سيدنا أبي بكر الصديق، وجرة بنت دجاجة، وذفرة بنت غالب، وغيرها كثيرات[4].

---

(١) سعود بن عبد الله الفنيسان، مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير، ص٩. وذكر الزركشي في ترجمتها في الإجابة عدد أحاديثها ١١١٠ حديثاً؛ وينظر: الإمام شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٣٩/٢.

(٢) الحافظ أبو الحجّاج يوسف المزّي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ٢٢٧/٣٥.

(٣) الحافظ أبو الحجّاج يوسف المزّي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ٢٢٨/٣٥-٢٣٣؛ الإمام شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٣٦/٢-١٣٧.

(٤) الحافظ أبو الحجّاج يوسف المزّي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ٢٢٧/٣٥-٢٣٤.

ومن الصحابة الذين عرفوا بروايتهم للحديث وكانوا يترددون عليها لمراجعة محفوظاتهم، أبو هريرة، رضي الله عنه، «فقد كان يأتي إلى مكان قريب من حجرة عائشة، رضي الله عنها، فيحدث، فعن هشام عن أبيه قال: كَانَ أَبو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ وَيَقُولُ: اسْمَعِي يَا رَبَّةَ الْحُجْرَةِ، اسْمَعِي يَا رَبَّةَ الْحُجْرَةِ، وَعَائِشَةُ تُصَلِّي...[1] حتى يطمئن إلى صحة الحديث عندما تقرّ عليه عائشة المحدثة الفقيهة الحافظة.

كانت عائشة، رضي الله عنها، من كبار علماء الصحابة المجتهدين. قال ابن قيّم الجوزية في إعلام الموقّعين: والذين حفظت عنهم الفتوى من الصحابة مائة ونيف وثلاثون نفساً، ما بين رجل وامرأة، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر[2].

وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: كانت عائشة قد اشتغلت بالفتوى في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وهلم جراً، إلى أن ماتت يرحمها الله[3]. ولقد كانت عائشة تجتهد في المسائل التي لا تجد لها نصاً صريحاً، حتى قال عنها عبد الرحمن بن أبي سلمة: «ما رأيت أحداً

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق.

(٢) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢ (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م) ص١٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/٣٧٥.

أعلم بسنن رسول الله ﷺ، ولا أفقه في رأي إن احتيج إلى رأيه، ولا أعلم بآية فيما نزلت، ولا فريضة، من عائشة»[1].

طرقت مرويات عائشة معظم أبواب الأحكام إلا قليلاً منها، وإن غلب على مروياها طابع الأفعال على الأقوال، ولا سيما ما يتعلق بأعمال رسول الله ﷺ البيتية والمعيشية. كما تميزت عائشة في مروياها بنقل أحكام النساء الخاصة هن.

وإذا فصلنا أكثر فيمكن القول: إن مروياها تناولت أحاديث تتعلق بأبواب الإيمان والوحي والعلم والقراءة والتفسير، كما احتوت على أحاديث تتعلق بآداب قضاء الحاجة، وبالوضوء والغسل في يوم الجمعة، وفي الجنابة، وهي كثيرة، وبمسائل في الحيض والاستحاضة، وما يتعلق بجواز مباشرة الرجل الحائض، وقد برعت وفاقت غيرها في هذا المجال.

وكذا أحاديث في التيمم، تتعلق بسبب نزول آية التيمم -وهي صاحبة القصة- وكذا حوت مروياها روايات كثيرة جداً في أبواب الصلاة تتعلق بالأوقات المنهي عن الصلاة فيها، وبكيفية فرضية الصلوات، وأحاديث في الأذان، وما ورد من الأذكار والأدعية خلالها وفي دبرها، وبالإمامة وفضل الجماعة، وأحاديث في المساجد وآداها وفضلها، وحضور النساء للمساجد، وأحاديث بخصوص صلاة العيدين والخوف والكسوف، وما يتعلق بالسنن الراتبة والنوافل وقيام الليل، وصلاة التراويح وما ورد في الوتر، وصلاة الجنازة وما يتعلق بها من ثياب الكفن، وأحاديث في إثبات عذاب القبر والتحذير من اتخاذ القبور مساجد، وغير ذلك مما يتعلق بالقبور وأهلها.

---

(١) الحافظ أبو الحجّاج يوسف المزّي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ٣٥/٢٢٧.

كما تناولت مروياتها أحاديث كثيرة في الصدقة وأجرها، وإنفاق المرأة من مال زوجها بغير إذنه، وكذا اشتملت على أحاديث كثيرة في الصوم تتعلق بمسائل شتى في تحرّي هلال شعبان لمعرفة هلال رمضان وفي السحور، وفي الصائم الذي يصبح وهو جنب، وتقبيل الصائم، وأحاديث في صيام التطوع وأخرى في الاعتكاف، وفي تحرّي ليلة القدر، وفي قضاء الصيام، وفي النهي عن صوم الوصال، وأيضاً روايات كثيرة جداً في الحج تتعلق بالتلبية وأنواع الحج الثلاثة، واستعمال الطيب قبل الدخول في الإحرام وقبل طواف الإفاضة وبعد التحلل الأصغر، وبفتل القلائد للهدي، وبعدد عمر النبي ﷺ، وعمرة عائشة نفسها من التنعيم ونزول المحصب، وما يتعلق ببناء الكعبة وفضلها. وكذا روايات في الأضاحي وفي الذبائح وبعض ما يتعلق بهما نحو العقيقة، كما أن لها مرويات في البيوع وما يتعلق بها، وفي العتق والمكاتبة. وتشتمل على أحاديث في باب اللباس والأطعمة والأشربة، والطب فيما يتعلق بعلاج المريض والدواء وبالرقية والدعاء، وبأحاديث في النذور والشهادات، وأيضاً على أحاديث تتعلق بالجهاد والمغازي والإمارة.

وتتضمن مروياتها أيضاً مجموعة من الأحاديث تدور حول النكاح وحسن المعاشرة بين الزوجين، والطلاق وما يتعلق به، وعلى روايات في أبواب الحدود، وأبواب المناقب والسير، وعلى جملة كبيرة من الأحاديث في الآداب المعيشية وحسن المعاشرة وفي البر والصلة، ولعل هذا الجانب من الجوانب البارزة في مروياتها، كما روت أحاديث في الزهد والرقاق وأحاديث في الفتن، وأشراط الساعة، والقدر والخلقة، وما يتعلق بالقيامة، وأحاديث في الاستغفار والدعاء والتوبة، وأحاديث في الفرائض.

وقد عمدنا إلى هذا العرض لتتجلى لنا فائدة التنوع الذي اتسمت به مرويات عائشة، رضي الله عنها، وخاصة في مجال الأحكام وفائدته في حياة الناس، فهي أساساً مرويات تنقل لنا الفعل لبيان السنة بغير الاقتداء.. وفضلاً عن تميز مروياتها بالعملية، فهي أيضاً روايات دقيقة تنقل لنا أدق التفاصيل عن حياة النبي ﷺ وأفعاله المعيشية والعبادية.

لقد اشتهر عدد من الصحابة ممن كان يكثر الرواية عن السيدة عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها:

- عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي، وعائشة خالته (روى عنها ١٠٥٠ حديثاً).
- القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعائشة عمته تربى في حجرها (روى عنها ١٣٧ حديثاً).
- الأسود بن يزيد النخعي الكوفي أبو عمرو (روى عنها ١١٧ حديثاً).
- عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصارية المدنية. وكانت في حجر عائشة (روت عنها ٧٢ حديثاً).

لم يتوقف إسهام أم المؤمنين عائشة في المجال الفكري فقط، بل أسهمت أيضاً في المجال السياسي، في عهدي أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، خليفتيّ رسول الله ﷺ حيث ساد الاستقرار السياسي، ولم تظهر مشاكل سياسية على مستوى القيادة، وكان لموقع عائشة آنذاك أثر في المجال العلمي، الذي سبق وأن أشرنا إليه.

أما في عهد سيدنا عثمان، رضي الله عنه، فلقد بدأت بعض المشاكل السياسية تظهر على مستوى القيادة، وكان لعائشة رأي فيها، لجأت بعض

الأطراف المعارضة إلى عائشة لمطالبة سيدنا عثمان بالعدول عن تصرفاته، فقامت بذلك، ولكن يبدو أن هذه المعارضة لم تهدأ. واستغلت ضد عثمان استغلالاً سيئاً، تقول عنها عائشة: «كان الناس يتجنون على عثمان، رضي الله عنه، ويزررون على عماله، ويأتوننا في المدينة، فيستشيروننا فيما يخبروننا عنه، ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم، فننظر في ذلك، فنجده بريـاً تقياً وفياً، ونجدهم فجرة كذبة، يحاولون غير ما يظهرون...»[1].

إن استشارة عائشة في قضايا حساسة دليل على الموقع المهم الذي كانت تحتله في زمانها، على الرغم من أنها لم تكن زوجة النبي ﷺ الوحيدة. ولقد كانت لعائشة، رضي الله عنها، آراء سياسية مخالفة لبعض آراء عثمان، رضي الله عنه، فتخرّجها من بيت أبيها أبي بكر الصديق الذي اشتهر بالعلم بأيام العرب؛ ومن البيت النبوي، الذي عاشت فيه مع زوجها النبي القائد السياسي المحنك، أكسبها مفاتيح خاصة لفهم السياسة ومجرياتها. فالعوامل مجتمعة تجعلها تمتلك وجهات نظر خاصة في الأمور السياسية، من ذلك حينما جاء وفد مصر يشكون أميرهم عبد الله بن أبي سرح وكان أخا عثمان لأمه، عند ذلك أرسلت إليه عائشة: قد تقدم إليك أصحاب رسول الله ﷺ، وسألوك عزل هذا الرجل، فأبيت أن تعزله، فهذا قد قتل منهم رجلاً، فأنصفهم من عاملك»[2]. وحينما سئلت عن خروجها في طلب دمه، قالت: «رأي رأيته حين قتل عثمان بن عفان، إنا نقمنا عليه ضربة

---

(١) ابن جرير أبو جعفر محمد الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط٤ (دار المعارف، ١٩٧٧م) ٤٦٤/٢.

(٢) الحافظ جلال الدين السيوطي (ت٩١١ هـ)، تاريخ الخلفاء، تقديم: الأستاذ عبد الله معوذ (حلب: دار القلم العربي، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص١٦٢.

بالسوط، وموقع المحماة، وإمرة سعيد بن العاص والوليد بن عقبة، فعدوتم عليه فاستحللتم منه الثلاث الحرام: حرمة البلد، وحرمة الخلافة، وحرمة الشهر الحرام». غير أن مخالفتها لبعض مواقفه أو آرائه لم يمنعها من أن تنكر أسلوب التغيير، الذي اتبعه الثائرون على عثمان لما كانت ناقمة على قتلته. لقد كانت ترى أن التغيير أو المعارضة يكون بأسلوب سلمي[1].

ولما قتل عثمان، رضي الله عنه، نصحت بأن يبايع الناس عليّاً، رضي الله عنه. فحسب ما يرويه الأحنف بن قيس: «من تأمريني أن أبايع؟ قالت: علياً، قال: تأمريني به، وترضينه لي؟ قالت: نعم، فمررت على علي بالمدينة فبايعته، ثم رجعت إلى أهلي بالبصرة، ولا أرى الأمر إلا قد استقام»[2]. وبعد أن تمت البيعة لعلي، طالبت عائشة وجمهرة الصحابة والتابعين علياً بأن يقتص من الثائرين، أي قتلة عثمان، وهذا حتى تستريح الأمة منهم، ولا يتعاظم شرهم. «ولقد قامت خطيبة بالناس عند الكعبة المشرفة مطالبة الناس ألا يتهاونوا في ذلك»[3]. غير أن علياً كان يرى التريث بدل الإسراع.

وقد خرجت عائشة، رضي الله عنها، مع طلحة والزبير لمعاقبة قتلة عثمان، وأرادت بذلك الإصلاح، غير أنها كانت مترددة في الخروج، ونصحتها أم سلمة بأن لا تخرج، واستغلّ البعض غضبها ليقحمها بحجة أنها تكون واسطة

---

(١) ينظر في سعيد فايز الدخيل، موسوعة عائشة أم المؤمنين-حياتها وفقهها، ص٦٣-٦٤.

(٢) ابن جرير أبو جعفر محمد الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٩٧/٤؛ وابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٥٧/١٣.

(٣) ابن جرير أبو جعفر محمد الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٤٨/٤؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠٥/٣.

للإصلاح. وبالبصرة حدث القتال، والتحق علي، رضي الله عنه، ليصلح الأمر، لكن الثائرين استغلوا الموقف ليشعلوا نار الحرب ليحافظوا على أنفسهم تحسباً أن الصلح لا يكون في صالحهم. وتوقفت الحرب وسقط القتلى من كلا الطرفين، وتوقفت بعد أن أمر علي بعقر الجمل الذي ركبته عائشة. ندمت عائشة على خروجها إلى هذه المأساة ندماً شديداً، فكانت كلما تذكرها قالت: «والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة»[1].

أما في عهد معاوية، رضي الله عنه، فقد عارضته فيما كانت ترى أنه ليس في صالح المسلمين، على الرغم من إحسانه لها، من ذلك معارضتها لأسلوب العنف والقسوة الذي استخدمه في إبعاد معارضيه كقتله لأخيها محمد بن أبي بكر وحجر بن عدي. فحينما زارها معاوية، رضي الله عنه، لما حج قالت له: آمنت أن أخبئ لك رجلاً يقتلك بأخي محمد؟ قال: ما كنت لتفعلي. وعن حجر: حاولت أن تحول دون قتله، فلم تفلح في ذلك، وحينما زارها عاتبته بقولها: «يا معاوية أين كان حلمك عن حجر، فقال: لم يحضرني رشيد»[2]. كما أنكرت على معاوية توعده الصحابة والتابعين الذين رفضوا بيعة ابنه يزيد، وحينما زارها قالت له: «بلغني أنك تتهددهم بالقتل، فارفق بهم، فإنهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله، قال: أفعل»[3].

---

(١) ابن جرير أبو جعفر محمد الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥٣٧/٤؛ وينظر أيضاً أبو الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص٣٧٩.

(٢) سعيد فايز الدخيل، موسوعة عائشة أم المؤمنين-حياتها وفقهها، ص٧٨.

(٣) الإمام بدر الدين الزركشي، الإجابة، ص١٢٩.

ونظراً للمكانة التي تحتلها عائشة فقد أرسل إليها معاوية يستنصحها. أخرج الترمذي: «كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، رَضي اللّهم عَنْهَا، أَنِ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَاباً تُوصِينِي فِيهِ، وَلاَ تُكْثِرِي عَلَيَّ. فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ، رَضي اللّه عَنْهَا، إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلاَمٌ عَلَيْكَ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللّه بسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللّهِ وَكَلَهُ اللّهُ إِلَى النَّاسِ**. وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ»[1].

ولم يكن لعائشة، رضي الله عنها، مواقف سياسية فحسب، بل كان لها رأي في أسباب فشل الحرب أيضاً. قالت عائشة يوم الجمل عندما سمعت أصحابها وكثرة صياحهم: المنازعة في الحرب خور (ضعف)، والصياح فيها فشل، وما برأيي خرجت مع هؤلاء[2].

إن امرأة اجتمعت فيها هذه القدرات لا بد أن تحدث آثاراً واضحة في تشكيل وسير الحركة الفكرية وصناعة القرارات السياسية وبالضرورة على حركة التغيير الاجتماعي. ولا أظن أن الرسول ﷺ قد أشرف عليها لتكون الأنموذج الذي لا يمكن أن يتكرر، بل العكس تماماً أراد أن يعلمنا كيف نعتني ونحافظ على هذا النوع من النساء؛ لأن النخبة التي تسهر على توجيه الحركة التغييرية الفكرية والاجتماعية لا يمكنها أن تستقيم بعنصر الرجال فقط. هذا ما حرص على تنظيمه الرسول، عليه أفضل الصلاة والتسليم، في الوسط

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد.

(٢) الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، ط٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧) ١/٨٩.

النخبوي. وغياب مثل هذا الأنموذج في الوسط النخبوي الفكـــري لابـــد وأن يخلف فكراً غير متوازن.

وإذا كان مصير المجتمع مرهون بالجهد والإبداع الذي تبذلـــه النخبـــة في توجيه مشاكله، فإننا سندرك مدى خطورة غياب أو إزاحة أوتهميش المرأة من الوسط النخبوي وما يترتب عنها من نتائج. ومدى أهمية بحث موقعها في هـــذا الوسط، وخاصة إذا نظرنا إلى خطورة تقهقر دور النخبة عامة في المجتمع، بغض النظر عن الأسباب التي أوصلتها إلى ما وصلت إليه. والذي يهمنـــا في هـــذا الكتاب هو النتائج التي قد تترتب على غياب أو محاولة تهميش المرأة في هـــذا الوسط الحساس.

لقد أثمرت جهود المصطفى ﷺ في إعداد النماذج النخبوية، خاصة بعـــد وفاته ﷺ كما رأينا سابقاً. غير أن موقع المرأة في الوسط النخبوي في المجتمـــع أخذ يشهد تراجعاً تدريجياً بالتوازي مع تراجع الحركة العلمية النسائية، والـــتي كانت تتمثل في رواية الحديث بعد عصر التابعيات، أي بعد ذهاب تلميـــذات أمهات المؤمنـــين. وهذا التراجع له أسبـــابه الخاصة، التي سوف نتعرض لهـــا، بإذن الله في كتاب آخر.

الخاتمة

ونأتي في الختام إلى استخلاص النتائج التي ترتبت عن هذا البحث:

١- أخلص إلى القول: إن النخبة في نظري والمرأة النخبوية بالتحديد هي التي تنتمي إلى تلك الطليعة من الناس، التي تعيش شعوراً وإلحاحاً داخلياً يمدها بطاقة التحمّل لمواجهة الواقع السيئ في المجتمع، وتكابد من أجل تغييره نحو الأحسن. ولا يشترط بالضرورة أن تكون العناصر التي تنتمي إلى تلك النخبة هي من العناصر المثقفة ومتولدة من نخبة المثقفين ثقافة أكاديمية فقط. فكل التخصصات المعاصرة لها نخبة متميزة ومبدعة سواء أكانت تعتمد على العقل أو قوة الساعد. والنخبة التي أقصدها هي تلك العناصر التي تبرز من مختلف تلك النخب والتي يجمعها همٌّ واحدٌ، وهو التغيير لتحقيق حياة أفضل لمجتمعاتها.

٢- لا بد أن يحتوي المجتمع الإنساني في بنيته التركيبية على هرم يشمل الفئة الحاكمة والنخبة ثم العامة، إذا غابت فئة منه أو تعطل دورها ترتب عن ذلك خلل في سير حركة التغيير والتطور في هذا المجتمع. وتبين لنا من خلال دراسة وتحليل الخطاب القرآني أن فئة النخبة لا تضم الرجال فقط، بل اتضح لنا أيضاً أهمية موقع المرأة في الوسط النخبوي في المجتمع المسلم، خاصة عندما رأينا بعض الآيات التي حسمت قضايا لا يزال سؤالها يتجدد طرحه إلى يومنا هذا، وهي المساواة بين الرجل والمرأة. ورأينا كيف أن جل الروايات تدل على أن هناك عناصر نسائية نخبوية هي التي أثارت هذه القضية. ودل هذا على ضرورة وجود العنصر النسوي، الذي يسهر على مراقبة مدى تطبيق المساواة العادلة كما أرادها الله عز وجل.

٣- حتى نتمكن من استرجاع موقع المرأة النخبوي، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار، عند شرحنا للأحاديث المتعلقة بالمرأة ضرورة عدم وضع النساء في صنف واحد. كما ينبغي استحضار الصفات المشتركة بين الرجل والمرأة، مثلما ورد في القرآن الكريم.

٤- تمثل النماذج التي اخترتها من الصحابيات إطلالة على بعضٍ من إسهامات عناصر نخبوية نسوية أدت أدوارهن جنباً إلى جنب مع إخوانهن الرجال في المجتمع، خاصة في رواية الحديث، الذي يعتبر المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي وبالتالي ساهمن في الحفاظ على موروثنا التشريعي. وقد احتوت تلك الروايات مختلف مجالات الحياة سواء في العبادات أو المعاملات، واستطعت من خلال متون تلك المرويات استخلاص بعض إسهاماتهن وأثرهن في الوسط النخبوي. والمعلومات التي أوردتها كافية للتأصيل لموقع المرأة النخبوي في المجتمع الرسالي، وإثبات مدى أهمية وجدية هذا الموقع في الوسط النخبوي لإنتاج فكر متوازن يخدم كل أطراف المجتمع.

٥- لقد كان لعائشة، رضي الله عنها، دور بارز في الوسط الفكري والاجتماعي، فقد كان لها اجتهاد في التوثيق والتضعيف والتصحيح والتزييف، وخاصة بعد وفاة النبي ﷺ. لقد أراد الرسول ﷺ أن تكون عائشة أنموذجاً يقتدى به. ونقص مثل هذا الأنموذج في النخبة الفكرية لا بد أن يخلّف فكراً غير متوازن. ولا أظن أن الرسول ﷺ قد أشرف عليها لتكون الأنموذج الذي لا يمكن أن يتكرر لاحقاً، بل على العكس تماماً أراد أن يعلّمنا كيف نعتني ونحافظ على هذا النوع من النساء؛ لأن النخبة التي تسهر على توجيه الحركة التغييرية الفكرية والاجتماعية، لا يمكنها أن تستقيم بعنصر الرجال فقط. من يرجع إلى اجتهادهم في التوثيق والتضعيف والتصحيح والتزييف أو يبلغ درجة الفتوى واستنباط الأحكام الشرعية مثل عائشة آنذاك لا بد أن يخوض بعمق في فكر مجتمعه، ويكون له احتكاك مباشر على نطاق واسع.

٦- إن إدماج المرأة في المجتمع المسلم سنة سنها الرسول ﷺ، فلقد كانت مشاركتها جزأ من حياتها، وعلى رأس هذه المشاركة يأتي أمر الإسهام في صنع القرار، وتقع المسؤولية في توفير الظروف الملائمة التي تحفظ المرأة والرجل في ظل الآداب الإسلامية على الدولة. وحتى تصل المرأة إلى مستوى صنع القرار، سواءً السياسي

أو الفكري، أثبت الواقع أنه لا يمكن أن تبلغه إذا لم تمارس العمل، بمعنى أن تدخل ميدان الشغل بعد الحصول على الشهادات العلمية، حتى تكتسب آراءً تتفق مع متطلبات الواقع. ورأينا من خلال سيرة الصحابيات أن مفهوم عمل المرأة كان له أبعاد مختلفة، وكون المرأة لم تكن مقيدة بعمل مؤسساتي يلزمها اتباع جدول معين يأخذ كل وقتها يمكن أن نطلق عليه بما يعرف اليوم توقيت مرن أو بالساعات، هذا ما سمح لهن التوفيق بين وظيفتهن الطبيعية ودورهن في المجتمع. غير أن الواقع المعاصر لعمل عامة النساء في ظل هيمنة النظام الرأسمالي لا يسمح لها بأداء وظيفة إعداد وتربية الجيل الصاعد. وبذلك فهو لا يتفق مع المبدأ الذي تخرج من أجله المرأة للعمل، وهو تحقيق العبودية لله عز وجل، الذي أمرنا باستخلافه في الأرض. ولتحقيق شرف الاستخلاف يتوجب تحمل مسؤولية تسيير المجتمع نحو تحقيق تنمية روحية ومادية شاملة في كل المجالات، ويتحمل مسؤولية القيام بذلك الرجل والمرأة على السواء. وينبغي أن تقوم هذه التنمية على أساس معادلة نهضوية، تثمر قبل كل شيء إنتاج إنسان يرث دور الاستخلاف، ويعيش في ظروف مادية، تحفظ له البعد الروحي الذي يعينه على عبادة خالقه، ويكون قد وعى الهدف الذي خلق لأجله، وهو تحقيق العبودية لله. فلا حاجة لتنمية مؤقتة تقضي على النوع الإنساني، فقد تتحقق تنمية مادية تفتقر إلى جيل يرث مسؤولية الاستخلاف ويواصل السير لتحقيق نهضة شاملة.

يمكن أن نخلص من هذا الكتاب إلى توصيات نراها مهمة نذكرها كالآتي:

١- إن تراثنا الإسلامي ثروة لا تزال إلى حد الآن خاماً، بالرغم من كل الجهود التي بذلت في البحث والتنقيب فيه. وهذا لا يرجع لضعف تلك المجهودات، بل لسعة هذا التراث. وهذا ما يدعونا إلى مواصلة البحث والتنقيب على المخطوطات التي تناولت السيرة الذاتية للعناصر النخبوية، التي تعرضتُ لها في هذا البحث. والبحث في هذا المجال يحتاج إلى طول نفس، لأنه مبعثر بين ثنايا مواضيع مختلفة. وإن الوسائل

الحديثة قد أدخلت أعداداً ضخمة من الكتب في أقراص الليزر والإنترنت، وهذا يفسح المجال لاستقراء كل النصوص التي وردت فيها أسماء الصحابيات. وعملية جمع تلك النصوص والعبارات تعطينا مادة يمكن من خلالها تركيب خلفيات تاريخية عن الحياة الاجتماعية والفكرية للصحابة والصحابيات، رضوان الله عنهم أجمعين.

٢- ينبغي جمع آراء أم المؤمنين السيدة عائشة، رضي الله عنها، السياسية التي لا تزال متناثرة، والتي تحتاج إلى جمع، خاصة تلك التي أبدتها في زمن معاوية ابن أبي سفيان. وكذلك آراء أم المؤمنين ميمونة التي توفيت قريباً من زمن وفاة عائشة، وغيرها من الصحابيات النموذجيات كأم سلمة وأسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم جميعاً.

٣- هناك عناصر نخبوية نسوية، وردت أخبارهن في غير كتب السنة، مثل كتب الأدب والتاريخ مثل بريدة والزرقاء وغيرهما، اللواتي يتطلب التنقيب عن سيرهن من خلال كتب الأدب، وهو منهج في التوثيق لا يستهان به. فلقد وصلتنا إلى يومنا هذا المعلقات السبع، بالرغم من رجوعها إلى العصر الجاهلي، فالشعر مصدر مهم جداً لمثل هذه القضايا، ويمكن أن يساعدنا على الوصول إلى إسهاماتهن بشكل أوسع.

٤- ضرورة تتبع الأسباب التي غيبت التأليف النسائي للفقه على مر التاريخ الإسلامي.

٥- أهمية إعداد بحوث خاصة مقارنة في الاقتصاد حول نظام توقيت عمل المرأة، وإعادة توزيع نظام الأجور على المرأة طبقاً لعدد ساعات العمل.

٦- إعداد بحوث في القانون تقنن لأنماط عمل جديدة تتولد من الثورة المعلوماتية الحديثة من شأنها أن تحفظ حقوق المرأة العاملة من بيتها ومن المؤسسة.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* تقديم: الأستاذ عمر عبيد حسنه	٥
* مقدمــــة:	٢٥
* المبحث الأول: مفهوم النخبة وفق المنظورين الإسلامي والغربــي	٢٧
- المطلب الأول: مفهوم النخبة حسب التصور الإسلامي	٢٧
- المطلب الثاني: مفهوم النخبة حسب التصور الغــربي	٣٧
* المبحث الثاني: نماذج من العناصر النخبوية النسوية في القــرآن	٤٠
- المطلب الأول: البدهيات القرآنية في التركيبة النخبوية	٤١
- المطلب الثاني: نماذج نسائية نخبوية في القرآن الكريم	٥٧
* المبحث الثالث: نماذج من العناصر النخبوية النسوية في الــسنة	٧٠
- المطلب الأول: موقع راويات الحديث في مجتمع الــصحابة	٧٢
- المطلب الثاني: موقع نماذج من الصحابيات في الوسط النخبوي	٩٧
* المبحث الرابع: أم المؤمنين عائشة المرأة النخبوية النمونجية.....	١٨١
- المطلب الأول: نظرة تحليلية لشخصية عائشة قبل وفاة النبي ﷺ	١٨٣
- المطلب الثاني: موقع عائشة النخبوي بعــد وفــاة الــنبي ﷺ	١٩٩
* الخاتمــــــة	٢١٥
* الفهـــــرس	٢١٩

وكـــــلاء التـــوزيـــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــر	دار الثقافـــــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــرين	مكتبـــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨-٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤ – صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦ – الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مــــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــــع والترجمـــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦ – الرباط
الجزائـــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة – الجزائر
إنكلتـــرا	دار الرعايـــة الإســـلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠)	فلس
الإمارات	(٥)	دراهم
البحرين	(٥٠٠)	فلس
تونس	دينار	واحد
السعودية	(٥)	ريالات
السودان	(٥٠)	قرشاً
عمان	(٥٠٠)	بيسة
قطر	(٥)	ريالات
الكويت	(٥٠٠)	فلس
مصر	(٦)	جنيهات
المغرب	(١٠)	دراهم
الجزائر	(١٢٠)	ديناراً
اليمن	(٤٠)	ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي

الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء،

تطرح موضوعها لعام ٢٠١٠م

«الفروض الكفائية سبيل التنمية المستدامة»

قيمة الجائزة (١٧٥) ألف ريال قطري

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٢م

- **مدخل:**

تعريف الفروض لغة وشرعاً؛ أبعاد القيام بالفروض المسقط للإثم عن الأمة؛ دور الفروض الكفائية في الاضطلاع بأعباء الاستخلاف الإنساني.

- **المحاور:**

- **كيفية إحياء فروض الكفاية:** أسباب غياب الفروض الكفائية في الحياة الإسلامية؛ الفروض العينية والفروض الكفائية؛ الفروض الكفائية سبيل التنمية المستدامة وتحقيق الشهود الحضاري؛ علاقة الفروض الكفائية بالنفرة لتوفير التخصصات المعرفية والعلمية.
- **الفروض الكفائية سبيل الاكتفاء الذاتي:** الفهم الأعوج والتدين المنقوص أدى إلى التخلف والتراجع الحضاري؛ انكماش مفهوم الفروض الكفائية أدى إلى انتشار ذهنية الإرجاء والانسحاب من الحياة؛ عدم الاضطلاع بالفروض الكفائية أدى إلى فراغ استدعى (الآخر).
- **إحياء الفروض الكفائية سبيل إلى إحياء مؤسسات المجتمع:** تعريف المجتمع؛ الدولة؛ الأمة؛ المجتمع المدني؛ الفروض الكفائية تنمية للحس الاجتماعي واستشعار المسؤولية التضامنية؛ الفروض الكفائية وبناء شبكة العلاقات الاجتماعية.
- **الأسس والأبعاد النفسية والفكرية للفروض الكفائية:** علاقة الفروض الكفائية بتنوع القدرات والقابليات الإنسانية وتقسيم العمل؛ أعباء الاستخلاف وإقامة العمران مرهونة بالجهد الجماعي المتنوع.
- **غياب فقه الأولويات:** القراءة الخاطئة لاستحقاقات الحياة ومقاصد الدين؛ تراجع الدين عن حركة الحياة عطل الفهوم الصحيحة للفروض الكفائية واستشعار الحاجة إليها؛ علاقة الفروض الكفائية بالرؤية والتخطيط الاستراتيجي للنهوض.

* **الرؤية المستقبلية لكيفية إحياء الفروض الكفائية:** تحويل الفروض الكفائية إلى محركات اجتماعية ومحرضات نفسية لأداء الرسالة والاضطلاع بالمسؤولية؛ الفروض الكفائية عندما تتحول إلى فروض عينية؛ التخصصات العلمية السبيل الوحيد للنهوض واستئناف الحياة الإسلامية؛ الفروض الكفائية وإعادة بناء أهل الحل والعقد، في ضوء القضايا المطروحة.

• شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠,٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨ - تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

* ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

لمزيد من الاستفسار: هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠٠(+٩٧٤)-فاكس: ٤٤٤٧٠٠٢٢

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر
ص.ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يكتسب أهمية خاصة بعد هذا الغيـاب الرعيب للمرأة المسلمة وما تعانيه من الانكسار النفسي واستشعار البخس والنقص وغياب الشخصية الاستقـلالية، التي رسمها الإسلام.

لقد بذلنا جهوداً كبيرة في الدفاع عن المرأة وحقوقها في الإسلام، ورابطنا على حدودنا الحضارية التاريخية في مواجهة المد الطاغي من (الآخر)، لكن الفكر الدفاعي استغرق كـل طاقاتنا، ولم نلتفت إلى أهمية بناء شخصية المرأة، فعدنا فلم نجد المرأة؛ لقـد سُلبنا أبناءنـا وبناتنا وما نزال مستمرين بقرع الطبول الجوفاء!

إن سوء التقدير والتدين المغشوش وعدم إعطاء المرأة ما أعطاها الله كان السبب وراء الواقع البئيس؛ وقد يكون من أهم المخاطر حرمان المرأة من العلم والحـضور الاجتمـاعي وممارسة الحقوق التي شرعها الله.. وعندما فكرنا بالمرأة ودورها شعرنا بحجم الهزيمـة، وأن نماذج الاقتداء هنّ ممن خرجن على صور التدين وسبقن إلى مجالات الحياة.

ويبقى المطلوب، حيث لم يفت الأوان بعد، التفكير الجدي بإعطاء المرأة ما أعطاهـا الله، بعيداً عن التقاليد الجاهلية وفهوم التخلف والتراجع الحضاري، وتقديم نماذج للاقتـداء من تاريخنا الحضاري، والعودة إلى تعاليم الدين وقيمه؛ فإذا لم نحقق شهادة النبوة علينا، وفي جملتها إعطاء المرأة ما أعطاها الله ورسوله، فسوف نبقى عاجزين عن تحقيق الشهادة علـى الناس وقيادتهم إلى الخير، مهما ارتفعت شعاراتنا.

المرأة في ديننا تعلمت وعلّمت، وجاهدت، وهاجرت، وبايعـت، وناصـرت، وأمـرت بالمعروف، واستدركت على الرجال، وبلغ بها الإسلام شأواً عظيماً لم تبلغه المرأة في أي حضارة، وما عرض له الكتاب في تقديم نماذج عن موقع المرأة النخبوي خير شاهد ودليل، فهل يـستمر واقعنا المشوه: «أيعطينا الله ويمنعنا الناس»؟!

موقعنا على الانترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الالكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa